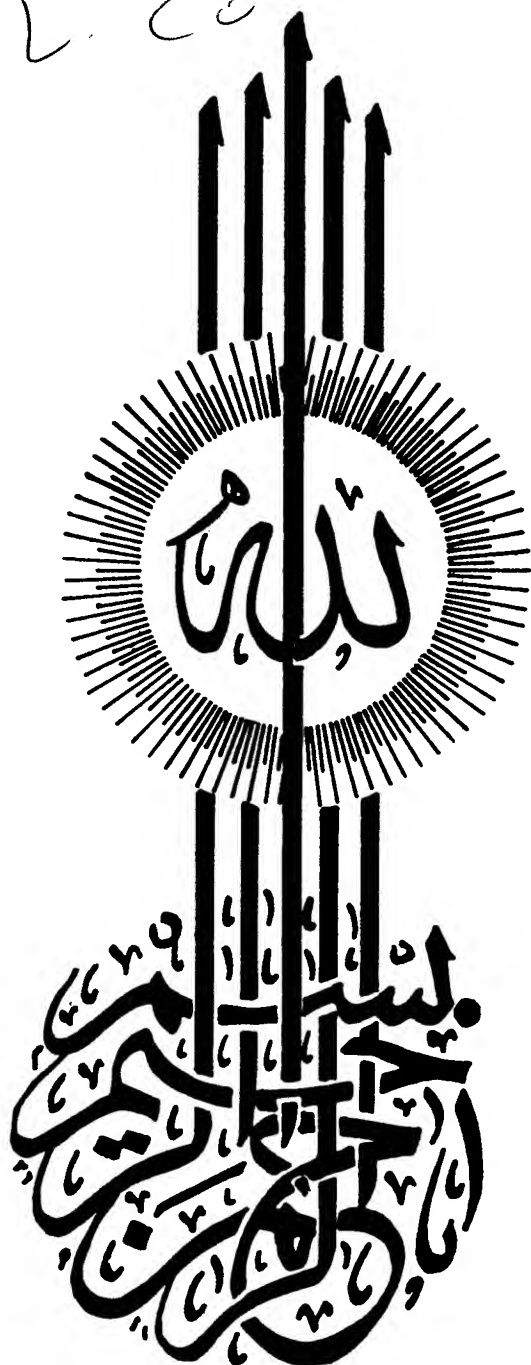


Mnjoel.com



فَسَاءَ أَجْرُ الرُّسُلِ
وَالَّذِينَ عَلَىٰ أُنْفُسِهِمْ آلَاتٌ

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبعة السَّادسة

١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م



الناشر

مكتبة السوادي للتوزيع

ص.ب - ٤٨٩٨ جدة ٢١٤١٢ - ت: ٦٨٨٤٢١٢

فاكس ٦٨٧٨٦٦٤

Angool.com

نِسَاءُ حَوْلِ الرَّسُولِ

وَالرَّدُّ عَلَى مُفْتَرَيَاتِ الْمُسْتَشْرِقِينَ

بقلم

مروفي أبو النصر السبهي

محمود محمد بنو



مكتبة السوادى للتوزيع
جدة - هاتف ٦٨٤٦١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى كل فتاة تعيش في تيه من التفكير والسلوك، وتبحث عن القدوة
الحسنة، وتحب أن تشارك في بناء لبنة من لبنات المجتمع الإسلامي..
وإلى كل الأمهات والمربيات المجاهدات اللاتي يرضعن أطفالهن لبان
الشجاعة والصدق، ويبدلن كل غالٍ ورخيصٍ لإعداد جيل مؤمن..
إليكن جميعاً أيتها الأخوات والأمهات نقدم هذه النماذج الطيبة من
النساء اللاتي كنَّ حول الرسول، وشاركن في إشادة الصرح، الإسلامي
العظيم..

أملأ أن تتدارسن سيرتهن وتنهجن نهجهن لإعداد جيل مسلم يعيد
سيرة الإسلام الأولى ويخرج الناس:

من عبادة العباد لعبادة الله وحده.
ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.
ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ التَّأْلِيفِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعبالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

سورة آل عمران، آية ١٠٢.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

سورة النساء، آية ١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

سورة الأحزاب، الآيتين ٧٠ - ٧١.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد:

فإنه لا يخفى على أحد من المنصفين الصادقين مبلغ ما وصل إليه من الرفعة - الجيل المسلم - الذي رباه الرسول محمد ﷺ، ونشأه على مكارم الأخلاق، وسمو الأعمال وعظمة الأجداد، فأيقظ الشرق، وهزَّ الغرب، وأنطلق لإنقاذ البشرية من الوثنية والهمجية والإغحاط، وسار بالمؤمنين والمؤمنات في طريق المجد والعظمة، وكان من أهدافه: إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. ومن ضيق الدنيا إلى سعتها^(١).

وقد تم كل ذلك بسرعة عجيبة، مما أدهش حتى علماء الغرب ومفكره في عصورهم المختلفة، فأطلقوا على هذه الظاهرة العجيبة اسم - المعجزة الإسلامية - إذ لا يتصور العقل البشري أن يحدث مثل هذا الإصلاح السريع العظيم في أمة كانت تعيش في فوضى الجاهلية والوثنية، وفي ظلمات بعضها فوق بعض، فأصبحت خير أمة أخرجت للناس.

وما أحرانا - نحن المسلمين والمسلمات - في هذا العصر الذي اضمحلت فيه القيم، وفسدت الضمائر، للتحدث عن عظائنا الأولين الذين بنوا لنا هذا المجد التليد، والذكر اللامع، والتاريخ الناصع، أملاً بالاعتبار والنهوض.

(١) هذه الكلمة للجندي المسلم ربعي بن عامر قالها لرسم قائد الفرس، فما أصدقها وما أبلغها من كلمة، ففيها إشارة واضحة، وحقيقة ناصعة على أن غاية الفتح الإسلامي ليس إستعمار الشعوب كما هو حال الاستعمار الغربي وغيره، وإنما هو إنقاذ للبشرية مما هي فيه من ضلالات ووثنيات والسير بها إلى ذرى المجد والعظمة والفضيلة.

وإن كانت نماذج الرجال كثيرة، فنماذج النساء لا تقل أهمية من حيث الكيف، فالمرأة المسلمة في صدر الإسلام لم تكن أقل ثباتاً في دينها من الرجال، ولا أقل تضحية وبذلاً في سبيل عقيدتها، فقد ضربت أروع الأمثلة في هذا المجال، فضحت من أجل إسلامها بكل ماتملك، مستهينة بكل ما يصيبها من ظلم وتعذيب وموت في سبيل عقيدتها.

هذا من حيث الكيف، أما من حيث الكم، فمعلوم أن المرأة تشكل نصف المجتمع من حيث العدد، فإذا وضعنا في الحسبان أنها تلد النصف الآخر علمنا أهميتها البالغة ودورها العظيم في بناء المجتمع.

هذا والمرأة سلاح ذو حدين، فإذا صلحت وأدت وظيفتها الأصلية، وهدفها المرسوم، كانت لبنة صالحة في بناء مجتمع إسلامي متماسك قوي الأخلاق، متين الدعائم.

ولهذا نجد أن الإسلام قد اهتم بالمرأة اهتماماً بالغاً، وأحاطها بالتربية والرعاية، وشرع لها من الحقوق بما يلائم تكوينها وفطرتها ما لم تعهده أمة من الأمم على مر العصور.

وبهذا الاهتمام العظيم صاغ الإسلام تلك المرأة المسلمة التي كانت وراء هؤلاء العظام الأفاضل الذين ملأوا الأرض بالحكمة والعدل، وركزوا ألويتهم في قلب آسيا، وهامات أفريقية، وأطراف أوربة، وتركوا دينهم وشرعهم ولغتهم وعلمهم وأدبهم تدين لها القلوب وتستروحها النفوس^(١) وقديماً قيل: «إن وراء كل رجل عظيم، امرأة عظيمة...».

(١) لمزيد من الفائدة راجع كتاب عودة الحجاب القسم الثاني للأخ الفاضل محمد أحمد اسماعيل المقدم من ص ١٣٥ حتى ص ١٤٧ ففيه كلام طيب ومفيد بحول الله.

وقد صدق الشاعر إذ يقول:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا بالري أوراق آيما ايراق
الأم أستاذ الأساتذة الأولي شغلت مآثرهم مدى الآفاق
ولكن عندما تنحرف المرأة عن مهامها الأصلية التي رسمها لها
الإسلام وتبرز بزور الشر، وتنطمس معالم الخير في نفسها، فإنها ستقلب
آنذاك إلى سلاح فتاك ينذر بتدمير الأمم وانهيارها وتمزيقها شرمزاً (١).

ومن أجل هذا نجد أن قائد الأمة ومعلمها الأول صلى الله عليه وسلم
قد حذر أمته من خطر المرأة في حال انحرافها كما حذر من خطر التكالب
على الدنيا. فمن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ
قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها. فناظر كيف
تعملون؟ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء».

وفي رواية أخرى (فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) (٢)
وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «فما تركت
بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» (٣).

وروى أبو نعيم في الحلية بسنده عن حسان بن عطية قال: (ما أتيت
أمة قط إلا من قبل نسائهم) (٤).

(١) لا ينسى أحد درس تاريز الأم بأن الانحراف بالمرأة كان السبب الأول في انهيار
حضارات قديمة وتمزيقها كل ممزق، ونزول العقاب الرباني بأهلها، واصابتها بالأمراض
الفتاكة كما وقع لليونان والرومان والفرس والهنود وبابل وغيرها من الممالك.

(٢) رواه مسلم في الذكر، باب أكثر أهل الجنة الفقراء برقم ٢٧٤٢/.

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجة أنظر جامع الأصول
(٥٠٤/٤).

(٤) حلية الأولياء (٦/٧٦).

وقد أدرك الأبالسة من أعداء الإسلام الدور البارر للمرأة المسلمة في بناء الأمة المسلمة منذ أن بايعت النبي صلى الله عليه وسلم حتى اليوم، كما عز عليهم أن تجود على أمتها بالعلماء العاملين، والمجاهدين الصادقين أمثال عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وصلاح الدين الأيوبي، و.. وعائشة بنت الصديق، وأسماء، وأم عمار، والخنساء و.. و.. ووجد هؤلاء الأعداء بأن خير وسيلة لهدم الإسلام هي القضاء على عقيدة المرأة المسلمة فعمدوا إلى وضع المخططات الخبيثة والديثة، لإخراجها عن وظيفتها الأساسية، وسلب تلك البيعة الكريمة من يدها، والزج بها في مهاوي الرذيلة تحت مصطلحات براقة مثل (التحرر، والمساواة، والتقدم، والعلمانية، والثورية، وتحطيم الأغلال، والحدثة والتجديد.. إلى آخر تلك الشعارات والعناوين الضالة المضلة.

وها نحن أولاء نسمع أحد أقطاب المستعمرين يقول: (كأس وغانية تفعلان في تحطيم الأمة المحمدية أكثر مما يفعله ألف مدفع، فأغرقوها في حب المادة والشهوات).

وقال أحد كبراء الماسونية: (يجب علينا أن نكسب المرأة، فأى يوم مدت إلينا يدها فزنا بالحرام، وتبدد جيش المنتصرين للدين). وجاء في بروتوكولات حكماء صهيون: (يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان، فتسهل سيطرتنا، إن فرويد منا سيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غريزته الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه^(١)).

(١) هذه الأقوال ذكرها الدكتور عبدالله ناصح علوان، رحمه الله في كتابه القيم تربية الأولاد في الإسلام (٢٨٦/١ و ٢٨٧) ونقلها عنه الأخ الفاضل محمد أحمد اسماعيل المقدم في كتابه عودة الحجاب ص (١١ - ١٧) تحت عنوان (المرأة سلاح ذو حدين فليراجع هناك ففيه كلام قيم ومفيد في هذا المجال).

وأمام هذا الخطر المحدق بآمتنا المسلمة، سارعنا للقيام ببعض الواجب الملقى على عاتقنا نصرة للحق، ومساهمة منا في النهوض بالمرأة المسلمة لتأخذ دورها الطبيعي العظيم في بناء الأمة، فصنفنا هذا الكتاب « نساء حول الرسول »، وهو يحوي في طياته أهدافاً كثيرة.

نذكر منها ما يلي:

١ - الإشادة بعظمة الرسول ﷺ، وقوة مبادئ مدرسته وسرعتها وعظمتها التي نشأت هذه النخبة من الصالحات، والمربيات والمجاهدات اللاتي تولين مهام إعداد الجيل المسلم الذي أدهش القادة الغربيين، مما جعل الوزير الألماني (بسمارك) يقول: أعطوني عشرة آلاف مسلم أفتح لكم بهم العالم!!!!.

٢ - إعطاء دروس وعبر للأزواج من خلال سيرة الرسول ﷺ مع زوجاته وبناته.

٣ - وصف احتمال هؤلاء الصحابيات الفاضلات رضي الله عنهن لنظام تعدد الزوجات وتقبله بكل رضا ورحابة صدر، وحسن معاملة لضرائرهن.

ولا يخفى على منصف عاقل محاسن هذا النظام في ازدياد قوة المسلمين مما كان له كبير الأثر في فتوحاتهم، وحكم للبلاد الواسعة المترامية الأطراف، وهذا ما جعل زوجة أحد قواد هتلر تقول: إن نظام تعدد الزوجات هو من أعظم أسباب فوز الرسول محمد وانتصاراته، ولا شك أنني بعد انتهاء الحرب سأقنع القومهور بفرض نظام هذا التعدد على الشعب الألماني لتعويض الملايين من الرجال الذين وقعوا ضحايا الحروب.

ومن الجهل والتعصب الزميم، وتجاهل الحقيقة، أن يعمد المستشرقون وأذئابهم إلى تصوير الفضائل رذائل، مع أنهم يعيشون

أسوأ أيامهم نتيجة رفض نظام تعدد الزوجات، بينما هم يبيعون
تعدد العاشقات...!!

٤ - تقديم نماذج عن النساء العربيات المسلمات في عفويتهم وبساطتهن،
واتزانهن وصبرهن على شطف العيش مع أزواجهن. تعليماً للنساء
على مر الأجيال والافتداء بهن فيتحررن من بيوت الأزياء،
ويحفظن ثروات الأمة من الضياع في السفاسف فالإسلام ليس
بهرجة وإنما هو قوة يستطيع بناء العالم.

٥ - ومن أهداف هذا الكتاب تذكير النساء المسلمات بإسلامهم
الصحيح، وذلك عن طريق سيرة النبي ﷺ، وسيرة زوجاته أمهات
المؤمنين، وبناته الطاهرات، وكذلك عن طريق سيرة الصحابيات
المجاهدات وهنَّ حول الرسول ﷺ لا يعصينه من معروف،
ويسارعن لطاعته دون تردد، فكنَّ بذلك أحد أسباب انتصارات
الجيوش الإسلامية.

وأخيراً لا بد لنا من التصريح في خاتمة هذه المقدمة بأننا قد عمدنا
الإفادة من خبرة الأدباء والأدبيات القديرين، فاستفدنا من آرائهم وجمال
أساليبهم رغبة منا في تشويق القراء والقارئات إلى الدراسة وانقاذاً لهم
من الملل بالأسلوب الواحد.

وفي الخاتمة نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه
الكريم، راجين منه جل شأنه أن تكون هذه الدراسة دافعاً لإثارة
الهمة والحماسة بين نسائنا وبناتنا، فيسارعن للتمسك بالإسلام ليكون
زوجات وأمهات صالحات، من أجل إعداد جيل مسلم صالح، ومجاهد ينهض
لإنقاذ العالم من جديد من الجاهلية الحديثة التي يعيش فيها، ليعود محلقاً
في المعالي كما كان من قبل يقود قافلة الإسلام إلى ذرا المجد وقمة
الحضارة الحقيقية الصحيحة.

ولله الحمد من قبل ومن بعد وصلى الله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

مصطفى أبو النصر الشلبي

محمود مهدي الإستانبولي

جدة ١٤٠٨/١١/٢٦ هـ

الموافق ١٩٨٨/٧/١٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَيْنَ يَدَيِ الْبَحْثِ

لا بد قبل البدء في دراسة النساء اللواتي تخرجن من مدرسة النبوة وصاغهن الإسلام صياغة خاصة جعلت منهن أعلاماً ومنارات يحتذى بهن - أن نذكر بإيجاز حالة المرأة في القرون الغابرة لنظهر التطورات التاريخية التي مرت بها المرأة خلال حقبة طويلة من الزمن، وكيف حاول الإنسان قاصر التفكير أن يخطط للمرأة طريقاً تسير فيه وتتبع منهاجه، وكيف كانت نتيجة تلك الجهود الضائعة التي أضاعت معها حقوق المرأة وجعلتها حائرة لا تدري ما هو الحل إذ لا تجد أمامها إلا طُرُقاً محاطة بالقيود والظلم والتعسف على مدار الخط التاريخي قبل الإسلام.

وكيف جاء الإسلام وكان الحل الوحيد المنقذ من ذلك التيه والضلal. وكيف كان بجميع نظمته وقوانينه الإلهية، الحل الوحيد الذي رسم للمرأة طريقاً محدداً ومنهجاً صحيحاً. حيث أظهر لها دورها في الحياة، ومدى مسؤولياتها وواجباتها في المجتمع. وأنه أعطاها من الحقوق والمكانة السامية ما لم يستطع كائن من كان من الأمم والشعوب أن يساويه.

ولنبداً الآن باستعراض حالة المرأة عند الشعوب الأخرى لتستشعر المرأة نعمة الإسلام وعظمته بما أسداه إليها من تكريم، وبما رفع عنها من ظلم ومهانة. وقديماً قيل: «وبضدها تُعرف الأشياء».

المرأة عند اليونان

كان اليونان يعتبر من أرقى الأمم القديمة حضارة، وأكثرها تقدماً، فإذا أمعنا النظر في عصرهم الأول وجدنا فيه أن حالة المرأة كان بغاية من الانحطاط في جميع مجالات حياتها، فلم يكن لها في ذلك المجتمع منزلة أو مقام كريم. بل كان يعتقد أن المرأة هي سبب جميع آلام الإنسان ومصائبه، وأنها خلقاً في الدرك الأسفل من المكانة. فكانت على هذا في غاية من المهانة والذل وإهدار الكرامة، لدرجة أنهم كانوا لا يجالسونها على مائدة الطعام، وبالأخص إذا كان عندهم ضيوف غرباء، فشأنها شأن العبيد والخدم.

ثم تبدلت المقاييس عند أهل اليونان، وجرف بهم تيار الشهوات والغرائز البهيمية والأهواء إلى تحرير المرأة في المجال الجنسي فقط، وأعطوها كامل الحرية في أن تصبح عاهراً. وبذلك تبوأ العاهرات والمومسات مكانة عالية. حتى أصبحن القطب الذي تدور حوله رحي الأمة اليونانية فصنعوا لها الأساطير.

ومن ذلك أنهم اتخذوا إله كيوبيد (KUPID) إله الحب، وهو ثمر اتصال (افروديت) التي خادنت ثلاثة آله. مع كونها زوجة إله خاص. ثم خادنت رجلاً من عامة الناس فكان أن ولدت كيوبيد إله الحب من ذلك الخدن البشري. وأصبح عامة أهل اليونان ينظرون إلى عقد الزواج نظرة لا مبالاة ولا احترام لأن المرأة

أصبحت رخيصة وفي متناول يد الجميع، يستطيع أي رجل أن
يخادنها علناً من غير عقد ولا نكاح، وهكذا فالتاريخ يشهد أن
اليونان قد سقط مجدهم بسبب هذا الانحطاط، ولم تقم لهم قائمة بعد
ذلك.

المرأة عند الرومان

وهم الذين بلغوا ذروة المجد والرقى المزعوم أيضاً بعد اليونان، وفي هذه الأمة أيضاً نلاحظ أن القوانين والأنظمة تميل إلى الظلم والحرمان والإضطهاد تجاه المرأة، وكان من شعارهم فيما يتعلق بالمرأة (أن قيدها لا ينزع، ونيرها لا يخلع)، وكان للرجل في مجتمعهم حقوقاً كاملة على أهله. مثل حقوق الملك على رعيته. فهو يتصرف بزوجه على هواه، بل بلغ من سلطته في هذا الشأن أن كان يجوز له حتى قتل زوجته في بعض الأحيان.

ولما تقدم الرومان وساروا خطوات في المدنية والحضارة خفت عندهم هذه الوحشية نحو المرأة. لكن بقيت فيهم نظرة الاحتقار لنسائهم ومعاملتهم كالخدم. مما أدى بالمرأة وهي ترى نفسها في مثل هذا الإنحطاط أن تنجرف في تيار الفاحشة والفجور، مستغلة نظرة الرجل لها بأنها الأداة التي تلي له رغباته وشهواته الحيوانية - ومن جراء هذا كله راجت مهنة الدعارة والفحشاء حتى نالت مسرحية (فلورا) خطوة عظيمة لدى الروم لكونها تحتوي على سباق النساء العاريات، وكذلك انتشرت عادة استحمام الرجال والنساء في مكان واحد برأى من الناس ومشهد، ناهيك عن القصص الماجنة والأدب الخليع بما يعبر عنه اليوم تارة باسم (الأدب المكشوف)، وباسم (الحداثة والتجديد) تارة أخرى.

ثم سهلوا أمر الطلاق لأتفه الأسباب حتى بلغ من كثرته وذيوع أمره أن جعلت النساء يعددن أعمارهن بأعداد أزواجهن من غير تخرج أو حياء .

وأغرب من هذا كله ما ذكره القديس جروم (٣٤٠ - ٤٢٠م) عن امرأة تزوجت في المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها وكانت هي أيضاً الزوجة الحادية والعشرين لبعلمها .

وكان من جراء هذا أن تمزقت دولة الرومان شر ممزق كما تمزقت أمة اليونان من قبلها .

وكل هذا راجعاً لانفاسهم في الشهوات البهيمية بما لا يصلح للحيوان ناهيك عن الإنسان .

المرأة في بلاد الفرس

والفرس وما أدراك ما الفرس!!!
أولئك الذين قبضوا على ناصية الحكم في كثير من البلاد، وفرضوا
سيطرتهم، وسنوا القوانين والأنظمة.
ومع ذلك نلاحظ أن تلك القوانين جائرة وظالمة بحق المرأة، وتفرض
عليها أشد العقوبات لأقل الهفوات في وقت أن الرجل كان له مطلق
الحرية دون حساب. والعقاب لا يكون إلا على المرأة. حتى إذا كررت
عملها الخاطيء لم يكن لها بد من الانتحار.
وكان محجوراً على المرأة في بلاد الفرس أن تتزوج من رجل غير
زرادشتي، وأما الرجل فله الحرية في التصرف على هواه فهو المالك لأنه
رجل.

بل كانت الأنثى تنفى من مكانها إلى مكان بعيد خارج المدينة
في فترة (الطمث) ولا يجوز لأحد مخالطتها إلا الخدم الذين يقدمون
لها الطعام.

المرأة في بلاد الصين

في المجتمع الصيني على العموم كان الناس يعيشون حياة الفوضى والهمجية. وكانوا أقرب للمجتمع الوحشي منهم إلى المجتمع الإنساني. فكانوا يتزاوجون بلا حشمة ولا حياء فيأتي الأولاد يعرفون أمهاتهم ولا يعرفون آباءهم، ولم يكن على المرأة في مجتمعها الصيني إلا أن تتلقى الأوامر وتنفذ بدون اعتراض.

وفي المجتمع الصيني القديم صاحب الحضارة العريقة كان على الأب أن يسير على ما جرى عليه العرف العام من عدم توريث المرأة. وليس للبنات أن تطلب من مال أبيها شيئاً ما دامت ليست ذكراً. وكانوا يشبهون المرأة بالمياه المؤلة التي تغسل السعادة والمال.

المرأة في بلاد الهند

لم تكن حالة المرأة في الهند أحسن حالا من اليونان أو الرومان، رغم تميزها بطابع العلم والتقدم منذ القديم بل كانت المرأة عندهم تتخذ مملوكة وينزل الرجل منها منزلة المالك فهي محتوم عليها أن تظل مملوكة لأبيها بكرًا، ولبعلاها زوجة، ولأولادها أيمًا وكان عموم الشعب الهندي يعتقد أن المرأة هي مادة الإثم، وعنوان الإنحطاط الخلقي والروحي. ولذلك كانوا يجرمونها من جميع الحقوق الملكية ومن الأثر.

بل ليس لها حق الحياة بعد وفاة زوجها، بل يجب أن تموت يوم موته وأن تحرق معه بالنار وهي حية على موقد واحد^(١). وما زالت عادة إحراق الزوجة بالنار إذا مات عنها زوجها حتى سطع نور الإسلام على عموم الهند خاصة في أيام الملك الصالح أونك ذيب رحمه الله - فاستنقذ الإسلام المرأة من ذلك المصير الأسود وأبطل تلك العادة البشعة وعاقب عليها.

(١) للتوسع في هذا الموضوع:

راجع حضارات الهند لغوستاف لوبون من (ص ٦٤٤ إلى صفحة ٦٤٦) وانظر الكتاب القيم (المرأة والقانون) للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله .

المرأة عند اليهود

أما المرأة عند اليهود فقد كانت محتقرة مهينة! وكانت عندهم كسقط المتاع تباع وتشتري في الأسواق مسلوقة الحقوق محرومة من حق الميراث إذا كان مالا. أما إذا كان الأب قد ترك عقاراً فيعطونها عقاراً.

أما إذا ترك مالا فلا شيء لها من النفقة والمهر ولو كانت القناطير المقنطرة.

وإذا آل الميراث إلى البنت لعدم وجود الأخ لم يجز لها أن تتزوج من سبط آخر، ولا يحق لها أن تنقل ميراثها إلى غير سبطها.

وهم يرون أن المرأة للرجل باب من أبواب جهنم من حيث هي مصدر تحركه وحمله على الأثام، ومنها انبجست عيون المصائب على الإنسانية جمعاء، فهم يعتقدون أن المرأة لعنة لأنها أغوت آدم. وكانت عندما يصيبها الحيض لا تجالس ولا تؤاكل، ولا تلمس وعاء حتى لا يتنجس. ولكنها تُنفى في خيمة ويوضع أمامها خبزاً وماءً وتُجعل في هذه الخيمة حتى تطهر، وقد فشت فيهم الفواحش والفجور، وعد من الحرية أن تكون المرأة عامراً، وقد أفرغوا على الفاحشة ألوان القداسة بإدخالها المعابد واتخاذ البغاء صفة التقرب إلى ألهتهم.

ونجد رهبانهم قد مثلوا البغاء في صور تبرر لليهودي ارتكاب الفاحشة. ويقال في كتبهم المحرفة أن الله حرم على اليهودي ارتكاب

لفاحشة مع قرييته أما نساء الأجانب فمباحة له.
وهكذا كانت المرأة مهانة وتعرض للذل، ومن هنا نستطيع أن نشعر
ويشعر معنا أمهاتنا ونساؤنا وبناتنا بنعمة الإسلام العظيمة ورحمته التي
لا حد لها. وتكريه للمرأة المسلمة. فنرفع عقيدتنا ونهتف بها قائلين:
«أيتها المسلمة لا تبدي نعمة الله كفراً».

المرأة عند النصارى

وجاءت النصرانية في أوروبا، وحاولت أن تتدارك ما شاع في المجتمع الغربي من الفوضى الخلقية، والمنكرات التي يندى لها الجبين (بل ترفع عنها أخس الحيوانات) فنظروا نظريات اعتقدوا أنها بلسماً شافياً لذاك الوباء الخطير، ولكن واقع الحال أثبت أن نظريات الآباء النصارى لم تكن سوى ردود أفعال للواقع المؤلم، فجاوزت بذلك حدَّ التطرف من جانب، وكانت حرباً على الفطرة البشرية من جانب آخر.

فمن نظرياتهم: أنهم اعتبروا المرأة ينبوع المعاصي، وأصل السيئة والفجور، وأنها للرجل باب من أبواب جهنم إذ هي مصدر تحريكه وحله على الإثم. يقول ترتوليان أحد أقطاب النصرانية: (أنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان، وأنها دافعة بالمرء إلى الشجرة المنوعة، ناقضة لقانون الله، ومشوهة لصورة الرجل) ويقول كراي سوستام والملقب بالقدّيس: (هي شر لا بد منه ووسوسة جبليّة. وآفة مرغوب فيها، وخطر على الأسرة والبيت، ومحبوبة فتاكة ورزء^(١) مطلي مموه).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد اعتبروا أن العلاقة الجنسية بين المرأة والرجل هي نجس في ذاتها يجب أن تتجنب حتى لو كانت عن طريق صحيح. حتى أصبحت حياة العزوبة (الرهينة) عندهم مقياساً لسمو الأخلاق.

(١) الرزء: المصيبة: يُقال رزأته رزئية: أي أصابته مصيبة انظر المعجم الوسيط (٢٤١/١).

وهكذا نجد أن كل ما وضع في العالم الغربي من القوانين بتأثير
الشرعية النصرانية المحرفة كان له تأثير في انحطاط منزلة المرأة في كل
نواحي الحياة، فهي من الناحية الاقتصادية كالإرث وغير محدودة، ولم يكن
يسمح لها في كسب يدها، ويكفي دليلاً على ذلك ما نقل عن الكاتبة
الفرنسية (أرماندين لوسيل أورور) فإنها لم تتمكن من نشر مؤلفاتها حتى
اتخذت لنفسها اسم رجل هو جورج ساند وذلك ما بين عام ١٨١٤ -
١٨٧٦ م.

فإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على مدى احتقار المرأة وعدم
الاعتراف لها بأن لها عقلاً تفكر به.

والأدهى من ذلك وأمر أن الطلاق والخلع لم يكونا مباحين عندها
في أي حال من الأحوال مهما بلغ البغض والتنافر بين الزوجين. حتى
ولو أصبحت الحياة بينهما جحيماً لا يطاق. وهذا من أخطر العوامل في
تخديم الأسر والخianات الزوجية.

المرأة عند العرب في الجاهلية

لنلقي نظرة خاطفة على حال المرأة عند العرب قبل الإسلام، وكيف كانت تعامل في ذلك العهد؟ وكيف كانت مكانتها الاجتماعية عندهم؟ لقد كانت حالة المرأة عند العرب قبل الإسلام مزرية للغاية حتى وصلت إلى مستوى من الانحطاط والضعف والاهانة قد لا يصل بها إلى مرتبة الإنسانية، فهي معدومة الحقوق حتى من إبداء الرأي في أي شأن من شؤون حياتها، فلا إرث لها ما دامت أنثى لأن العادة عندهم (لا يرث إلا من يحمل السيف ويحمي البيضة)، ولا حق لها في الاعتراض أو المشورة بشأن زواجها. فالأمر إلى وليها، حتى أن الولد يمنع أرملة أبيه من الزواج حتى تعطيه جميع ما أخذت منه. هذا إن لم يضع عليها ثوبه قائلًا: ورثتها كما ورثت مال أبي، وله أن يتزوجها بغير مهر، أو يزوجه لغيره ويتسلم هو مهرها. فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: (كان الرجل إذا مات أبوه أو حموه فهو أحق بامرأته، إن شاء أمسكها أو يهبها حتى تفتدي بصداقها، أو تموت فيذهب هو بما لها)^(١) ولم يكن للزواج عند العرب عدد محدود ولا للطلاق قيمة تذكر. وكان للزواج عندهم أربعة

(١) انظر جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (٣٠٧/٤).

أنواع. كما جاء في صحيح البخاري وغيره عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت: (إن النكاح في الجاهلية كان على أربع أنحاء، فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها).

والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته - إذا طهرت من طمثها - إرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسا أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب، وإلما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحببت باسمه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع الرجل.

والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع عنم جاءها... وهن البغايا وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ودعى ابنه لا يمتنع عن ذلك^(١).

ويكفي هذا النص للدلالة على مدى الهبوط في التصور الإنساني وبهيميته التي لا تحتاج إلى تعليق. إذ يكفي تصور الرجل وهو يرسل

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب من قال لا نكاح الا بولي (١٣٢/٦ و ١٣٣) وأخرجه ابو داود في الطلاق، باب في وجوه النكاح التي كان يتناكح بها أهل الجاهلية برقم ٢٢٧٢/ إلا أن أبا داود قدم النكاح الرابع فجعله أولاً.

امراته إلى فلان لتأتي له منه بولد نجيب كما يرسل بهيمته إلى فحل
نجيب لتأتي له منه بنتاج جيد.

كما يكفي أن نتصور الرجال ما دون العشرة يدخلون على المرأة
مجتمعين كلهم يصيبها ثم تختار هي أحدهم لتلحق به ولدها.

وكان الرجل من العرب في الجاهلية يصاب بالغم وضيق الصدر إذا قيل
له إن زوجته وضعت انثى ، فيكظم غيظه وغمه كأنها بلية عليه ، وقد حكى
القرآن الكريم عن هذه الشناعة الجاهلية الموجودة عندهم .

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَشِيرٌ أَحَدَهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ
يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ
أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١).

هذا ومن أقبح عادات الجاهلية العربية مسألة وأد البنات - التي إن
دلت على شيء فإنما تدل على نهاية القسوة والجفاء والغلظة - التي أشار لها
الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ، بقول : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ
سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (٢).

وقد اختلفت مذاهب القبائل العربية في مسألة الوأد . فمنهم من
كان يئد البنات غيراً على العرض ، وخافة من حقوق العار لأنهم كانوا أهل
سطو وغزو . مما يعرض البنات للسي فتكون بناتهم عند الأعداء ، وهذا
منتهى الذل والعار . وكانت بنو تميم وكندة من أشهر القبائل وئداً لبناتها
خوفاً من العار .

(١) سورة النحل (٥٨ - ٥٩).

(٢) سورة التكاوير (٨ - ٩).

وتذكر بعض الروايات أن أول قبيلة وأدت من العرب هي قبيلة ربيعة وذلك أن قوما من الأعراب أغاروا على قبيلة ربيعة وسبوا بنتا لأمير لهم فاستردها بعد الصلح فخيرها بين الرجوع إلى أبيها أو البقاء عند من هي من الأعداء فاختارت من هي عنده - أي سابيها - وآثرته على أبيها، فغضب الأمير، وسن لقومه قانون الوأد - ففعلوا غيرة منهم وخوفاً من تكرار ذلك^(١)، ومنهم من كان يثد البنات للظروف القاسية من ضنك المعيشة وفقر الحال. فدفعهم الإملاق على الوأد، وهذا ما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَتْ خِطْئًا كَبِيرًا﴾^(٣).

ومن القبائل من كان يثد لا لغيره أو خوف عارٍ - بل مجرد أن كان بها عاهة ما. كسوادٍ، أو كسحرٍ أو غير ذلك. وقد كان الوأد يقع منهم بقسوة نادرة تحزن القلب وتدمع العين من ذلك. وما زال هذا الظلم الفادح قانوناً جارياً ومطبقاً على المرأة التي لا ذنب لها إلا ضعفها وبشاعة عادات قومها إلى أن جاء الإسلام فحرّمها وعاقب عليها.

(١) يراجع تفسير روح المعاني (٦٧/٣٠) وكتاب تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي (٨٧/٥).

(٢) سورة الانعام، آية (١٥١).

(٣) سورة الإسراء، آية ٣١.

وأخيراً ندرك من هذا العرض الموجز لحالة المرأة في القرون الغابرة أنها كانت على جانب كبير من الأضطهاد والذل والمهانة عند جميع الشعوب، وأنها كانت عند العرب في الجاهلية سلعة تباع وتشترى وليس لها أي حق في الإعتراض على حياة الذل هذه.

فلننتقل الآن إلى نور الإسلام لننظر كيف نعمت المرأة في ظلالة بدرجة عالية من الرعاية والإحاطة، حيث أعلن إنسانيتها الكاملة، وأهليتها الحقوقية التامة، وصانها عن عبث الشهوات وفتنة الاستمتاع بها استمتاعاً جنسياً حيوانياً، وجعلها عنصراً فعالاً في نهوض المجتمعات وتماسكها وسلامتها. مما كان له أكبر الأثر في تكوين رجاله - رهبان الليل فرسان النهار - فيما بعد:

أَهْلَ الْبَيْتِ الْمُؤْمِنِينَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

خدمتِ محبت بنی خویلد
سیدہ فریسا الطاهرہ

خديجة بنت خويلد سَيِّدَةُ قُرَيْشِ الطَّاهِرَةِ

سيدة نساء العالمين في زمانها ، ابنة خويلد ، بن أسد ، بن عبد العزى ، بن قصي ، بن كلاب ، القرشية الأسدية الملقبة بـ (الطاهرة) ، وسيدة قريش ولدت في بيت مجدٍ وسوددٍ قبل عام الفيل بخمسة عشر عاماً تقريباً ، ونشأت في بيت من البيوتات الشريفة فغدت امرأة عاقلة جليلة ، اشتهرت بالحزم والعقل ، والأدب الجم ، لذلك كانت محط أنظار كبار الرجال من قومها .

تزوجت من أبي هالة بن زرارة التميمي فانجبت منه هالة وهنداً ، ولما مات أبو هالة تزوجت من عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي فلبثت معه فترة من الزمن ثم افترقا .

ثم تقدم لها بعد ذلك كثير من أشراف قريش لكنها آثرت الانصراف لتربية أولادها ، وإدارة شئون تجارتها حيث كانت غنية ذات مال ، وكانت تستأجر الرجال ليتاجروا لها ، وتدفع لهم المال مضاربة ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ قبل بعثته ما اتصف به من الصدق والأمانة والخلق ، أرسلت إليه ليخرج بما لها إلى الشام مع غلام لها يقال له ميسرة على أن تعطيه أكثر مما تعطي غيره .

ووافق الصادق الأمين وسافر مع غلامها، ووفقه الله في هذه التجارة فكان الربح وفيراً، فُسِّرت خديجة بهذا الخير الكثير الذي أحرزته على يد محمد ﷺ، ولكن إعجابها بشخصه كان أعظم وأعمق.

وبدأت الخواطر تتسابق إلى ذهنها ممزوجة بالعواطف الجياشة التي لم تعرفها من قبل، فهذا رجل ليس كبقية الرجال. و.. و...

ولكن تُرى هل يقبل الشاب الأمين الصادق بالزواج منها وقد بلغت الأربعين من عمرها؟.

وكيف تواجه قومها وقد ردت عن بابها الخطاب من سادة قريش؟ وفي غمرة الحيرة والاضطراب تدخل عليها صديقتها نفيسة بنت منبه، وتجلس معها تبادلها أطراف الحديث حتى استطاعت بذكائها أن تكشف السر الكامن المرتسم على محياها وفي نبرات حديثها.

وهذأت نفيسة من روع خديجة وطبأنت خاطرها، وذكرت أنها ذات الحسب والنسب والمال والجمال، واستدلت على صدق قولها بكثرة الطالبين لها من أشراف الرجال.

وما إن خرجت نفيسة من عند صديقتها خديجة حتى انطلقت إلى الأمين وابتدرته متسائلة بذكاء واضح:

ما يمنعك أن تتزوج يا محمد؟

فقال لها: ما في يدي ما أتزوج به.. فابتسمت قائلة:

فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة فهل تجيب؟ فردّ متسائلاً: ومن؟

قالت على الفور: خديجة بنت خويلد.

فقال: إن وافقت فقدم قبلت.

وانطلقت نفيسة لتزف البشرى إلى خديجة، وأخبر الأمين أعمامه برغبته في الزواج من السيدة خديجة، فذهب أبو طالب وحزة وغيرها إلى عم خديجة عمرو بن أسد، وخطبوا إليه ابنة أخيه، وساقوا إليه الصداق.

ولما تم العقد نحررت الذبائح ووزعت على الفقراء، وفتحت دار خديجة للأهل والأقارب فإذا بينهم حليلة السعدية جاءت لتشهد عرس ولدها الذي أرضعته، وعادت بعد ذلك إلى قومها ومعها أربعون رأساً من الغنم هدية من العروس الكريمة لمن أرضعت محمداً الزوج الحبيب.

وأصبحت الطاهرة سيدة قريش زوجاً لحمد الأمين وضربت أعظم الأمثال وأروعها على حبها لزوجها وإيثارها لما يحبه. فعندما رأت أنه يحب مولاه زيد بن حارثة وهبته له. ولما آنست منه الرغبة في ضم أحد أبناء عمه أبي طالب إليه رحبت بذلك وأفسحت لعملي رضي الله عنه المجال الأوفر ليكسب من أخلاق زوجها محمد ﷺ.

ومنَّ الله على ذلك البيت السعيد بالنعمة بعد النعمة. فرزقها البنين والبنات: القاسم، وعبدالله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم وفاطمة^(١).

وحبَّ الله سبحانه وتعالى إلى الأمين الصادق الخلوة فلم يكن شيء أحبَّ إليه من أن يخلو وحده، فأخذ يتعبد في غار حراء شهراً كاملاً من كل عام، يقيم هناك الليالي ذوات العدد، على الزاد القليل بعيداً عن لغو أهل مكة ولهوهم وما كانوا عليه من عبادة الأوثان. و.. و..

(١) انظر السيرة لابن هشام، (٢٠٢/١) وما بعدها.

وما كانت السيدة الطاهرة (خديجة) لتضيق ذرعاً بهذه الخلوات التي تبعده عنها أحياناً، وما كانت لتعكر صفو تأملاته بفضول الأسئلة والقيـل والقال، بل حاولت ما وسعها الجهد أن تحوطه بالرعاية والهدوء ما أقام في البيت ، فإذا انطلق إلى الغار ظلت عيناها عليه من بعيد، بل وترسل وراءه من يحرسه ويرعاه^(١) دون أن يقتحم عليه خلوته.

ومكث رسول الله ﷺ على ذلك الحال ما شاء الله له أن يمكث، ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بجراء في شهر رمضان^(٢) وكان معه من أمر الوحي ما كان، ثم انطلق يلتمس بيته في غبش الفجر خائفاً شاحباً مرتعد الأوصال وهو يقول:

«زملوني زملوني. دثروني دثروني».

وبعد أن استوضحت منه الأمر. قال لها: يا خديجة لقد خشيت على نفسي. وهتفت الزوجة الحبيبة العاقلة في ثقة و يقين:

«الله يرعانا يا أبا القاسم، أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، والله لا يخزيك الله أبداً.. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق^(٣)».

واطمأن فؤاد النبي أمام هذا التثبيت، وعادوته سكينته أمام تصديق زوجته وإيمانها بما جاء به.

(١) السيرة (٢٤٩/١) وما بعدها.

(٢) أنظر السيرة (٢٥٠/١).

(٣) أنظر السيرة (٢٥٣/١) وتاريخ الطبري (٢٠٥/٢) وما بعدها والإصابة (٢٠٠/٨).

ولم تكتف المرأة العاقلة الحكيمة بذلك، بل ذهبت من فورها إلى ابن عمها (ورقة بن نوفل) وحدثته بما كان من أمر محمد ﷺ فما كان منه إلا أن صاح قائلاً:

(قدوس.. قدوس، والذي نفس ورقة بيده، لئن كُنْتُ صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى وانه لنبي هذه الأمة، فقول لي فليثبت)^(١).

وأسرعت الزوجة إلى الحبيب لتزف له البشرى، ثم لتعود بصحبته لسمع بنفسه من ابن عمها ورقة الذي ما كاد يلححه قادماً نحوه حتى صاح: (والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولتكذبين ولتؤذين، ولتخرجن ولتقاتلن، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرأ يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه.

فقال محمد ﷺ: «أو مخرجي هم؟»

أجاب ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، ليتني أكون فيها جذعاً.. ليتني أكون حياً، ثم لم يلبث ورقة أن توفي^(٢).

وطابت نفسه صلى الله عليه وسلم بما سمع. وعلم من الوهلة الأولى أن للدعوة أعباء وتكاليف، وأن هذه هي سنة الله في أنبيائه والداعين إليه. فليلقى في سبيل دعوته الخالصة لرب العالمين كل ما عند المشركين من أذى واضطهاد.

(١) السيرة لابن هشام (٢٥٤/١) وتاريخ الطبري (٢٠٦/٢) وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها. فأخرجه البخاري في أول كتاب الوحي (٣/١) وأخرجه مسلم في الإيمان، باب بدء الوحي (١٣٩/١).

(٢) نفس المصدر السابق.

وكانت خديجة أول من آمن بالله وبرسوله ودخلت في الإسلام^(١) ووقفت الزوجة المحبة المؤمنة إلى جانب النبي ﷺ الزوج الحبيب تنصره وتشد أزره، وتعينه على احتمال أقسى ضروب الأذى والإضطهاد، فخفف الله بذلك عن نبيه، فإنه لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردٍ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته، وتخفف عليه، وتصدقه، وتهون أمر الناس عليه. وأخذت آيات القرآن تترى وتتتابع:

﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيرُ * فَرَأَنَدِرُ * وَرَبِّكَ فَكَبِرُ * وَثِيَابَكَ فَطَهَرُ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرُ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرُ﴾^(٢).

ومن ذلك الحين بدأ الرسول الكريم حياة جديدة حافلة بالبركات والمشقات، وأخبر زوجه المؤمنة بأن عهد النوم والراحة قد انتهى.

وأخذت خديجة رضي الله عنها تدعو إلى الإسلام بجانب زوجها عليه الصلاة والسلام بالقول والعمل، وكان أول تلك الثمار مولاهما زيد، وبناتها الأربع رضوان الله عليهن أجمعين.

وبدأت الحن القاسية على المسلمين بمختلف الأشكال والصور، ووقفت خديجة كالجبل الأشم ثباتاً وإصراراً وهي تتمثل قول الله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(٣).

واختار الله ابناها القاسم وعبد الله وهما في سن الطفولة فصبرت

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢٥٧/١).

(٢) سورة المدثر، الآيات (١ - ٧).

(٣) سورة العنكبوت آية (١ - ٢).

واحتسبت، ورأت بعينها اول شهيدة في الإسلام (سمية) وهي تعاني
سكرات الموت على أيدي الطغاة حتى أسلمت الروح لخالقها عزيزة
كريمة.

وودعت ابنتها وفلذة كبدها (رقية) زوجة عثمان بن عفان رضي الله
عنه وهي تهاجر إلى الحبشة فراراً بدينها من أذى المشركين.

ورأت وعاصرت كل الفترات العصيبة المملوءة بالأهوال والكفاح، ولم
يعرف اليأس إلى قلب المجاهدة سيلاً. فهي تتمثل في كل لحظة قول الله

تبارك وتعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى
كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١).

وشاهدت قبل ذلك كله مواقف زوجها الصادق الأمين وهو يدعو إلى
الله متعرضاً لكل أنواع البلاء صابراً محتسباً، يزداد مع المحن صبراً
وصلابة، ويرفض كل العروض المغرية الرخيصة وهو يساوم على عقيدته،
ويقسم ذلك القسم في ذلك الموقف الذي لم تعرف له البشرية مثيلاً في
الإصرار على الحق، وعدم التنازل ولو قيد أنملة.

«والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن
أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»^(٢).

وهكذا كانت السيدة المجاهدة خديجة تستمد من زوجها
رسول الله ﷺ أعظم السلوى وأروع آيات الثبوت على الإيمان، ولذلك

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٦.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣٨٥/١).

نجدها عندما اعلنت قريش مقاطعتها للمسلمين - لتحاصرهم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وسجلت مقاطعتها لهم في صحيفة علقت في جوف الكعبة^(١) لم تتردد في الوقوف مع المسلمين في شعب أبي طالب متخلية عن دارها الحبيبة لتقضي هنالك في الشعب ثلاث سنين صابرة مع الرسول، ومن معه من صحبه وقومه على عنت الحصار المنهك، وجبروت الوثنية العاتية. إلى أن تهاوى الحصار أمام الإيمان الصادق والعزيمة التي لا تعرف الكلل، وقد بذلت السيدة خديجة في هذه المحنة كل ما بقي لديها وهي في الخامسة والستين من عمرها.

وبعد انهيار الحصار بستة أشهر مات أبو طالب، ثم توفيت المجاهدة المحتسبة رضي الله عنها وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين^(٢).

وتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب بهلك خديجة وكانت له وزير صدق على الإسلام^(٣).

وهكذا ذهبت النفس المطمئنة إلى ربها عند انتهاء الأجل المحتوم، وبعد أن ضربت أروع النماذج وأصدقها في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، فكانت بحق الزوجة الحكيمة التي تقدر الأمور حق قدرها وتبذل من العطاء ما فيه إرضاء لله ولرسوله، وبذلك استحققت أن تُبلغ من ربها السلام، وأن تُبشّر ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب^(٤).

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣٧٥/١) وتاريخ الطبري (٢٢٨/٢).

(٢) الإصابة (٦٢/٨) وسير أعلام النبلاء (١١٧/٢).

(٣) السيرة (٥٧/٢) وتاريخ الطبري (٢٢٩/٢).

(٤) أنظر نص الحديث في صحيح البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب تزويج النبي خديجة وفضلها (٢٣١/٤) ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها برقم ٢٤٣٢/.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد»^(١).

فارض اللهم عن خديجة بنت خويلد السيدة الطاهرة، والزوجة الوفية الصادقة، والمؤمنة المجاهدة في سبيل دينها بكل ما تملك من عرض الدنيا. وجزاها اللهم عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

(١) البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب تزويج النبي (ص) خديجة وفضلها (٢٣٠/٤) ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة أم المؤمنين برقم /٢٤٣٠.

سُورَةُ بَنَاتِ زَمْعَةٍ
المَاجِرَةُ أُمْلَةُ المَاجِرِ

سودة بنت زمعة

المهاجرة أمّ المؤمنين المهاجرة

هي سودة بنت زمعة ، بن قيس ، بن عبد شمس ، بن عبدود ، القرشية العامرية ، وأما الشموس بنت قيس، بن زيد، بن عمرو، من بني النجار . وكانت سيدة جليلة نبيلة ضخمة ، تزوجت أولاً من السكران بن عمرو، أخي سهيل بن عمرو العامري، وكانت معه ضمن النفر الثمانية من بني عامر الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم، وركبوا أهوال البحر راضين بما هو أقسى من الموت من أجل النجاة بدينهم، وقد اشتد عليهم العذاب والضغط لردهم إلى الضلال والشرك، وما كادت تنتهي محنة غربتها في أرض الحبشة حتى فقدت الزوج المهاجر لتعاني محنة الترميل بعد محنة الاغتراب.

وتأثر النبي ﷺ للمهاجرة المؤمنة المترملة أيما تأثر، ولذلك ما كادت خولة بنت حكيم السلمية تذكرها له حتى مد يده الرحيمة إليها ليقف بجانبها ويهون عليها الذي ذاقت من قسوة الحياة، لا سيما أنها أصبحت في سن الشيخوخة، فهي أحوج ما تكون لمن يرعاها ويقف إلى جانبها . وتروي كتب السيرة أن أحداً من الصحابة لم يكن يجروء على التحدث إلى الرسول ﷺ في موضوع الزواج بعد وفاة أم المؤمنين الطاهرة التي أمنت به حين كفر الناس، والتي واسته بماها إذ حرمه الناس، ورزقه الله منها الولد.

ولكن ما كادت تمر فترة الحزن حتى كانت خولة بنت حكيم تسمى
إلى رسول الله ﷺ متلطفة مترفة تقول:

ألا تتزوج يا رسول الله؟

فأجاب بنبرات مليئة بالحزن والأسى: «ومن بعد خديجة يا
خولة؟؟!!»

فقلت: إن شئت بكراً، وإن شئت ثيباً.

فقال: ومن البكر؟

قالت: ابنة أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبي بكر...

وبعد فترة صمت قال صلى الله عليه وسلم:

ومن الثيب؟

قالت خولة: إنها سودة بنت زمعة التي آمنت بك، واتبعتك على ما
أنت عليه.

وعقد النبي ﷺ على عائشة رضي الله عنها، وتزوج من سودة التي
انفردت به نحواً من ثلاث سنين أو أكثر، حتى دخل بعائشة. واستغرب
الناس في مكة زواج النبي ﷺ من سودة بنت زمعة، وتساءلوا في
ارتياب: أرملة مسنة غير ذات جمال تخلف سيدة نساء قريش ومطمح
أنظار السادة منهم.

ولكن واقع الحال يقول: إن سودة أو سواها لن تخلف خديجة -
ولكنه البر والرحمة وجبران الخاطر من نبي الرحمة عليه أفضل الصلاة
والسلام.

واستطاعت سودة رضي الله عنها أن تقوم على بيت النبوة، وتخدم
بنات النبي ﷺ، وأن تدخل السرور والسعادة إلى قلب النبي صلى الله
عليه وآله وسلم بخفة روحها ومرحها بالرغم من ثقل الجسم.

وبعد ثلاث سنوات جاءت عائشة إلى بيت النبوة، ثم وفدت على البيت أزواج أخريات مثل حفصة وزينب وأم سلمة و.. و..

وأدركت رضي الله عنها أن النبي ﷺ لم يتزوجها إلا إشفاقاً لحالها بعد وفاة زوجها. واتضح لها ذلك جلياً عندما أراد النبي ﷺ أن يسرحها سراحاً جليلاً ليعفيها من وضع شعر أنه يجرح قلبها. فلما أنبأها بعزمه على الطلاق، أحست وكأن كابوساً يطبق على صدرها فهمست في ضراعة «أمسكني يا رسول الله، ووالله ما بي على الأزواج من حرص ولكني أرجو أن يبعثني الله يوم القيامة زوجاً لك»^(١).

وهكذا آثرت رضي الله عنها مرضاة الزوج الكريم، فوهبت ليلتها لعائشة رعاية لقلب رسول الله ﷺ، وكانت قد فركت رضي الله عنها^(٢).

واستجاب رسول الله ﷺ لصاحبة الشعور النبيل وأنزل الله في ذلك قرآناً يتلى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾^(٣)

ومكثت سودة في بيت النبوة راضية مطمئنة شاكرة الله أن ألهمها هذا الحل الموفق لتكون مع خير خلق الله في الدنيا أماً للمؤمنين، وزوجاً له في الجنة.

وتوفيت رضي الله عنها في آخر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٤).

(١) الإصابة (١١٧/٨) والاستيعاب (١٨٦٧/٤) والحديث أخرجه مسلم في الرضاع باب جواز هبتها نوبتها لضررتها برقم ١٤٦٣/.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب المرأة تهب يومها من زوجها لضررتها، (١٥٤/٦) وأخرج مسلم نحوه كما في الحديث السابق.

(٣) سورة النساء، آية ١٢٨.

(٤) الإصابة (١١٧/٨) والاستيعاب (١٨٦٧/٤).

وقد ظلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تذكر لها صنيعها
وتؤثرها بجميل الوفاء فتقول: (ما من امرأة أحب إليّ من أن أكون في
مسلاخها^(١) من سودة بنت زمعة لما كبرت قالت: يا رسول الله قد جعلت
يومي منك لعائشة. إلا أن بها حدة^(٢)).

(١) أكون في مسلاخها: أي تمت أن تكون في مثل هديها وطريقتها. دون الحدة التي ذكرتها
في آخر الحديث.
(٢) أخرجه مسلم في الرضاع، باب جواز هبتها نوبتها لضرتها برقم /١٤٦٣/.

عَاصِمَةُ بَنِي أُبَيِّ بَكْر
المبرأة من فوق سبع سموات

عائشة بنت النبي ﷺ

المرأة من فرق سبع سموات

هي معلّمة الرجال، الصديقة بنت الصديق، خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عامر، القرشية التيمية، المكية، أم المؤمنين، زوجة سيد ولد آدم، وأحب نسائه إليه، وابنة أحب الرجال إليه^(١) المرأة من فوق سبع سماوات.

أثبتت للدنيا منذ أربعة عشر قرناً أن المرأة يمكن أن تكون أعلم من الرجال، وأن تكون سياسية، وأن تكون محاربة.

هذه المرأة لم تتخرج من الجامعة ولم تتلمذ على يد المستشرقين والمستغربين، ولكنها تتلمذت وتخرجت من مدرسة النبوة، مدرسة الإيمان، ومدرسة الفرسان، فقد تولاهما في طفولتها شيخ المسلمين وأفضلهم، أبوها الصديق، ورعاها في شبابها نبي البشرية ومعلمها، وأكرم البشر وأفضلهم زوجها رسول الله ﷺ، فجمعت من العلم والفضل والبيان ما جعلها تخلف في التاريخ دويماً تتناقل أصداءه العصور، فهذه

(١) روى البخاري ومسلم في صحيحهما أن عمرو بن العاص رضي الله عنه سأل النبي ﷺ: أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: عائشة. قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها. أنظر البخاري في فضائل أصحاب النبي، باب قول النبي لو كنت متخذاً خليلاً (١٩/٧).

ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر، برقم ٢٣٨٤/ وهذا الخبر ثابت رغم أنوف الروافض.

آثارها تدرس في كليات الآداب كما تدرس أبلغ النصوص الأدبية، وهذه فتاواها تقرأ في كليات الدين، وهذه أعمالها الكاملة مجال بحث لكل مدرسٍ لتاريخ العرب والمسلمين.

وكان تزويجه صلى الله عليه وسلم بها بأمرٍ من الله عز وجل^(١) إثر وفاة خديجة رضي الله عنها، فتزوج بها وبسودة بنت زمعة رضي الله عنها في وقت واحد، ولكنه دخل بسودة، وتفرد بها ثلاثة أعوام حتى بنى بعائشة في شوال بعد وقعة بدر، وانتقلت العروس الصغيرة إلى بيت النبوة الجديد، والذي كان عبارة عن حجرة من الحجرات التي شيدت حول المسجد من اللبن وسعف النخيل، وقد وضع فيه فراش من آدم حشوه ليف، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير، وعلى فتحة الباب أسدل ستاراً من الشعر.

وفي هذا البيت البسيط المتواضع بدأت عائشة حياة زوجية حافلة، ستظل حديث التاريخ. والزواج هو عمل المرأة الأول، وإن من أكبر غايات المرأة أن تكون زوجة وأن تكون أما. لا يغنيها عن ذلك شيء ولو حازت مالاً يملأ الأرض، ولو نالت مجداً ينطح السحاب، ولو بلغت من العلم والرياسة ما تنقطع دونه الأعناق، ما أغناها ذلك كله عن الزواج، ولا محا عن نفسها الميل إليه، وكيف تسعد من تميل عن فطرتها التي جبلت عليها!!.

(١) روى البخاري ومسلم في صحيحهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «أريتك في المنام ثلاث ليال، جاء بك الملك في خرقه من حرير فيقول: هذه أمراتك فأكشف عن وجهك فإذا أنت فيه. فأقول: إن بك هذا من عند الله يمضيه».

انظر البخاري (١٧٥/٧) في مناقب الأنصار باب تزويج النبي ﷺ عائشة، وفي التعبير باب كشف المرأة في المنام، وباب ثياب الحرير في المنام.
وانظر مسلم في فضائل الصحابة، باب فضل عائشة برقم ٢٤٣٨/.

وفي بيت الزوجية غدت عائشة معلماً لكل امرأة في العالم على مرّ العصور، فكانت خير زوجة تؤنس الزوج، وتدخل السرور إلى قلبه، وتزيل عنه ما يكابده خارج المنزل من مصارعة الحياة والدعوة إلى الله.

وكانت خير زوجة كريمة النفس، كريمة اليد، صبرت مع الرسول ﷺ على الفقر والجوع حتى كانت تمر عليها الأيام الطويلة وما يوقد في بيت رسول الله نار لخبز أو طببخ، وإنما كانا يعيشان على التمر والماء.

ولما أقبلت الدنيا على المسلمين أتيت مرة بمائة ألف درهم وكانت صائئة ففرقتها كلها، وليس في بيتها شيء. فقالت لها مولاتها: أما استطعت أن تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه؟ قالت: لو كنت ذكرتني لفعلت^(١).

فلم يزعجها الفقر، ولم يبطرها الغنى، صانت عزة نفسها فهانت عليها الدنيا فما عادت تبالي إقبالها ولا إدبارها.

وكانت خير زوجة اهتمت بالتلقي عن رسول الله ﷺ فبلغت من العلم والبلاغة ما جعلها تكون معلمة للرجال. ومرجعاً لهم في الحديث والسنة والفقه.

فقال الزهري: لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل^(٢).

وقال هشام بن عروة عن أبيه قال: لقد صحبت عائشة، فما

(١) أنظر الحاكم في المستدرک (١٣/٤) وأبو نعيم في الحلیة (٤٧/٢) وابن سعد في الطبقات (٦٧/٨) ورجاله ثقات.

(٢) أنظر المستدرک للحاکم في معرفة الصحابة (١١/٤) والمهشمي في مجمع الزوائد (٢٤٥/٨) وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

رأيت أحداً قط كان أعلم بآية أنزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب، ولا بكذا، ولا بكذا، ولا بقضاء، ولا طب، منها، فقلت لها يا خالة: الطب من أين علمته، فقالت: كنت أمرض فينعت لي الشيء، ويمرض المريض فينعت له، واسمع الناس ينعت بعضهم لبعض فأحفظه^(١).

وعن الأعمش: عن أبي الضحى، عن مسروق. قال: قلنا له: هل كانت عائشة تحسن الفرائض؟ قال: والله لقد رأيت أصحاب محمد الأكابر يسألونها عن الفرائض^(٢) ومع هذا كله كانت رضي الله عنها تغار، بل من أشد نساء النبي ﷺ غيرة عليه. وهذه من طبيعة المرأة، ولكن غيرها مقبولة مهذبة لم تصل إلى حد التسويغ لها بايذاء الضرائر.

ومن أهم المواقف في حياة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها موقف التهمة الشنيعة التي اتهمت بها (حادثة الإفك)^(٣) وهي أبعد عنها من الأرض إلى السماء، السماء التي نزل فيها الحكم ببراءتها بأيات نقرؤها ونتعبد بها إلى يوم القيامة، وكانت هذه الهنة في أفضل امرأة درساً وعبرة لكل امرأة، بأنه ليس في الدنيا امرأة فوق التهم!

وعندما مرض رسول الله ﷺ بعد عودته من حجة الوداع، وشعر بأنه قد آن الأوان للرحيل بعد أن أدى الأمانة وبلغ الرسالة. كان يقول وهو يطوف على نسائه متسائلاً: أين أنا غداً؟.. أين أنا بعد غدٍ؟ استبطاءً ليوم عائشة، فطابت نفوس بقية أمهات المؤمنين - رضي الله

(١) أنظر حلية الأولياء (٤٩/٢) ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (٣٤٢/٢) وابن سعد في الطبقات (٦٦/٨) والحاكم في المستدرک (١١/٤).

(٣) سيأتي الكلام على محنة الإفك مفصلاً في باب مستقل عند الرد على المستشرقين.

عنهن جميعاً: بأن يمرض رسول الله ﷺ حيث أحب، وقلن جميعاً: يا رسول الله قد وهبنا أيا منا لعائشة^(١).

وانتقل حبيب الله إلى بيت الحبيبة، فسهرت عليه تمرضه، وبودها لو تفديه بنفسها، فذاك نفسي وأبي وأمي يا رسول الله.. وحانت لحظة الرحيل ورأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها.

قالت أم المؤمنين تصف اللحظة الرهيبة: توفي رسول الله ﷺ في بيتي، وفي يومي وليلتي، وبين سحري ونحري، ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك رطب، فنظر إليه حتى ظننت أنه يريدني، فأخذته فمضغته ونفضته وطيبته، ثم دفعته إليه، فاستن به كأحسن ما رأيته مستنّاً قط، ثم ذهب يرفعه إليّ، فسقطت يده، فأخذت أدعو له بدعاء كان يدعو به له جبريل، وكان هو يدعو به إذا مرض. فلم يدع به في مرضه ذاك، فرجع بصره إلى السماء وقال: (الرفيق الأعلى) وفاضت نفسه، فالحمد لله الذي جمع بين ريقه وريقه في آخر يوم من الدنيا^(٢).

ودفن صلى الله عليه وسلم حيث قبض في بيتها، وعاشت بعده تعلم الرجال والنساء، وتشارك في صنع التاريخ الإسلامي إلى أن وافتها المنية ليلة الثلاثاء لسبع عشرة مضمين من رمضان سنة سبع وخمسين وهي في السادسة والستين من عمرها^(٣).

(١) أنظر صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رضي الله عنها برقم /٢٤٤٣/.

(٢) أخرجه أحد في المسند ٤٨/٦، والحاكم في معرفة الصحابة (٧/٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) الاستيعاب (١٨٨٥/٤) وتاريخ الطبري حوادث سنة ٥٨ هـ.

وخلفت من ورائها أجيالاً ترصد دقائق حياتها منذ كانت في
السادسة من عمرها مستلهمة تلك التربية التي صاغتها فجعلت منها نموذجاً
فريداً لم تعرف الدنيا مثلها خلال أربعة عشر قرناً.

حفصة بنت عمر
ممارسة القرآن

حفصة بنت عمر مَآثِرُ الْقُرْآنِ

إنها حفصة بنت عمر بن الخطاب ذلك الصحابي الجليل الذي أعز الله به الإسلام، وكان لها من الشباب والجمال والتقوى نصيب ملحوظ.

تزوجت من الصحابي الجليل خنيس بن حذافة بن قيس السهمي القرشي، صاحب الهجرتين، شهد بدرًا وأحُدًا، ثم مات بعدها في دار الهجرة على إثر إصابته في أحد. وخلف وراءه تلك الأرملة الشابة التقية حفصة، وهي في الثامنة عشرة من عمرها.

لقد ضاق صدر عمر على ترمل ابنته بهذه السن، واغتم لمصاها في زوجها المهاجر المجاهد، وبدأ يشعر بانقباض كلما دخل بيته ورأى ابنته في حزنها، وبدأ له بعد تفكير طويل أن يختار لها زوجًا تأنس إليه فتسترد بعض الذي أضاعت من السكن إلى الزوج خلال ستة أشهر أو تزيد.

ووقع اختياره على أبي بكر رضي الله عنه أحب الناس إلى الرسول ﷺ فإن أبا بكر بسماحته ووداعته حَرَى بأن يحتمل حفصة بما ورثت عن أبيها من شدة الغيرة وصرامة الطبع.

وذهب عمر من فوره إلى أبي بكر يحدثه عن حفصة وما ابتلاها الله به من الترمل. والصديق يصني إليه في عطف ومواساة، ومن ثم عرض عليه أن يتزوجها وفي يقينه أنه لن يتردد في قبول الشابة التقية ابنة الرجل الذي أعز الله به الإسلام، ولكن أبا بكر لم يجبه بشيء.

وانصرف عمر منكسر القلب لا يكاد يصدق، وسارت به قدماء إلى بيت عثمان بن عفان، وكانت زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ قد توفيت على اثر إصابتها بالحصبة.

وتحدث عمر إلى عثمان وعرض عليه الزواج من حفصة فقال له:
- بدا لي ألا أتزوج اليوم.

ازداد عمر همًا وغمًا برفض عثمان بعد رفض أبي بكر. وكبر في نفسه أن يلقاه كل منها هذا اللقاء القاسي، وهو صاحبها ورفيقها الذي لا يجهلان مكانته. فوجد عليها وانكسر، وانطلق إلى النبي ﷺ، وشكا حاله وما كان من أمر أبي بكر وعثمان بن عفان.
فتبسم النبي ﷺ وقال:

«يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة»^(١) وتهلل وجه عمر بهذا الشرف العظيم الذي لم تتناول إليه أمانيه، وزال ما به من الغم، وذهب مسرعاً ليؤلف البشرى لكل من يحب، وكان أبو بكر أول من لقيه. وما إن نظر إليه الصديق حتى أدرك على الفور سر تهلله وفرحته فمد إليه يده مهنئاً ومعتذراً وهو يقول:

«لا تجد عليَّ يا عمر، فإن رسول الله ﷺ كان قد ذكر حفصة، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ ولو تركها لتزوجتها»^(٢).

(١) رواه البخاري في النكاح، باب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير (١٣٠/٦) والنسائي في النكاح باب إنكاح الرجل ابنته الكبيرة (٨٣/٦)

وابن سعد في الطبقات (٨٢/٨) والإصابة (٥١/٨) والاستيعاب ١٨١١/٤.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب عرض الانسان ابنته أو أخته على أهل الخير (١٣٠/٦)

وانظر الطبقات (٨٢/٨) والإصابة (٥١/٨) والاستيعاب (١٨١١/٤).

وباركت المدينة بأسرها زواج النبي ﷺ من حفصة ابنة عمر في شعبان من السنة الثالثة للهجرة.

وباركت كذلك زواج عثمان بن عفان من أم كلثوم بنت محمد ﷺ في جمادي الآخرة من السنة الثالثة للهجرة أيضاً.

وهكذا انضمت حفصة إلى زوجات الرسول وأمهات المؤمنين الطواهر، وكان منهن في بيت النبوة آنذاك (سودة) و(عائشة). وحين تابعت الضرائر وقفت حفصة إلى جانب عائشة لأنها ترى فيها أقرب الضرائر إليها وأجدرهن بأن تقف معها متمثلة دوماً قول أبيها لها (أين أنت من عائشة، وأين أبوك من أبيها؟).

وحفصة وعائشة هما اللتان تظاهرتا على النبي ﷺ فأنزل الله فيهما: ﴿إِنْ نُبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ...﴾ (١)(٢).

وورد أن النبي ﷺ طلق حفصة تطليقة، وقت حادثة التظاهر، ثم راجعها بأمر جبريل عليه السلام له بذلك، وقال: (إنها صوامة قوامة وهي زوجتك في الجنة) (٣).

(١) سورة التحريم، آية ٤.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير، باب تبتغي مرضاة أزواجك (٦٩/٦)

وأخرجه مسلم في الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته برقم /١٤٧٤/.

(٣) هذا الحديث صحيح، أخرجه أبو داود في النكاح، باب في المراجعة برقم /٢٢٨٣/. وابن ماجه برقم /٢٠١٦/ وكلاهما من حديث عمر أن رسول الله طلق حفصة ثم راجعها. وأخرجه النسائي في الطلاق، باب الرجعة من حديث ابن عمر بإسناد صحيح (٢١٢/٦).

وأدركت حفصة فداحة ما سببت للزوج الكريم من كرب وألم عندما أذاعت سره، ثم عادت إلى الأمن والسكينة والاطمئنان بعد أن عفى رسول الله ﷺ عنها، وعاشت مع النبي صلى الله عليه وسلم كأحسن ما تكون المرأة مع زوجها.

وعندما انتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى وخلفه أبو بكر الصديق، كانت حفصة هي التي اختيرت من بين أمهات المؤمنين جميعاً - وفيهن عائشة - لتحفظ أول مصحف خطي للقرآن الكريم.

وعاشت حفصة رضي الله عنها كل حياتها عابدة قانتة، صوامة قوامة، منفردة بشرف الائتمان على دستور الأمة وكتابها الأول ومعجزته الخالدة، ومصدر شريعته الراشدة وعقيدته الواحدة.

وعندما أحس أبوها أمير المؤمنين بدنو أجله بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة كانت حفصة هي الوصية على تركته.

وتوفيت رضي الله عنها في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بعد أن أوصت أخاها عبدالله بما أوصاها عليه أبوها. فرضي الله عن حافظة القرآن الكريم التي قال فيها جبريل عليه السلام بأنها صوامة قوامة وأنها زوجة النبي ﷺ في الجنة.

أُصْحَمُ سَلَامُ

أَوَّلُ طَعْمِنَةِ دَخَلَتِ الْمَدِينَةَ مَهَاجِرَةً

أسم سلمة

أَوَّلُ ظَمِيْنَةٍ دَخَلَتِ الْمَدِيْنَةَ مَحَاجِرَةً

هند بنت أبي أمية، بن المغيرة، المخزومية القرشية، أبوها أحد أبناء قريش المعدودين، ومن أجوادهم المشهورين. كان يلقب (بزاد الركب) لأنه كان إذا سافر لا يترك أحداً يرافقه ومعه زاد، بل يكفي صاحبه من الزاد. وأمها عاتكة بنت عامر، بن ربيعة الكنانية، من بني فراس الأجداد.

وكانت إلى جانب هذا النسب العريق ذات جمال وإباء وفطنة، تزوجها أبو سلمة، عبدالله بن عبد الأسد المخزومي، الصحابي الجليل صاحب الهجرتين. فكانت له خير زوجة وفاءً وطاعة وقياماً بحقوق الزوج حق القيام.

فهيأت له الجو المنزلي الذي يستريح إليه، ووقفت إلى جانبه، وتحملت معه صنوف العذاب وأقساها، ثم هاجرت معه إلى الحبشة فراراً بدينها، تاركة خلفها المال، والأهل، والوطن، رافضة الاستسلام للظلم والطغيان.

وولدت في المهجر ابنها سلمة.

وبعد تمزيق صحيفة المقاطعة، وإسلام حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، عاد الزوجان إلى مكة مع من عاد.

ولما أذن النبي ﷺ لأصحابه في الهجرة إلى المدينة بعد بيعة العقبة

الكبرى أجمع أبو سلمة أمره على الهجرة بأهله، فكانت قصة خروجها مأساة بالغة نترك فيها الحديث لأُم سلمة رضي الله عنها تحدثنا بلسانها عن مراحل تلك الهجرة.

قالت أم سلمة:

«لما أزمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحّل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بعيره، فلما رآه رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرايت صاحبتنا هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟»

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد وأهواوا إلى ولدنا سلمة وقالوا لرهط زوجي:

- لا والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا. فتجاذبوا ابني سلمة حتى خلعوا يده، وانطلق به رهط أبيه، وحبسني بنو المغيرة عندهم.

ومضى زوجي أبو سلمة حتى لحق بالمدينة فراراً بدينه ونفسه.. وفي لحظات وجدت نفسي ممزقة الشمل وحيدة فريدة حيث فرّق بيني وبين زوجي وبين ابني في ساعة.

ومنذ ذلك اليوم جعلت أخرج كل غداة إلى الأبطح فأجلس في المكان الذي شهد مأساتي، وأستعيد صورة اللحظات التي حيل فيها بيني وبين زوجي وبين ولدي، وأظل أبكي حتى يخيم عليّ الليل.

وبقيت على ذلك سنة أو قريباً منها حتى مرّ بي رجل من بني عمي فرّق لحالي ورحمني فقال بني قومي: ألا تخرجون هذه المسكينة فرقم بينها وبين زوجها وبين ابنها. وما زال بهم يستلين قلوبهم حتى قالوا لي الحقّي بزواجك إن شئت.

وردّ على بنو عبد الأسد عند ذلك ابني . فرحلت بعيري، ووضعت ابني في حجرى، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معى أحد من خلق الله .
حتى إذا كنت (بالتنعم)^(١) لقيت عثمان بن طلحة^(٢) فقال: إلى أين يا بنت زاد الركب؟؟

فقلت: أريد زوجى بالمدينة .

قال: أو ما معك أحد؟
فقلت: لا والله . إلا الله ثم ابني هذا .

فقال: والله ما لك من مترك .

وأخذ بخطام البعير فانطلق معى يقودنى، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب أراه كان أكرم منه ولا أشرف . كان إذا بلغ منزلاً من المنازل أناخ بي ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فأعده ورحله، ثم أستأخر عني وقال: اركبي .

فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه وفاده .. فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بي المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمر بن عوف بقاء، وكان بها منزل أبي سلمة في مهاجرة قال:
إن زوجك في هذه القرية، فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

وهكذا كانت أم سلمة أول ظعينة دخلت المدينة، كما كانت من المهاجرين الأوائل إلى الحبشة .

(١) التنعم: مكان على ثلاثة أميال من مكة .

(٢) عثمان بن طلحة: كان حاجب بيت الله في الجاهلية، وكان يوم رافق أم سلمة مشركاً . أسلم في هدنة الحديبية وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد، فلما فتحت مكة . دفع النبي ﷺ مفاتيح الكعبة إلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة . استشهد عثمان بن طلحة بأجنادين في خلافة عمر رضي الله عنها .

وفي المدينة عكفت على تربية صغارها - وهذه هي مهمة المرأة الأولى - وهيات الجو المناسب ليتفرغ زوجها للجهاد ورفع راية الإسلام . فشهد بداراً وأحداً ، وأبلى فيهما بلاءً حسناً ، ورُمي بسهم في عضده ، ومكث يداويه حتى ظن أنه التأم .

وبعد شهرين من أحد بلغ النبي ﷺ أن بني أسد يدعون إلى مهاجمته في دار هجرته . فدعا إليه أبا سلمة وعقد له لواء سرية إلى (قطن) وهو جبل بناحية فيد - ومعه مائة وخمسون رجلاً ، منهم أبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص..

ونفذ أبو سلمة ما أمر به النبي القائد صلوات الله عليه من أخذ العدو على غرة . فأحاط بهم في عماية الصبح على غير أهبة منهم ، وتم لهم نصراً طيباً عادوا على إثره إلى المدينة سالمين غانمين وقد أعادوا بعض ما ضيع من هبة المسلمين يوم أحد^(١) .

وفي هذه السرية انتكأ الجرح الذي أصاب أبا سلمة يوم أحد فألزمه الفراش، وفيما هو يعالج من جرحه قال لزوجته:

يا أم سلمة، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

« لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول: اللهم اجرني في مصيبتى واخلف لي خيراً منها إلا فعل به » .
وفي ذات صباح جاء رسول الله ﷺ ليعوده ، ولم يكد ينتهي من

(١) أنظر طبقات ابن سعد: (٣٥/٢) وعيون الأثر (٣٨/٢).

زيارته حتى فارق أبو سلمة الحياة. فأغمض النبي ﷺ بيديه الشريقتين عيني أبي سلمة، ورفع طرفه إلى السماء قائلاً: «اللهم اغفر لابي سلمة، وارفع درجته في المقربين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين».

وتلفت أم سلمة تلك المصيبة بقلب مملوء إيماناً، ونفس مشحونة صبراً. مستسلمة لقضاء الله وقدره. وتذكرت ما رواه لها أبو سلمة عن رسول الله فقالت: اللهم أجرني في مصيبيتي...

ولم تطب نفسها أن تقول: واخلف لي خيراً منها. لأنها تساءلت: ومن عساه أن يكون خيراً من أبي سلمة؟! لكنها ما لبثت أن أتمت الدعاء تعبداً لله..

ولما انقضت عدتها تقدم لها عدد من كبار الصحابة خاطبين لها. وتلك عادة المسلمين في إكرام رجالهم أن يحفظوهم في زوجاتهم إن هم قضوا في ساحة الجهاد.. لكن أم سلمة ردتهم جميعاً.

وكان النبي ﷺ يفكر في أمر هذه المرأة الكريمة، والمؤمنة الصادقة، والوفية الصابرة، ورأى أنه ليس من الحكمة أن تُترك وحيدة هكذا وليس من معيل.

وبينما كانت تدبغ إهاباً لها في أحد الأيام استأذن عليها رسول الله فأذنت له، ووضعت له وسادة من آدم حشوها ليف، فقعد عليها وخطبها إلى نفسها. ولما فرغ من مقالته، وأم سلمة لا تكاد تصدق ما تسمع، وتذكرت حديث أبي سلمة (واخلف لي خيراً منها). ورددت في نفسها: هذا هو الخير.. ولكن صدق تلك المرأة وإيمانها جعلها تتردد كثيراً، وأن تكشف لرسول الله ﷺ عيوبها فقالت: مرحباً بك يا رسول الله، ومالي أن لا تكون بك الرغبة، ولكني امرأة بي غيرة شديدة، فأخاف أن ترى

مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال.

فقال عليه الصلاة والسلام:

أما قولك: انك امرأة مسنة فأنا أسن منك! ولا يعاب على المرء أن يقال: تزوج أسنَّ منه.

وأما قولك: اني أم أيتام، فإن كلَّهم على الله ورسوله.

وأما قولك: إني شديدة الغيرة، فإني أدعو الله أن يذهب عنك ذلك. واستسلمت لرسول الله وقالت: لقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه: رسول الله ﷺ:

وأصبحت أم سلمة أمّاً للمؤمنين، وعاشت في بيت النبوة مقدرة وجودها حريصة على مكائنتها، مراعية جانب المودة والألفة مع أمهات المؤمنين.

وكانت أم سلمة رضي الله عنها من النساء العاقلات الناضجات اللواتي يدركن الأمور إدراكاً صحيحاً، ويعطين فيها حكماً صائباً، ودليل ذلك ما حدث يوم الحديبية حين أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن ينحروا بعد أن فرغ من توقيع عقد الصلح مع وفد قريش. ولكن الصحابة لم يستجيبوا لأن في نفوسهم البشرية الشيء الكثير عن الصلح ويرونه هضماً لحقوق المسلمين، وكرر النبي طلبه بالنحر ثلاث مرات دون أن يجيبه أحد. فدخل على أم سلمة وهو حزين متألم، فذكر لها ما كان من أمر المسلمين وأعراضهم عن أمره فقالت رضي الله عنها:

يا رسول الله أتحب ذلك، أخرج فلا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنتك وتدعو حالقك فيحلقك.

فاستصوب النبي ﷺ رأي أم سلمة التي أشارت به، فقام

وخرج، ولم يكلم أحداً حتى نحر بَدَنته ودعا حالقه فحلقه.
فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يخلق بعضاً
حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً^(١).

وبعد أن لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى أقامت أم المؤمنين
أم سلمة ترقب مجريات الأمور، وتطور الأحداث، فتدلي برأيها في كل
شأن فيه حفاظاً على استقامة الناس، وعدم انحرافهم، وخاصة أصحاب
السلطان من الخلفاء والولاة، وترفع عن المسلمين غائلة الظلم، وتصدع
بكلمة الحق لا تخشى في الله لومة لائم. ولما كان شهر ذي العقدة من
العام التاسع والخمسين للهجرة أسلمت الروح إلى خالقها، وقد
تجاوزت الرابعة والثمانين، بعد أن ضربت نموذجاً للمرأة المسلمة في
الوفاء، والجهد، والصبر.

(١) رواه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب
(١٨٢/٣) ورواه أبو داود في الجهاد، باب في صلح العدو برقم ٢٧٦٥/.

أَسْمَ حَبِيبَةٍ
مَرْكَلَةُ نَبِيٍّ (أَبِي سَفِيَّانٍ)
مَرْمَنَةٌ وَفَتْ لِدِينِهَا

أُم حَبِيبَةٍ
رَمْلَةُ بِنْتِ أَبِي سَفْيَانَ
مَرْثَةٌ وَفَتْ لِيْنِهَا

ما أحوج مسلمات اليوم أن يقرأن سيرة هذه السيدة الجليلة ليدركن
البؤن الشاسع بينهن وبين الرعيل الأول الذي تخرَّج من مدرسة النبوة،
وليد ركن كيف يصنع الإيمان الأعاجيب في نفوس الذين استجابوا
لله وللرسول حتى كانوا مصابيح تشع هدى ونورا، ومن هذه المصابيح
المضيئة:

كانت أم المؤمنين (رملة بنت أبي سفيان) زعيم قريش، وزعيم
المشركين إلى ما قبل الفتح. ولكنها آمنت على الرغم من كفران أبيها
حينئذ، ولم يستطع أن يثنيها عن عزمها لتبقى كافرة. بل أظهرت قوة
شخصيتها وقوة إرادتها، وتحملت في سبيل عقيدتها المتاعب والأهوال.
تزوجت رضي الله عنها من عبيد الله بن جحش الذي أسلم مثلها،
وحينما اشتد طغيان الكفر على المسلمين هاجرت رملة إلى الحبشة برفقة
زوجها، وهناك ولدت له بنتاً اسمتها (حبيبة) وبها كُنيت.
وما زالت أم حبيبة صابرة تتحمل من أجل دينها - متاعب الغربة،
والوحشة، والبعد عن الأهل والوطن إلى أن حدث ما لم يكن في
الحساب.

تقول هي بنفسها:

رأيت في المنام زوجي عبيد الله بن حنش بأسوأ صورة وأشوها
ففزعت واستعدت بالله من ذلك، وما إن أصبحت فإذا به قد تنصر.
فأخبرته بالمانام فلم يحفل به.

ولقد حاول هذا المرتد التعيس بكل ما استطاع أن يحمل زوجته
على ترك دينها، فأبت أم حبيبة كل الإباء، ولاذت بإيمانها، ودعته إلى
الثبات على الإسلام، فرفض وأصر على الرفض، وأكب على الخمر،
واستمر على ذلك أياماً حتى مات.

وقضت رملة أياماً في ديار الهجرة بين عذابين: عذاب البُعد عن
الأهل والوطن، وعذاب الترمل وفقد المعيل، ولكنها بما أُوتيت من إيمان
صادق استطاعت أن تصمد في وجه الهنة القاسية فتمثلت قول الله
تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ
قَدَرًا^(١).

وشاء الله أن يثبت عزيمتها، فرأت في نومها من يناديها قائلاً لها: يا
أم المؤمنين، فهزتها الرؤيا. وأولتها أن رسول الله سيتزوجها^(٢).

وما كادت تنتهي عدتها حتى كانت عندها جارية من جواري
النجاشي تعرض عليها زواجها من سيد الخلق أجمعين عليه أفضل
الصلاة والسلام، وما أن استيقنت من البشرية حتى صاحت: بشرك الله
خيراً، ثم نزعته حليها وقدمتها للجارية حلاوة البشرية^(٣) ثم أرسلت إلى

(١) سورة الطلاق، الآيات (٢ و ٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٩٧/٨)، والمستدرک (٢٠/٤ و ٢٢).

(٣) الإصابة (٤٨/٤) والسمط الثمين ٦٧.

خالد بن سعيد بن العاص فوكلته في زواجها بناء على طلب النجاشي الذي وكله رسول الله ﷺ بتزويجه أم حبيبة بعدما سمع بأمرها، وما لاقته في سبيل دينها، وأنه ليس لها من ناصر ولا معين.

وفي المساء جمع النجاشي من في الحبشة من المسلمين، فجاءوا يتقدمهم جعفر ابن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ. فخطب النجاشي قائلاً: «الحمد لله الملك القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله الذي بشر به عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم».

أما بعد: فإن رسول الله كتب إلي أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله، وقد أصدقته أربعمئة دينار.

ثم سكب الدنانير أمام القوم:

وتكلم خالد بن سعيد، فقال:

«الحمد لله، أحمده، واستعينه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون».

أما بعد: فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسوله عليه السلام.

ودفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها.

وأولم لهم النجاشي وليمة الزواج قائلاً: (اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام التزويج)^(١).

(١) الاستيعاب (٤/٤٢٢) والإصابة (٨/٨٤).

ولما كان فتح خيبر وصل وفد المهاجرين من الحبشة. فقال رسول الله ﷺ: بماذا أفرح؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟^(١).

وكانت أم حبيبة مع الوفد القادم، فبنى بها رسول الله ﷺ، وكان ذلك سنة ست أو سبع، وكانت قد بلغت الأربعين من عمرها حين انضمت إلى تلك الكوكبة المشرقة من زوجات الرسول ﷺ لتصبح أماً للمؤمنين. وظلت أم حبيبة تجعل لدينها المكان الأول، وتفضل عقيدتها على كل قرابة، وتعلن أن ولاءها لله ولرسوله لا لأحد سواها. وبما يدل على ذلك موقفها من والدها أبي سفيان عندما دخل عليها وهي زوجة للرسول ﷺ في المدينة ليستعين بها ويوسطها لدى رسول الله ﷺ لتجديد مدة عهد الحديبية بعد أن خان المشركون عهدهم. وأراد أبو سفيان أن يجلس على فراش النبي ﷺ فطوته عنه. فقال لها متعجباً:

- يا بُنية، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ فأجابته برباطة جأش وسكينة غير جزعة من سلطانه وجبروته: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ.

فقال لها:

والله لقد أصابك يا بنية بعدي شرّ.

فقالت بمنتهى العزة والثقة بالنفس:

- بل هداني الله للإسلام، وأنت يا أبت سيد قريش كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام، وأنت تعبد حجراً لا يبصر ولا يسمع!!^(٢) فذهب

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣/٤) وتاريخ الطبري (٩٠/٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٩٩/٨ و ١٠٠) والسيرة (٣٨/٤).

غاضباً خائباً.

إنها حقاً وقفة تستحق كل إكبار وإجلال من أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها، ولو كان النساء مثلها لكان من الأمر ما كان..

وبعد أن لحق رسول الله بالرفيق الأعلى أقامت أم حبيبة في بيتها لا تخرج منه إلا للصلاة ولم تكن تترك المدينة إلا للحج. حتى وافتها المنية وهي في العقد السابع من عمرها بعد أن ضربت أرفع النهاذج وأعلاها في الاعتزاز بالدين والحرص عليه، والارتفاع والسمو عن القيم الجاهلية، وعدم وضع الإعتبارات للنسب إذا تعارضت مع العقيدة فرضي الله عنها وأرضاها.

زَيْنَبُ بْنُ مَحْمَدٍ
أَكْرَمُ أَتْحَاتِ الرُّمَيْنِ وَلِيَا وَسَفِيرَا

زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ أَكْرَمُ أَتْحَانِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيًّا وَسَفِيرًا

أم المؤمنين زينب بنت جحش، بن رباب، بن يعمر، وأُمها أُميمة، بنت المطلب، عمة عمة رسول الله ﷺ. كان اسمها برةً ولما دخل عليها رسول الله ﷺ سماها زينب^(١).

ولما خطبها رسول الله ﷺ لمولاه زيد بن حارثة (جِبُّ رسول الله) كانت زينب وأهلها كارهين لذلك. فقال لها النبي ﷺ: رضيته لك.

ف قالت: يا رسول الله لكني لا أرضاه لنفسي، وأنا أيم قومي وبنت عمتك فلم أكن لأفعل. فنزل قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^(٢).

(١) صحيح مسلم برقم ٢١٤٢ / كتاب الآداب. باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن وتغيير اسم برة إلى زينب وجويرية ونحوها.
(٢) سورة الأحزاب، آية ٣٦.

وتزوجت زينب زيدا طاعة لأمر الله ورسوله، وإلزاما بالمبدأ الإسلامي الذي لا يتفاضل فيه الناس إلا بالتقوى.

ولكن حياة الزوجين لم تصفُ لهما، وكان الجفاء هو طابع ذلك الزواج الذي تم بأمر الله لإبطال عادة التبني وأحكامها الجاهلية.

ولما شعر زيد بصعوبة التعايش مع زينب ذهب إلى رسول الله ﷺ شاكياً ويستأذنه في طلاقها. والرسول ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك واتق الله». وهو يعلم تماماً أن لا بد من الطلاق، وأن الله سيأمره بالتزوج بها بعده إبطالاً لبدعة التبني، وتحريم امرأته مثل الابن الحقيقي. إلا أن رسول الله ﷺ لم يكن يظهر هذا لزيد ولا لغيره، وكان بمقتضى الشريعة يخشى قول الناس ولا سيما المشركين: ان محمدا تزوج امرأة ابنه

فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۝﴾ (١).

ذكر الواقدي وغيره أن هذه الآية نزلت بينما كان رسول الله يتحدث عند عائشة فأخذته غشية، فسرى عنه وهو يبتسم ويقول: من يذهب إلى زينب يبشرها؟. وتلا الآية.. وطار البشير إلى زينب بالبشرى. وقيل أن سلمى خادمة الرسول هي التي حملت البشرى، وقيل

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧.

بل حمله إليها زيد نفسه فتركت ما بيدها وقامت تصلي لربها شاكرة^(١).

وهكذا زوج الله سبحانه زينب رضي الله عنها من نبيه ﷺ بنص كتابه بلا ولي ولا شاهد، حتى كانت تفخر بذلك على أمهات المؤمنين وتقول: (زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق عرشه) وفي رواية (إن الله أنكحني في السماء) وفي أخرى (وزوجني الله من فوق سبع سموات)^(٢). وفي بعض الروايات كانت تقول: (أنا أكرمكن) ولياً، وأكرمكن سفيراً: زوجكن أهليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات^(٣).

وكانت زينب رضي الله عنها سالحة، تقية صادقة الإيمان، وقد شهدت لها بذلك ضررتها السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إذ تقول: «ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي يتصدق به ويتقرب به إلى الله عز وجل»^(٤).

وكانت رضي الله عنها كريمة خيرة تصنع بيديها ما تحسن صنعه فتدبغ وتخز وتصدق في سبيل الله على المساكين.
وسُمت عائشة تقول حين بلغها نعي زينب:

(١) انظر صحيح مسلم في كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس برقم ١٤٢٨/. والنسائي في النكاح باب صلاة المرأة إذا خطبت (٧٩/٦).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد باب وكان عرشه على الماء (١٧٦/٨) وفي تفسير سورة الأحزاب.

وأخرجه الترمذي في التفسير، باب ومن سورة الأحزاب برقم ٣٢١٢/. وأخرجه النسائي في النكاح، باب صلاة المرأة إذا خطبت (٨٠/٦).

(٣) طبقات ابن سعد (٧٣/٨) الاستيعاب (١٨٥١/٤) الإصابة (٩٢/٨).

(٤) السط الثمين (ص ١١٠) والاستيعاب (١٨٥١/٤)، والإصابة (٩٣/٨).

«لقد ذهب حميدة متعبدة مفزع اليتامى والأرامل».

ثم قالت:

قال رسول الله ﷺ لأزواجه: «أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً...»
فكنا إذا اجتمعنا بعده نمد أيدينا في الجدار، تتناول: فلم نزل نفعله
حتى توفيت زينب بنت جحش، ولم تكن بأطولنا، فعرفنا حينئذ أن
النبي ﷺ إنما أراد طول اليد بالصدقة، وكانت زينب صناع اليد تدبغ
وتخرز وتصدق في سبيل الله»^(١).

حضرتها الوفاة سنة عشرين ولها من العمر ثلاث وخمسون سنة. فصلى
عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وشيع أهل المدينة إلى البقيع أم
المؤمنين زينب بنت جحش. أول من مات من نساء النبي ﷺ بعده.
فرحم الله أكرم النساء ولياً وسفيراً وأطولهن يداً.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٠٨/٨). والحاكم في المستدرک (٢٥/٤) وصححه ووافقه
الذهبي.

وأخرج الإمام مسلم نحو هذا الحديث في كتاب فضائل الصحابة، باب عن فضائل أم
سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها برقم ٢٤٥٢/.

صفير بنت حوي
عقيلة بني النضير

صفية بنت حُيَيٍّ عقيلة بنتي القصير

هي صفية بنت حُيَيٍّ، بن أخطب، بن سعية، من سبط اللاوي بن نبي الله إسرائيل، بن إسحاق، بن إبراهيم عليهم السلام، ثم من ذرية رسول الله هارون عليه السلام، كانت شريفة عاقلة، ذات حسب وجمال ودين، وقد تزوجها قبل إسلامها، سلام بن أبي الحقيق، ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق، وكانا من شعراء اليهود فقتل كنانة يوم خيبر، وسبيت صفية فيمن سبي من النساء، فقادها بلال مؤذن الرسول ﷺ مع ابنة عم لها، ومَرَّ بها على ساحة امتلأت بالقتلى من يهود. وتماسكت صفية بترفع ولم تجزع ولم تصرخ كما فعلت ابنة عمها التي صكت وجهها صارخة وحثت التراب على رأسها.

ثم جيء بها إلى رسول الله ﷺ، وصفية في حزنها الصامت، والأخرى معفرة بالتراب ممزقة الثياب لا تكف عن النواح، فقال صلى الله عليه وسلم وهو يشيح بوجهه عنها: «أغربوا عني هذه الشيطانة»^(١).

ثم دنا صلى الله عليه وسلم من صفية فألقى عليها نظرة رحمة وعطف وهو يقول لبلال: «أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما»^(٢).

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٥٠)، والإصابة (٨/١٢٦) وتاريخ الطبري (٣/٩٤).

(٢) السيرة (٣/٣٥١) والإصابة (٨/١٢٦) والطبقات لابن سعد (٢/٨١).

ثم أمر بصفية فخيرت خلفه، وألقى عليها رداءه، فكان ذلك إعلماً بأنه صلى الله عليه وسلم قد اصطفاها لنفسه، ولم يعرف المسلمون أتزوجها رسول الله أم اتخذها أم ولد؟ فلما حجبتها عرفوا أنه تزوجها.

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما أخذ صفية بنت حُجَيٍّ قال لها: هل لك في؟ قالت: يا رسول الله.. قد كنت أتمنى ذلك في الشرك، فكيف إذا أمكنتني الله منه في الإسلام؟!

ثم إن النبي ﷺ لما طهرت، تزوجها وجعل عتقها صداقها^(١). وانتظر صلى الله عليه وسلم بخير حتى هدأت المناحة، وظن أن الروع قد ذهب عن صفية فحملها ورائه، وانطلق إلى المنزل على بعد ستة أميال من خير، وأراد النبي ﷺ أن يعرس بها لكنها تمنعت عليه أن يفعل. فوجد في نفسه وشقاً عليه تمنعها ورفضها.

ثم استأنف صلى الله عليه وسلم مسيره إلى المدينة بعسكره فلما كان بالصهباء بعيداً عن خير نزل يستريح، فبدا له أن صفية متهيئة للعرس. ثم جاءتها أم أنس بن مالك رضي الله عنها فمشطتها وجلتها وعطرتها حتى بدت تأخذ العين بسحرها حتى أن أم سنان الأسلمية قالت: إنها لم تُر بين النساء أضوأ منها^(٢). وأقيمت وليمة العرس

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس في المغازي، باب غزوة خير، وفي النكاح، باب من جعل عتق الأمة صداقها (١٢١/٦)

ومسلم في النكاح، باب فضيلة اعتاقه أمة ثم يتزوجها برقم ١٣٦٥/. وانظر الاستيعاب (١٨٧٢/٤)، والاصابة (١٢٦/٨)، وطبقات ابن سعد (٨٤/٢).
(٢) الإصابة (١٢٦/٨).

وأكل الناس من طبيبات خبير من التمر والسمن والإقط حتى
شبعوا.

ودخل رسول الله ﷺ على صفية وفي نفسه شيء من رفضها
الأول وأقبلت عليه العروس متلهفة تقص عليه خبراً عجباً.

قالت: انها في ليلة عرسها بكنانة بن الربيع رأت في المنام أن
قمرأ وقع في حجرها، فلما صحت من نومها عرضت رؤياها على كنانة
فقال غاضباً:

« ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمداً^(١) ولطم وجهها
لطمة ما يزال أثرها فيه واستمع لها النبي ﷺ وهو يبتسم ثم سأها
قائلاً:

« ما حملك على الامتناع في المنزل الأول؟ ».

فأجابت على الفور: خشيت عليك قرب اليهود^(٢).

فأشرق وجه النبي الكريم، وزال ما كان يجد في نفسه. ودخل بها
النبي ﷺ وهي في السابعة عشر من عمرها^(٣).

ولما بلغ الركب المدينة أثر النبي ﷺ ألا يدخل بالعروس على
نسائه فأنزلها في بيتٍ لصاحبه حارثة بن النعمان.

ولما تسامعت نساء الأنصار بها جئن ينظرن إلى جالها. ولح
النبي ﷺ عائشة تخرج منتقبة على حذر وتدخل بيت حارثة بن

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/٣٥٠) وتاريخ الطبري (٣/٩٤). وفي الإصابة أنها قصت
رؤياها على أمها.

(٢) الإصابة (٨/١٢٦).

(٣) الطبقات لابن سعد (٨/١٢٩)، والمستدرک (٤/٢٩).

النعمان، فانتظر حتى خرجت فأدركها وأخذ بثوبها وسألها ضاحكاً:
كيف رأيت يا شقيراء؟ فأجابت والغيرة تملأ كيائها: رأيت يهودية.
فرد عليها رسول الله ﷺ:

« لا تقولي ذلك. فإنها أسلمت وحسن إسلامها »^(١).

ثم انتقلت صفية إلى دور النبي، وهاجت غيرة ضرائرها من
جمالها ولم تسلم من النيل منها، وتفاخرهن عليها بأنهن قرشيات أو
عربيات وهي غريبة.

وبلغها مرة أن حفصة قالت لها: بنت يهودي فبكت، فدخل
عليها النبي وهي تبكي فقال: « ما يبكيك؟ » فقالت: قالت لي
حفصة: إني بنت يهودي، فقال النبي ﷺ: « إنك لابنة نبي، وإن
عمك نبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك؟ » ثم قال: « اتقي
الله يا حفصة »^(٢).

فكانت هذه الكلمات برداً وسلاماً وأمناً لها: فأصبحت كلما
سمعت شيئاً من المفاخرة تقول: (كيف تكونان خيراً مني، وزوجي
محمد، وأبي هارون، وعمي موسى)^(٣).

وتوفيت رضي الله عنها حوالي سنة خمسين والأمر مستقر لمعاوية
ودفنت بالبقيع مع أمهات المؤمنين رضي الله عنهن جميعاً.

(١) الطبقات لابن سعد (١٢٥/٨).

(٢) أخرجه الترمذي من طريق عبد الرزاق عن معمر، عن ثابت عن أنس. برقم
٣٨٩٤/.

وكذا أحد في المسند (١٣٥/٣). واسناده صحيح.

(٣) الإصابة (١٢٧/٨)، والاستيعاب (١٨٧٢/٤).

جمهورية بنيت الحائرت
امرأة عظيمة البركة على قومها

جمهورية بنت الحارث امرأة عظيمة البركة على قريتها

هي جويرية بنت الحارث، بن أبي ضرار، بن حبيب الخزاعية المصطلقية، كانت من أجل النساء، وكانت من بين السبايا عندما انتصر المسلمون على بني المصطلق في غزوة المريسيع. وقعت جويرية في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له. وهي في العشرين من عمرها. وحاولت النجاة من مهانة السبي وعار الرق فكاتبت ثابت بن قيس، ثم أتت رسول الله ﷺ تطلب منه إعانة في فكك نفسها، ورق قلب النبي ﷺ لحال السيدة الحرة الأصيلة التي تلوذ به لإنقاذها من محنتها.

فقال لها النبي ﷺ: «هل لك في خير من ذلك؟»

ف قالت في لهفة: وما ذاك يا رسول الله؟

قال: «أقضي عنك كتابتك وأتزوجك».

وتألق وجهها الجميل بالسرور وهي لا تكاد تصدق نجاتها من الضياع والهوان فقالت: نعم يا رسول الله.

فقال رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام: «قد فعلت»^(١).

(١) السيرة لابن هشام (٢/٢٩٤) والاصابة (٨/٤٣)، والاستيعاب (٤/١٨٠٤).

تقول عائشة أم المؤمنين: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، وأرسلوا ما بأيديهم - أي من الأسرى - فلقد أعتق بتزويجه إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها.

وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تصف ملاحه جويرية: (..) وكانت امرأة حلوة ملاحه، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه. فأتى رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى فيها صلى الله عليه وسلم ما رأيت..^(١)

ودخلت العروس سيدة بني المصطلق بيت النبوة وكان اسمها برة فسمها صلى الله عليه وسلم جويرية، كراهة أن يقال: خرج من عند برة^(٢).

وذكر ابن حجر في الإصابة عن قوة إيمان جويرية رضي الله عنها فقال:

جاء أبوها فقال للرسول: ان ابنتي لا يُسبى مثلها، فأنا أكرم من ذلك، فقال النبي ﷺ: «أرأيت ان خيرناها أليس قد أحسنت؟...»

(١) السيرة لابن هشام (٢/٢٩٤)، والإصابة (٨/٤٣)، والاستيعاب (٤/١٨٠٤) هذا وقد ذكر السهيلي في شرحه للسيرة:

«وأما نظره عليه الصلاة والسلام لجويرية حتى عرف من حسنها ما عرف، فأنما كان ذلك لأنها امرأة مملوكة، ولو كانت حرة ما ملأ عينه منها... وجائز أن يكون نظر إليها لأنه أراد نكاحها... وقد ثبت عنه عليه الصلاة والسلام الرخصة في النظر إلى المرأة عند ارادة نكاحها...»

(٢) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس برقم/٢١٤٠. وأحمد في المسند (٦/٤٢٩).

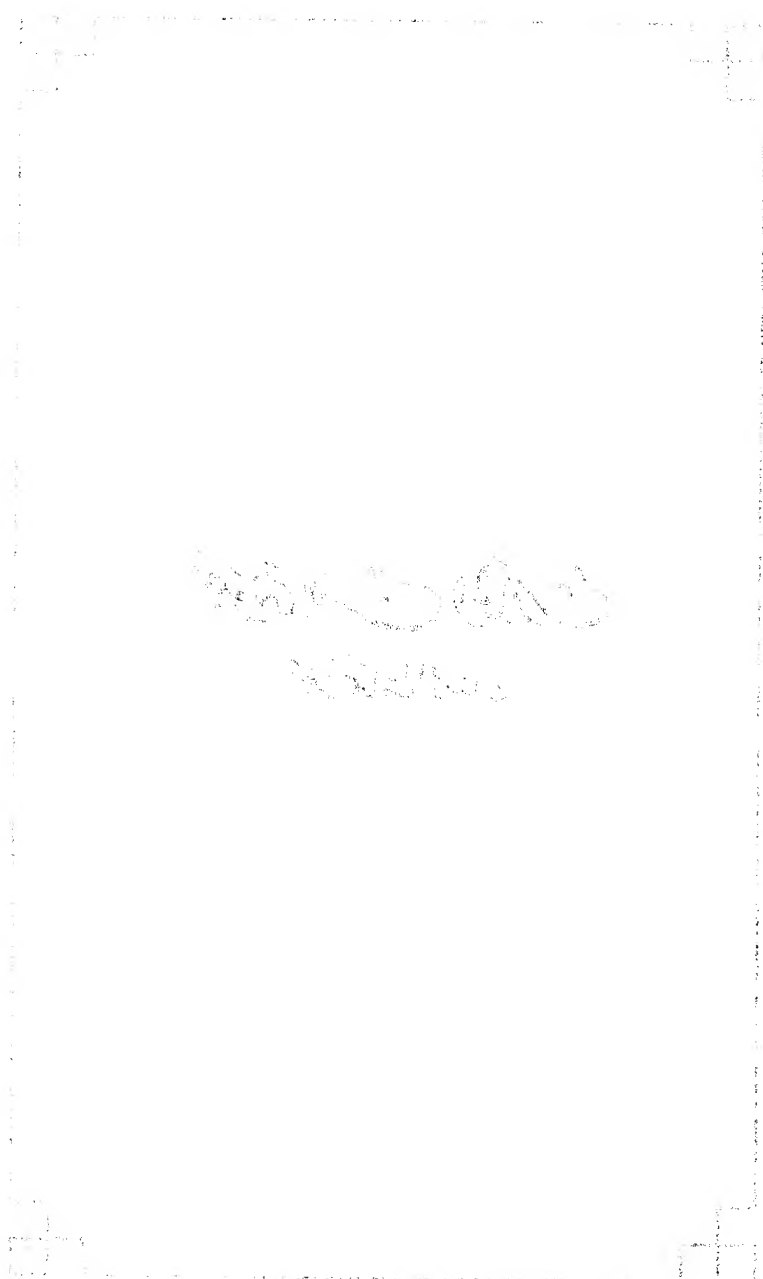
قال: بلى فأتاها أبوها فذكر لها ذلك فقالت: اخترت الله ورسوله.

وروى ابن هشام أن أباها الحارث أسلم وأسلم معه ابنان له وناس من قومه، وتوفيت أم المؤمنين جويرية في سنة خمسين وقيل سنة ست وخمسين^(١).

فرحم الله أم المؤمنين جويرية فقد كان زواجها برسول الله عليه الصلاة والسلام بركة وخيراً أصاب أول ما أصاب قومها وعشيرتها وذوي رَحْمها فانقلبوا بسببها بحول الله من العبودية والشُّرك إلى الحرية ونور الإسلام وعزته. وكان ذلك درساً لمن يتساءل عن الحكمة من وراء تعدد زوجات النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

(١) الطبقات لابن سعد (١٢٠/٨).

عَمِيمُونَهْ بَنْتِ الْحَارِثِ
أَيْرَأْتُمَا الْمُؤْمِنِينَ



ميمونة بنت الحارث أخيراً تحات المؤمنين

هي ميمونة بنت الحارث ، بن حزن ، بن بجير ، بن الهزم ، بن ربيعة ،
بن عبد الله ، بن هلال ، بن عامر ، بن صعصعة الهلالية .
أخت أم الفضل زوجة العباس ، وخالة خالد بن الوليد ، وخالة ابن
عباس رضي الله تعالى عنهم جميعاً .

وكانت من سادات النساء اللواتي اشتهرن بالفضل والنسب الرفيع .
تزوجها أولاً مسعود بن عمرو الثقفي قبل الإسلام وأقامت معه ..
ولكنها كانت كثيرة التردد على دار أختها أم الفضل فكانت تسمع منها
إلى بعض تعاليم الإسلام ، وأخبار المسلمين المهاجرين ، وإلى أخبار (بدر)
و(أحد) فيترك كل ذلك في نفسها أثراً عميقاً .

ولما وردت أخبار انتصار المسلمين في (خيبر) كانت ميمونة في بيت
شقيقتها أم الفضل فهشت لذلك، وفرحت أيما فرح . ولما عادت إلى دار
زوجها وجدته مغموماً حزيناً ، فتنازعا وأدى ذلك إلى مفارقتها عنه ،
فخرجت لتقيم في بيت العباس .

وعندما حل موعد الأجل المضروب في صلح الحديبية لدخول
النبي ﷺ مكة والإقامة فيها ثلاثة أيام يُودون خلالها مناسكهم وان

تخليها لهم قريش^(١).

في هذا اليوم الموعود دخل المسلمون مكة آمنين مُحلِّقين رؤوسهم ومُتصرين لا يخافون.

وصدق الوعد الحق، وارتفعت الأصوات بالهتاف المؤمن (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك) وتجاوبت أرجاء مكة، ومادت الأرض تحت أقدام المشركين الذين أسرعوا إلى التلال والجبال لأنهم لم يستطيعوا أن يروا محمداً وصحبه يعودون إلى مكة جهرة وبقوة وعزة. وبقي في مكة رجال ونساء يكتمون إيمانهم وهم يؤمنون: أن يوم النصر قريب.

وكانت ميمونة رضي الله عنها واحدة من الذين يكتمون إيمانهم، وكانت تستمع إلى ذلك الهتاف العظيم بإجلال وإكبار...

ولم تقف عند هذا الحد من الإيمان المكتوم. بل هوت بكليتها إلى الإسلام بعزة صادقة لتعلن على الملأ رغبتها في الدخول فيه. وعلى رغبتها في أن تستظل تحت سقف النبوة لتستقي من ذلك النبع ما يملأ كيائها المتعطش إلى تلك العقيدة الفريدة التي قلبت حياتها رأساً على عقب.

وها هي ذي تفضي إلى شقيقتها أم الفضل بما يهفو به قلبها لتصبح أماً من أمهات المؤمنين!

(١) نص العهد على أن يرجع الرسول وأصحابه في السنة السادسة للهجرة فلا يدخلون مكة عامئذ. ثم يدخلها بأصحابه في عام قابل. فيقيموا بها ثلاثة أيام. راجع نص عهد الحديبية في تاريخ الطبري (٧٩/٣) وطبقات ابن سعد (٧٠/٢).

وتحدثت به الأخت إلى زوجها العباس وجعلت له يدها، ولم يتردد العباس في ذلك بل مضى مسرعاً إلى النبي ﷺ، وعرض عليه أن يتزوجها، فقبل النبي عليه السلام، وأصدقها أربعمئة درهم^(١). وفي رواية أن ميمونة هي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ فأنزل الله تبارك وتعالى فيها:

﴿وَأَمْرًا مِّمُونَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

ولما انقضت مدة الأيام الثلاثة التي نص عليها عهد الحديبية أرسل القرشيون إلى النبي ﷺ يقولون: لقد انقضى أجلك فاخرج عنا. فقال لهم النبي ﷺ مترفاً:

« ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، ووضعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟؟! ».

وأجابوه بجفاء: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا^(٣)!.

لقد توجس المشركون خيفة من بقاء النبي ﷺ لأنهم أدركوا ما تركته زيارته لمكة من أثر في كثير من النفوس. فها هي ذي ميمونة بنت الحارث لا تكتفي بإعلان إسلامها. بل تضيف إليه ما يفيظهم فتعرض نفسها زوجة للرسول ﷺ.

(١) أنظر طبقات ابن سعد (١٣٣/٨).

(٢) أنظر سيرة ابن هشام (٢٩٦/٤)، والإصابة (١٩٢/٨)، والاستيعاب (١٩١٦/٤). والطبقات لابن سعد (١٣٧/٨) والآية رقم ١١٥/ من سورة الأحزاب.

(٣) السيرة (٢٩٦/٤). والطبقات لابن سعد (١٣٨/٨)، والطبري في التاريخ (١٠٠/٣)، والإصابة (١٩٢/٨).

وحفاظاً من النبي عليه السلام، لم يَبْنِ بميمونة بمكة وأذن في المسلمين بالرحيل للمدينة، وحين أصبح في مكان يسمى (سرفا) على بعد عشرة أميال من مكة، بنى عليه السلام بميمونة رضي الله عنها. وكان ذلك في شوال من سنة سبع للهجرة.

قال مجاهد كان اسمها (بَرّة) فسماها رسول الله (ميمونة) (١).

ووصلت ميمونة إلى المدينة، واستقرت في البيت النبوي الطاهر كما تمت كريمة، وأماً وأماً للمؤمنين فاضلة تُؤدي واجب الزوجية على خير ما يكون سمعاً وطاعة، ووفاءً وإخلاصاً.

وبعد أن لحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى عاشت ميمونة سنين عدداً بلغت خمسين عاماً: أمضتها كلها بالصلاح والتقوى، وفية لذكرى سيد ولد آدم ومعلم البشرية محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

وقد بلغ من وفائها لذكرى أكرم الأزواج رسول الله ﷺ أن أوصت بدفنها في المكان الذي بنى بها فيه (٢).

قال عطاء: لما تُوفيت خرجت مع ابن عباس فقال: إذا رفعت نعشها فلا تزلزلوها ولا تزعزعوها. وقال: ارفقوا بها فإنها أمكم (٣).

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٣٧/٨)، والحاكم في المستدرک (٣٠/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) ابن سعد في الطبقات (١٣٩/٨). والحاكم في المستدرک (٣١/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) الشطر الأول أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٤٠/٨) والحاكم (٣٢/٤) من طريق آخر وصححه ووافقه الذهبي. أما الشطر الثاني من قول ابن عباس. فأخرجه ابن سعد من طريق الواقي (١٤٠/٨).

قالت عائشة رضي الله عنها بعدما توفيت ميمونة: (... ذهبت والله ميمونة ورُمي بجبلك على غاربك. أما أنها كانت والله من أتقانا لله، وأوصلنا للرحم)^(١).

فسلام على ميمونة فقد كان لموقفها الجريء عندما أعلنت إسلامها الأثر البارز في تحويل الكثيرين من المشركين عن جاهليتهم ودخولهم في دين الله أمثال خالد، وعمرو بن العاص. رضي الله عنها وعنهم وعن الصحابة أجمعين.

(١) أخرجه ابن سعد (١٣٨/٨) والحاكم (٣٢/٤) وكلاهما من طريق يزيد بن الأصم.

الرَّسُولُ زَوْجًا

الرَّسُولُ الزَّوْجُ الْمَرْحُومُ

الرَّسُولُ الزَّوْجُ الْحَازِمُ

الرَّسُولُ الزَّوْجُ الْوَفِيُّ

Handwritten text, possibly a signature or name, in a cursive script.

Handwritten text, possibly a signature or name, in a cursive script.

Handwritten text, possibly a signature or name, in a cursive script.

Handwritten text, possibly a signature or name, in a cursive script.

الرَّسُولُ زَوْجًا

بعد الحديث عن أمهات المؤمنين رضي الله عنهن يستحسن الكلام على السر الكامن الذي جعل من الضرائر التسع قدوة صالحة، وأسوة لجميع النساء، ومثلاً بارزاً في البر والتقوى، والعلم والحكمة، ومعالي الأمور ومكارم الأخلاق.

وبتتبع سيرة الرسول ﷺ مع زوجاته قبل البعثة وبعدها، ندرك ذلك السر، ونقرر بأن مكانة أمهات المؤمنين الرفيعة لم تكن إلا بفضل محمد ﷺ الرسول الزوج، فكما يقال : (بأن وراء كل عظيم امرأة) ، كذلك يقال : (الفرس من الفارس) .

فقد كان فارس الأمة وقائدها ومعلمها صلى الله عليه وسلم المثل الكامل، والأسوة الحسنة للرجال في حسن معاشرة أزواجه بالمعروف، والقسمة بينهن بالعدل في كل من المبيت ، والنفقة ، واللفظ ، والتكريم ، وفي احتمال غضبهن ، وغيرتهن ، وتنازعهن ، بالأنانة والرفق ، والموعظة الحسنة . وكان يزورهن كلهن صباحاً للوعظ والتعليم ، ومساءً للمجاملة والمؤانسة ، وكنّ يجتمعن معه في بيت كل منهن . وكان يخدم في بيته ويقضي حوائجه بيده صلى الله عليه وسلم .

والآن فلنستعرض بعض الجوانب في حياة الرسول الزوج الموفق في إدارة شئون بيته الذي اجتمع فيه ذلك العدد الكبير من عقائل كريمات اختلفت أنماطهن، وتباعدت أصولهن ومنابتهن، وتفاوتت أعمارهن وصورهن .

فإذا علمنا أن هذا التوفيق والنجاح لم يكن في شئون بيته فقط، بل كان يشمل كل الجوانب السياسية والاقتصادية - وسيرة نجاحه في غزواته من أعظم الأدلة على ذلك - أدركنا آنذاك أنه عليه الصلاة والسلام كان نموذجاً فذاً ونادراً في تاريخ البشرية. لأن كثيراً من القواد البارزين الذين استطاعوا تحقيق النجاح في إدارة دفة السياسة في أمهم قد عجزوا عن إدارة بيوتهم المقتصرة على امرأة واحدة.

هذا وسنقتصر حديثنا عن الرسول الزوج على النقاط التالية:

- ١ - الرسول الزوج المرح.
- ٢ - الرسول الزوج الحازم.
- ٣ - الرسول الزوج الوفي.

الرَّسُولُ الزَّوْجُ الْمَرْحُومُ

قد يتخيل الكثيرون محمداً ﷺ رسول جد وصرامة دائماً. حتى مع زوجاته مما يخطر على بالهم الإشفاق عليهن، ولكن كل ذلك غير وارد قطعاً فقد كان صلى الله عليه وسلم من أرق الناس مع أهله مرحاً في حالات المرح. دائم البشر يداعب أهله ويضاحكهم. تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

والله رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم على باب حجرتي، والحبشة يلعبون بالحرايب في المسجد، ورسول الله يسترني بردائه لأنظر إلى لعبهم. بين أذنه وعاتقه مسندة وجهي إلى خده، فجعل يقول:

يا عائشة ما شبعت؟ فأقول: (لا) لأنظر منزلي عنده حتى شبعت وفي رواية: يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو^(١).

(١) المقصود باللهو: اللهو الحلال، إذ لا يجوز إطاعة المرأة فيما حرم الله تعالى. وقد بين لنا رسول الله ﷺ أنواع اللهو المباح حيث قال: «كل شيء ليس فيه ذكر الله فهو لغو وسهو ولعب إلا أربع خصال: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديبه الرجل فرسه، ومشية بين الفرضين، وتعليم الرجل السباحة» أنظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني برقم / ٣٠٩ / هذا وحديث لعب الحبشة بالحرايب ونظر عائشة أخرجه البخاري في المساجد . باب أصحاب الحرايب في المسجد (١ / ١١٦) ومسلم في صلاة العيدين ، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد برقم / ٨٩٢ / .

وكان صلى الله عليه وسلم يقوم مع أزواجه ببعض أوجه النشاط واللهو ليستمتع كل منها بصحبة شريك حياته ولكيلا تكون الحياة الزوجية جداً على الدوام فتكون مئة وتصبح قيداً.

تقول عائشة رضي الله عنها: كنت مع رسول الله في سفر، وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبذن، فقال لأصحابه: تقدموا، فتقدموا، ثم قال: تعالي أسابقك فسبقته، فسبقته على رجلي.

فلما كان بعد - وفي رواية - فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت، خرجت معه في سفر، فقال لأصحابه: تقدموا فتقدموا ثم قال: تعالي أسابقك، ونسيت الذي كان، وقد حملت اللحم. فقلت: كيف أسابقك يا رسول الله وأنا على هذه الحال؟! فقال: لتفعلن، فسابقته فسبقني، فجعل يضحك ويقول: هذه بتلك السبقة^(١).

وكان رسول الله ﷺ يقول لعائشة رضي الله عنها: «إني لأعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت عني غضبي! قالت: (فقلت: من أين تعرف ذلك؟! فقال: «أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا، ورب محمد، وإذا كنت عني غضبي قلت: لا، ورب إبراهيم. قالت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك»^(٢).

يقول أحد العلماء: (واعلم أنه ليس حسن الخلق مع الزوجة كف الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضبها اقتداء لرسول الله ﷺ فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام، وتهجره

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده (٢٦٤/٦). وأبو داود في المجاهد، باب في السبق على الرجل برقم ٢٥٧٨/.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب غيرة النساء ووجدهن، (١٥٧/٦). ومسلم في فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنها برقم ٢٤٣٩/.

الواحدة منهن يوماً إلى الليل، وراجعت امرأة عمر رضي الله عنه فقال:
أتراجعيني؟! فقالت: إن أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه وهو خير
منك^(١).

فإذا كان كل هذا من رسول الله ﷺ نبي البشرية وقائدها علم
الرجال.. كل الرجال فإنه ينبغي لكل واحد منهم أن ينمي في
نفسه - تأسيساً برسول الله - صفات الفكاهة والمرح في بعض الأحيان
في بيته، وخاصة مع زوجته لإدخال السرور إلى قلبها، والتخفيف من
قساوة الحياة، وإزالة التوتر الناجم من شكل الحياة والعمل، وكل ذلك
يساعد على تقوية أواصر المحبة بين الزوجين. صلى الله على معلم
البشرية كل خير.

(١) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب الفرفة والعلية، وهو جزء من حديث طويل
عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه (١٠٣/٣).

الرَّسُولُ الزَّوْجُ الْحَازِمُ

إن حسن معاملة الرسول ﷺ لزوجاته، وملاطفته لهن، ومرحه معهن، وحلمه وصبره على زلاتهن، كل هذا لم يمنعه صلى الله عليه وسلم من الحزم معهن في الوقت المناسب، فالتربية لا تتم إلا بوضع الحزم في موضعه والغضب في موضعه.

قال الله تعالى يخاطب محمداً صلى الله عليه وآله وسلم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّزَوْجِكَ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَلِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١).

وقد نزلت هذه الآيات لما وصل الحد بأمهات المؤمنين رضي الله عنهن إلى مطالبة الرسول ﷺ بالتوسع في النفقة والزينة، فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن غضب غضبة الحليم فحلف أن لا يقربهن شهراً، واعتزلهن كلهن بحزم زائد طوال شهر كامل تربية لهن. وانزل الله سبحانه وتعالى الآيات السالفة في تخيرهن بين العيش مع الرسول ﷺ على طريقة حياته والصبر معه، أو اللحاق بأهلهن. فما كان من أمهات

(١) سورة الأحزاب، الآيات (٢٨-٢٩).

المؤمنين الفاضلات إلا أن أثرن الله ورسوله والدار الآخرة، وعشن مع النبي ﷺ لأداء دورهن العظيم في تأمين السعادة والطأينة له والتعاون معه في نقل الإسلام إلى الناس.

وإلى القارئ الكريم تفصيل الخبر:

روى الامام مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم. قال فأذن لابي بكر فدخل. ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً قال: فقال أبو بكر: لأقولن شيئاً أضحك النبي ﷺ فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة تسألني النفقة، فقممت إليها فوجأت عنقها فضحك رسول الله ﷺ وقال: هن حولي كما ترى يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟!.

فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده.

ثم اعتزلهن شهراً، أو تسعاً وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك - حتى بلغ - للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾. قال: فبدأ بعائشة فقال:

«يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيرى أبويك.

قالت: وما هو يا رسول الله؟

فتلا عليها الآية، قالت:

أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة. وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت:

قال: لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً ولكن بعثني معلماً ميسراً^(١).

ثم خيرهن كلهن فاخترن ما هو خير لهن - حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

هذا وقد اتفقت الروايات على تخير النبي ﷺ أزواجه بين تطليقهن وابقائهن على عصمته - على الوجه الذي يريده منهن، وهو أن يكنَّ قدوة صالحة للنساء في الدين - كان بعد حادثة غضبه وهجره لهن شهراً حين أفشت حفصة سر رسول الله إلى عائشة، ثم رضاه عنهن، وقد صحَّ أن حدث في أثناء ذلك سبب آخر للتخيير وهو إلحاحهن بطلب التوسعة في النفقة والزينة.

فما أحوج الرجال - وخاصة في هذا العصر - إلى مثل حزم الرسول ﷺ فإن إلقاء الحبل على الغارب لأكثر النساء يؤدي إلى محاذير لا تُحمد عقباها عليهن أنفسهن قبل أزواجهن.

(١) أخرجه الإمام مسلم في الطلاق، باب بيان أن تغيّر امرأته لا يكون طلاقاً. إلا بالنية، برقم / ١٤٧٨.

الرَّهْطُ الْوَفِيُّ

الوفاء بشكل عام فضيلة من الفضائل العظيمة في الإسلام، ويدل على شرف مكانته أن يصف الله تبارك وتعالى ذاته القدسية بالوفاء في آيات قرآنية كثيرة. منها قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآث لَهُمْ
الْجَنَّةَ يُقَرَّبُونَ فِي مَسِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا
فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ
فَأَسْتَبْشِرُوا بِلَدِّي بِإِعْتَمِيهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١).

وقد جعل الله تعالى الوفاء صفة للمؤمنين الأخيار الأبرار حيث قال جلّ شأنه:

﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أُولَئِكَ الْأَبَرِّ، الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ، وَلَا يَنْفُضُونَ الْعَيْثُ﴾^(٢).

كما أمر الله سبحانه عباده بأن يتخذوا من فضيلة الوفاء درعاً وحصناً وزينة لنفوسهم وأخلاقهم فقال:

(١) سورة التوبة، الآية /١١١/.

(٢) سورة الرعد، الآية /٢٠/.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ (١).

هذا وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ المثل الأعلى والرائع في الوفاء حينما حفظ عهد زوجته خديجة رضي الله عنها، حفظه في حياتها وبعد مماتها، ولم يشغله عن ذكرها شاغل، فكان يكثر الحديث عنها والثناء عليها، ويصل من كانت تصله في حياتها.

تروي عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: أن عجوزاً جاءت إلى النبي ﷺ فقال لها: من أنت؟
فقلت: جثامة المزنية.

فقال: أنت حسانة! كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟
قلت: بخير، بأبي أنت وأمي.

فلما خرجت، قالت عائشة: يا رسول الله تُقْبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال؟!

قال: إنها كانت تأتيننا زمن خديجة!! وإن حسن العهد من الإيمان (٢).

تقول عائشة رضي الله عنها أيضاً:

ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت من خديجة، وما رأيتها قط، ولكن كان الرسول يكثر ذكرها وربما ذبح شاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبيعها إلى صدائق خديجة.

وربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إن كانت وكانت، وكان لي منها ولد.

(١) سورة النحل، الآية /٩١/.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک في کتاب الإيمان (١٦/١) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وليس له علة، ووافقه الذهبي.

وفي رواية أخرى تقول: ما غرت على امرأة قط ما غرت على خديجة من كثرة ذكر النبي ﷺ إياها، ولقد ذكرها يوماً فقلت: ما تصنع بمعجوز حراء الشدقين قد أبدلك الله خيراً منها.

فقال: «والله ما أبدلني خيراً منها، أمنت حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بما لها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء»^(١).

فكل هذا الإعجاب العظيم من الرسول ﷺ بخديجة دليل على نبل وفائه وسمو خلقه، وتقديره للعقل الراجح، والنفس النبيلة على الرغم من كبر سنها فقد كانت في الأربعين وهو في الخامسة والعشرين فلم ينسه كل ذلك على الرغم من جمال عائشة وفقهها وحبه لها، فيبقى وفيّاً طوال حياته لخديجة رضي الله عنها، ولم يتزوج عليها على الرغم من كبر سنها حتى ماتت.

يقول الدكتور نظمي لوقا:

ولم تجسر عائشة الزوجة الشابة ذات الخطوة أن تجري ذكر خديجة على لسانها بعد تلك القضية. فمن ذا الذي كان محمد ﷺ يصانعه وهو يفني لخديجة هذا الوفاء الجميل الذي يستحق أن يكون مضرب الامثال لسائر الأزواج رجالاً ونساءً. أترأه كان يصانع التي ماتت ليغضب التي يعيش معها ويحبها؟؟

ما القول في هذا الوفاء المعجز، والدنيا حافلة حولنا بأمثلة العقوق ونسيان الفضل وخيانة العهد؟؟^(٢).

(١) رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها (٢٣٠/٤).

ومسلم في فضائل الصحابة باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها برقم (٢٤٣٤) و (٢٤٣٥ و ٢٤٣٦ و ٢٤٣٧).

والترمذي في المناقب، باب مناقب خديجة رضي الله عنها برقم ٣٨٨٦/.

(٢) من رسالة (محمد في حياته الخاصة) للدكتور نظمي لوقا ص ٥٦.

the first thing I saw when I stepped out of the car was
a man in a dark suit, white shirt, and tie, standing
in the doorway, looking at me with a slight smile.

He was about forty years old, with dark hair and a friendly
expression. He was looking at me with a slight smile, and
I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me.

He was looking at me with a slight smile, and I felt a little
nervous, but he seemed to be waiting for me. He was looking
at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he
seemed to be waiting for me. He was looking at me with a slight
smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting
for me. He was looking at me with a slight smile, and I felt a
little nervous, but he seemed to be waiting for me.

He was looking at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me.

He was looking at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me. He was looking at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me. He was looking at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me. He was looking at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me.

He was looking at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me. He was looking at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me.

He was looking at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me.

He was looking at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me. He was looking at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me.

He was looking at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me. He was looking at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me.

He was looking at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me.

He was looking at me with a slight smile, and I felt a little nervous, but he seemed to be waiting for me.

بَنَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

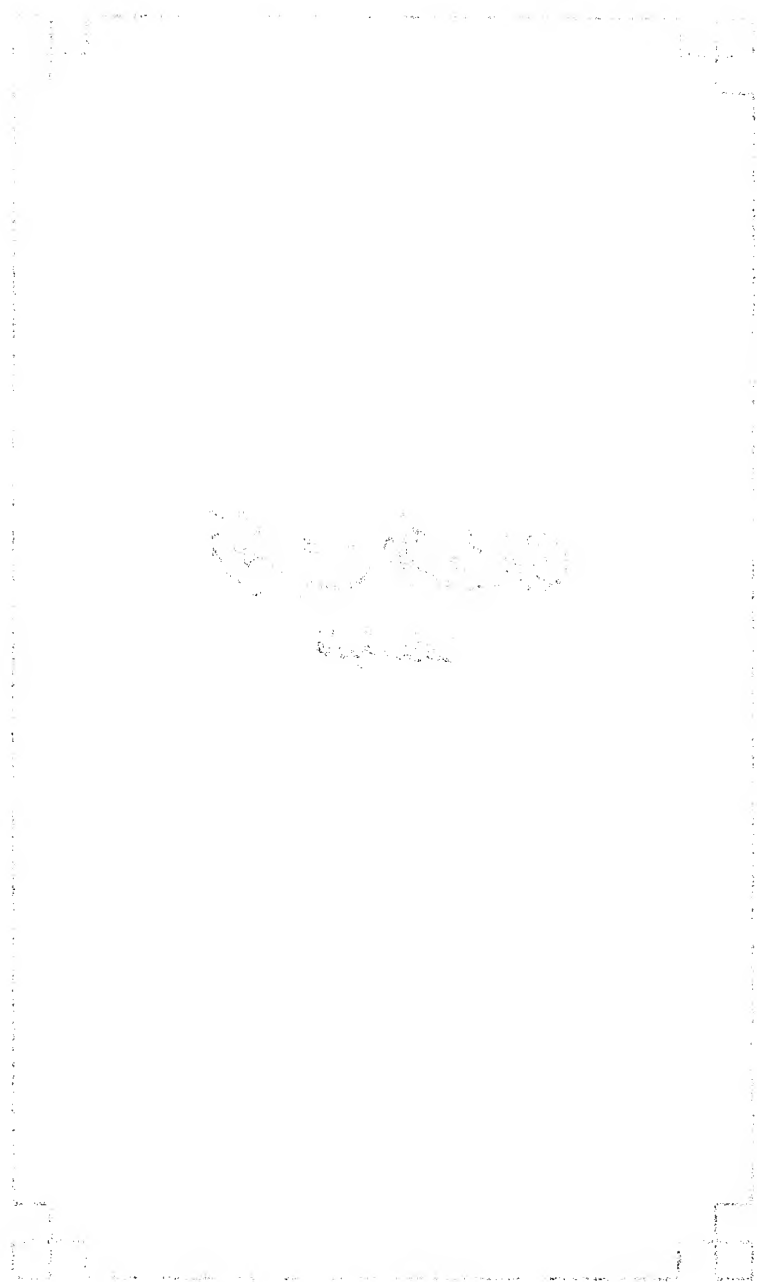
زَيْنَبُ الْكُذْرَى

رَفِيسَةُ فَلَسْتِ الْهَجْرَتَيْنِ

أُمُّ الْمُتَوَكِّلِينَ

فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءِ

زَيْنَبُ الْاُمِّ بَرِي
فاديه زوجها



زَيْنَبُ الْكُبْرَى

فأدبية زوجها

ولدت زينب رضي الله عنها قبل بعثة والدها صلى الله عليه وسلم بعشر سنين، وكانت باكورة زواجه من أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

ترعرعت زينب في بيت النبوة تنهل من أخلاق وعادات أشرف أبوين في الوجود، محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، وصاحب الخلق العظيم، وخديجة سيدة نساء العالمين، فعدت زينب رضي الله عنها نموذجاً مشرفاً في كل الصفات الحميدة.

وما كادت تكتمل أنوثة زينب حتى تقدّم لخطبتها ابن خالتها (أبو العاص بن الربيع) أحد رجال مكة المعدودين شرفاً ومالاً، قرشي صميم، يلتقي نسبه من جهة الأب مع النبي ﷺ عند عبد مناف بن قُصي، ويلتقي نسبه من جهة الأم مع زينب بنت محمد ﷺ عند جدها الأَدْنَى خُوَيْلِد. لأن أمه هالة بنت خويلد أخت خديجة زوجة نبينا محمد ﷺ.

وقد كان أبو العاص يعرف زينب وصفاتها عن كُثْب كلما جاء إلى بيت خالته، وكذلك كانت زينب وأبوها يعرفون جميل خصاله. لذا سرعان ما رضيه النبي ﷺ، ورضيته خديجة رضي الله عنها، ورضيته زينب لنفسها.

وزفت زينب إلى بيت زوجها أبي العاص، واستطاعت على صغر سنّها أن تضي على بيت الزوجية السعادة والسرور، ومنّ الله على الزوجين بولدين (عليّ)، و(أمّامة) فاكتملت بها فرحة البيت. وامتلات جوانبه سعادة وهناء.

وبينما كان أبو العاص في إحدى رحلاته حدث الأمر العظيم في حياة البشرية، ونُبيّ محمد ﷺ بالرسالة، وانصاعت زينب لدعوة الحق التي جاء بها والدها رسول الله ﷺ، واتخذت دين الله لها منهجاً ودستوراً تسير عليه.

ولما عاد الزوج من رحلته حدثته شريكة حياته زينب بما حصل أثناء غيابه من أمر الدين الجديد الرشيد. وهي تحسب أنه سيسارع إلى إعلان إسلامه، ولكنها فوجئت به يستقبل الخبر بصمت وفطور.

وحاولت زينب رضي الله عنها إقناع زوجها بشقّ الوسائل فقال لها: والله ما أبوك عندي بمتهم، ولكني أكره أن يقال: إني خذلت قومي. وكفرت بدين أبيائي! إرضاء لمرأئي..

وكانت صدمة قاسية لزينب ألا يدخل زوجها في دين الإسلام الحنيف، وساد جو المنزل قلق وهم، وانقلب النعيم إلى جحيم.

وبقيت زينب في مكة في بيت زوجها ولم يبق حولها من يخفف آلام غربة الوالدين عنها، فقد هجر أبوها وصحبّه إلى المدينة المنورة وانتقلت أمها إلى الرفيق الأعلى وأخواتها لحقن الوالد إلى مهجره. ولما نشبت معركة بدر، طلب المشركون من أبي العاص الخروج معهم لمحاربة المسلمين، وكان نصيبه في هذه الغزوة أن يصبح أسيراً لدى المسلمين.

ولما استعرض رسول الله ﷺ الأسرى نحى أبا العاص جانباً وقال لأصحابه: استوصوا بالأسرى خيراً. وبعثت زينب في فداء زوجها بمال دفعته إلى أبيها وقلادة كانت قد أهدتها لها أمها رضي الله عنها عندما أدخلتها على زوجها أبي العاص.

ولم يكد عليه الصلاة والسلام يرى تلك القلادة حتى خفق فؤاده
الكريم لذكرى زوجته الوفية خديجة التي أهدتها هذه القلادة. التي لم
تجد زينب أعز منها فدية لزوجها الحبيب، وابن خالتها القريب،
وأطرق الرسول ﷺ وصحبه لروعة هذا الموقف.
وبعد صمت طويل قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في رافة

وحنان :

« إن رأيتم ان تطلقوا أسيرها، وتردوا عليها ماها، فافعلوا ».

فقالوا جميعاً: نعم يا رسول الله . وأخذ رسول الله على أبي العاص
العهد أن يخلي سبيل زينب لأن الإسلام قد فرق بينها^(١).

وعاد أبو العاص إلى مكة، واستقبلته زينب باشة فرحة، وكان هو
بادي الوجوم ظاهر الحزن، ثم قال وهو مطأطأ الرأس: جئتكم مودعاً يا
زينب.. وانقلبت البشاشة والفرح إلى حزن، وانهمرت الدموع من عيني
زينب وهي تردد: إلى أين؟ ولم ذاك يا زوجي الحبيب !!!؟؟!!.

فقال أبو العاص وهو يتحاشى النظر إلى وجه زينب: لست راحلاً يا
زينب ولكنك أنت الراحلة، فإن أباك هو الذي طلب مني أن أردك
إليه لأن الإسلام فرق بيننا، وقد وعدته أن أدعك تسيرين إليه، وما
كنت لآنكك عهداً..

وخرجت زينب من مكة، وودعت أبا العاص وداعاً مؤثراً، ولكن
قريشاً تصدت لها ومنعتها وروعوها، وكانت حاملاً فأجهضت حملها.
ورجعت إلى مكة فحباها أبو العاص عنده حتى استعادت قوتها، ثم
اغتنم يوماً غفلت فيه قريش عنها فأخرجها بصحبة أخيه (كنانة بن
الربيع) حتى أبلغها مأمنها عند رسول الله ﷺ.

(١) انظر الطبقات لابن سعد (٣١/٨) والهاكم (٤٥٤٤/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

ومضت سنوات ست حافلة بجليل الأحداث وزينب رضي الله عنها في حمى أبيها بالمدينة تعيش على أمل لم يغلبها عليه اليأس قط ، وهو أن يشرح الله صدر أبي العاص للإسلام .

وفي جمادى الأولى سنة ست من الهجرة طرق أبو العاص باب زينب ففتحت له وهي لا تكاد تصدق ما ترى وهمّت أن تقترب منه لتحبيه ولكنها توقفت فجأة إذ لا بد من التأكد فالعقيدة أولاً وأخيراً .

وأجاب أبو العاص : لم آت يا زينب يثرب مسلحاً - وإنما خرجت تاجراً في أموال لي وأخرى لرجال قريش فلقيتنا سرية لأبيك فيها زيد ابن حارثة ومعه مائة وسبعون رجلاً فأصابوا ما معي وهربت منه وها أنا ذا جئت إليك متخفياً مستجيراً .

وعادت زينب بنت العقيدة الأصلية وهي تقول بصوت يقطر أسى وبأساً : مرحباً بابن الحالة ، مرحباً بأبي علي وأمامة .

ولما صلى رسول الله ﷺ الفجر قامت زينب وصاحت بأعلى صوتها : (أيها الناس ، إني أجرت أبا العاص بن الربيع) ^(١) - فخرج عليه السلام وقال : «أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟؟» .

فقالوا : نعم يا رسول الله ..

قال : «أما والذي نفس محمد بيده ، ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم» «والمؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أديانهم وقد أجرنا من أجات» ^(٢) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣١٢/٢) ، وإصابة (٩١/٨) ، والاستيعاب (٧٠٢/٤) والطبقات لابن سعد (٦٣/٢) .

(٢) أخرجه ابن هشام في السيرة (٣١٣/٢) ، وابن سعد في الطبقات (٦٣/٢) والطبري في تاريخه (٢٩٢/٢) والحاكم في المستدرک (٤٥/٤) ورجاله ثقات .

ثم دخل رسول الله ﷺ على ابنته زينب وقال لها: «اكرمي مثواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له».

ثم سألت زينب أباها عليه الصلاة والسلام أن يرد لأبي العاص متاعه وأمواله، فخرج رسول الله ﷺ إلى حيث يجلس أصحابه وقال لهم:

«إن هذا الرجل من حيث علمتم، وقد أصبتم له مالا، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإننا نجب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحق به» فأجابوا جميعاً: بل نرده عليه يا رسول الله! وردوا عليه ماله بأسره حتى كأنه لم يفقد منه شيئاً^(١).

وودّع أبو العاص زينب، ثم مضى إلى مكة وقد اعتزم أمراً.. ولما رآته قريش يعود بتجارها راجحة فرحت به. وبدأ أبو العاص يؤدي إلى كل ذي حق حقه، ثم وقف ونادى بأعلى صوته:

يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟ فقالوا: لا.. وجزاك الله خيراً فقد وجدناك وفياً كريماً..

وهنا قال: «أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والله ما منعني من الإسلام إلا تخوف أن تظنوا إني إنما أردت أن أكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت»^(٢).

وانصرف أبو العاص إلى المدينة مسلماً مهاجراً إلى الله ورسوله وليلتقي هناك بالاحبة محمد وصحبه. وردّ عليه رسول الله ﷺ زينب رضي الله عنها واجتمع الشمل، وخيم على البيت ما كان من قبل من سرور وسعادة ولكن جمعتهما الآن عقيدة واحدة لا تشوبها شائبة.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣١٣/٢)، والطبري (٢٩٢/٢).

(٢) نفس المصدر السابق. والاستيعاب (١٧٠٣/٤).

ومضى عام واحد، ثم كان الفراق الذي لا لقاء بعده في هذه الدنيا الزائلة إذ ماتت السيدة زينب رضي الله عنها في مستهل السنة الثامنة للهجرة متأثرة بمرض النزف الذي لازمها منذ هجرتها، وبكاها أبو العاص رضي الله عنها وتشبث بها حتى أبكى من حوله. حتى جاء أبوها عليه الصلاة والسلام محزوناً فاستودعها ثم قال للنساء:

« اغسلنها وترأ: ثلاثاً، أو خمساً، واجعلن في الآخرة كافوراً، أو شيئاً من كافور، فإذا غسلتها فاعلمني » ، فلما غسلنها أعطانا حقوه وقال: أشعرنها إياه ^(١).

فرحم الله زينب الكبرى بنت رسول الله ﷺ التي صبرت وكافحت وجاهدت فجزاها الله عن ذلك كل خير.

(١) أخرجه البخاري في الجنائز باب غسل الميت (٧٣/٢). ومسلم في الجنائز باب في غسل الميت برقم/٩٣٩.

رفیقہ ذلالت الحجرتین

رقية فلاتي (الحجرتين)

وُلدت رقية رضي الله عنها بعد أختها زينب. وما لبثت أن جاءت بعدها أختها أم كلثوم فنشأتا سوياً مجتمعتين متعاطفتين.

وبعد أن تزوّجت زينب من أبي العاص بن الربيع وقد قاربت سن رقية وأم كلثوم من الزواج جاء إلى النبي ﷺ وفد من آل عبد المطلب يتقدمه أبو طالب يخاطب منه ابنتيه رقية وأم كلثوم لولدي عبد العزى ابن عبد المطلب (أبي لهب) عتبة وعتيبة.

ولم يكن محمد ﷺ قد بُعث نبياً رسولاً. فوافق رسول الله على الخطبة، واستمهل الوفد حتى يعرض الأمر على أهل بيته وابنتيه صاحبتي الشأن.

وسكنت خديجة رضي الله عنها، وخافت إن هي أدلت برأيها أن تُغضب زوجها، أو يظن بأنها تريد أن تمزّق أواصر القربى بينه وبين أهله.

وكذلك سكنت الفتاتان حياءً، وهكذا تم الأمر، وعقدت الخطبة وبارك الأب الحنون ابنتيه وترك أمر رعايتهما لله عز وجل.

وما كاد محمد ﷺ يتلقى رسالة ربه ويدعو إلى الدين الحق، حتى اجتمعت قريش واثمعت برسول الله ﷺ وقال قائلها:

إنكم قد فرغتم محمداً من همه فردوا عليه بناته فاشغلوه بهن!... وردّ

أبو لهب زواج ابنيه من ابنتي رسول الله ﷺ قائلاً لولديه: رأسي من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد).

وعادت الفتاتان إلى ذويها ولم يكن الدخول قد تم، ولم يكتف (ابو لهب) وامراته (أم جميل حمالة الحطب) بما أقدموا عليه، بل بالغا إمعاناً في إيذاء النبي ﷺ حتى أنزل الله قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾^(١).

ولكن البيت المؤمن لم يزد هذا الامتحان والابتلاء في سبيل الله إلا ثباتاً ورسوخاً، فمحمد ﷺ قال لزوجته الوفية المخلصة منذ الأيام الأولى للبعثة: «لقد مضى عهد النوم يا خديجة».

ووعت السيدة خديجة ما تعنيه هذه العبارة فوطنت النفس على الوقوف إلى جانب الزوج النبي الكريم. فما زالت تثبته، وتهون عليه ما يلقي حتى يزول ما به من حزن^(٢).

وأدركت كذلك رقية وأم كلثوم ما يقصده أبيهما. وبذلك طاب لها أن يشاطرا أبويهما ما يلقيان في سبيل الله محتملتين كل صنوف الأذى والاضطهاد.

وخاب ظن حمالة الحطب وزوجها، وظن المشركين من قريش فلم يعنت رسول الله من جراء رد ابنتيه إليه، ولم يصعب عليه طلاقهما فقد نجها الله من محنة العيش مع ابني أبي لهب وامراته حمالة الحطب وعوضها الله خيراً منها، عوضه زوجاً صالحاً كريماً من النفر الثمانية الذين

(١) سورة المسد، الآيات ١ - ٥

(٢) السيرة النبوية (٢٥٧/١)

سبقوا إلى الإسلام عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس أحد العشرة المبشرين بالجنة^(١) أغرق فتيان قريش نسباً.

وتزوج عثمان بن عفان رضي الله عنه من رقية وباتت قريش مسهدة بغیظها مذهولة من أمر هؤلاء الناس القلة الذين يلتفون حول محمد ولا يترددون بافتدائه بالمهج والأرواح.

واشتد أذى قريش بالمسلمين، ونالوا منهم نيلاً فاحشاً، وأذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم حتى لا يفتنوا، وكان عثمان بن عفان أول من هاجر إلى الحبشة، وهاجرت معه زوجته رقية على رغم قرب عهداها بالزواج^(٢).

وترك فتى أمية (عثمان بن عفان) موطن أبائه ومناط عزته، وأحب الناس إليه ليهاجر إلى بلد ناءٍ ليعيش غريباً، ولكن سلواه أن معه ابنة سيد ولد آدم رقية رضي الله عنها، وهي تهون عليه وتقول له: - الله معنا ومع الذين تركناهم برغمننا في جوار البيت العتيق..

ورحبت الحبشة متمثلة بملكها النجاشي - بالمهاجرين الأولين - فأقاموا هناك يتمتعون بحرية العبادة لا ينغص عليهم مقامهم. سوى دسيئة قريش عليهم عند النجاشي وأخبار أهلهم في مكة بما يلاقونه من اضطهاد وعذاب.

ومضت الأيام الطويلة وأسباع المهاجرين مرهفة لتلقي الأنباء عن الرسول وصحبه في حربهم مع الطواغيت من مشركي قريش: وما إن سمعوا بإسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب. وانتقال مرحلة الدعوة

(١) الطبقات لابن سعد (٨ / ٣٦) . هذا والعشرة المبشرون بالجنة هم : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وسعيد بن زيد ، رضي الله عنهم أجمعين .

(٢) السيرة (١ / ٣٤٤)، وتاريخ الطبري (٢ / ٢٣١)

الى مرحلة جديدة^(١) حتى آثر بعضهم العودة إلى حيث الأحبة من الأهل والوطن.

وكان عثمان بن عفان ورقية رضي الله عنهما، ممن عزم على العودة، ولكن ما كادت أقدامهم تطأ أرض الوطن حتى فوجئوا بازدياد الطغيان، وسمعوا بأذانهم أصوات المشركين تهددهم وتعددهم بالويل والهلاك. فدخل بعض المهاجرين القادمين في جوار الوليد بن المغيرة المخزومي، وفي جوار أبي طالب بن عبد المطلب.

وكانت رقية أكثر العائدين حُزناً لأنها فوجئت بوفاة والدتها خديجة رضي الله عنها، ولكن لا بدّ من الصبر على قضاء الله وقدره، ونُعتت رقية بالفتاة المجاهدة الصابرة.

ولم يطل المقام لرقية بمكة فقد هاجر المسلمون إلى المدينة ومعهم رسول الله ﷺ، وانتقلت رقية برفقة زوجها إلى دار الهجرة الجديد حيث وضعت طفلها عبد الله فشعرت رقية براحة عوضتها عذاب الماضي، ولكن لم تدم هذه الفرحة طويلاً فقد مات الطفل الحبيب في السادسة من عمره بنقرة ديك^(٢) وعلى أثر المصاب الأليم مرضت رقية بالحمى فلازمها الزوج الحنون بمرضها، ويقوم على شئونها. وما هي إلا أيام ويسمع عثمان صوت الداعي إلى الجهاد والخروج إلى بدر فهم بالخروج تلبية للنداء العظيم ولكن رسول الله ﷺ أمره بالبقاء إلى جانب زوجته يواسيها ويخدمها.

وطال الصراع وازداد المرض وبقي الزوج الوفي إلى جانبها حتى قضت نحبها راضية مرضية ومضت إلى لقاء ربها مثلاً للزوجة الصابرة المهاجرة، ونموذجاً مُشرقاً للفتاة الطاهرة الودود.

(١) أقصد انتقال مرحلة الدعوة من المرحلة السرية الى المرحلة العلنية.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٢٥١).

فاطمه الزهراء
أم أبيها رضي الله عنها

فاطمة الزهراء أم أبيها ضيق الله عنها

سيدة نساء العالمين في زمانها، رابعة بنات الرسول ﷺ وأُمها أم المؤمنين خديجة بنت خويلد.

لقد شاء الله أن يقترن مولد فاطمة في السنة الخامسة قبل المبعث بقليل بالحادث العظيم الذي ارتضت فيه قريش (محمداً) حكماً لما اشتد الخلاف بينهم حول وضع الحجر الأسود بعد تجديد بناء الكعبة، وكيف استطاع عليه الصلاة والسلام برجاحة عقله أن يحل المشكلة وتغمد سيوف الحرب بين قبائل مكة.

واستبشر رسول الله ﷺ بمولدها، وتوسم فيها البركة واليمن، فسمّاها فاطمة، ولقبها بـ(الزهراء). وكانت تكنى أم أبيها^(١)، وكانت رضي الله عنها شديدة الشبه لأبيها صلى الله عليه وسلم.

وترعرعت فاطمة في بيت نبوي رحيم، يكلؤها بالرعاية والسهر على تربيتها لتأخذ قسطاً وافراً من الأدب والحنان والتوجيه النبوي الرشيد، ومما تتمتع به أمها السيدة خديجة رضي الله عنها من صفات زكية وسجايا حميدة.

(١) أنظر سير أعلام النبلاء (١١٩/٢).

وبذلك نشأت على العفة الكاملة، وعزة النفس، وحب الخير، وحسن الخلق، متخذة أباه رسول الله ﷺ المثل الأعلى لها، والقدوة الحسنة في جميع تصرفاتها.

وما كادت الزهراء تبلغ الخامسة من عمرها، حتى بدأ التحول الكبير في حياة أبيها، بنزول الوحي عليه، وأحست من الوهلة الأولى بأعباء الدعوة، وشاهدت والدتها تقف إلى جانب أبيها وتشاركه في كل ما يواجهه من أحداث عظام وخطوب جسام.

وشاهدت العديد من مكائد الكفار لأبيها العظيم فتمنت لو استطاعت أن تفديه بحياتها وتمنعه من أذى المشركين. ولكن أنى لها ذلك وهي في عمرها الصغير!

وكان من أشد ما قاسته من آلام في بداية الدعوة ذلك الحصار الشديد الذي حُوصِر فيه المسلمون مع بني هاشم في شعب أبي طالب، حتى أثر الحصار والجوع في صحتها فبقيت طوال حياتها تعاني من ضعف البنية.

وما كادت الزهراء الصغيرة تخرج من محنة الحصار المهلك حتى فوجئت ب وفاة أمها خديجة رضي الله عنها، فامتلأت نفسها حزناً وألماً وأسى.

ووجدت نفسها بعد وفاة أمها أمام مسؤوليات كثيرة وضخمة نحو أبيها النبي الكريم وهو يمر بظروف قاسية في سبيل الدعوة إلى الله، وخاصة بعد وفاة عمّه أبي طالب، وزوجته الوفية خديجة رضي الله عنها.

فما كان من فاطمة إلا أن ضاعفت الجهد وتحملت الأحداث في صبر محتسبة الأجر عند الله، ووقفت إلى جانب أبيها لتقدم له العوض عن أمها أغلى الأمهات وأكرم الزوجات ولذلك كانت تكنى بأم أبيها^(١).

(١) الإصابة ، وأسد الغابة (٢٥/٧).

ولما أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة لمست الدور العظيم الذي قام به علي بن أبي طالب بالمخاطرة في نفسه ليفدي رسول الله ﷺ فنام في فراشه ليوهم شباب قريش. ثم تمهل رضي الله عنه ثلاثة أيام في مكة ريثما أدى عن النبي المهاجر الودائع التي كانت عنده للناس^(١).

وبقيت فاطمة وأختها أم كلثوم في مكة إلى أن أرسل النبي ﷺ صحابياً لإحضارهما. وكان ذلك في السنة الثالثة عشرة للبعثة، وقد بلغت فاطمة عامها الثامن عشر. ورأت هناك في المدينة المهاجرين وقد اطمأن بهم المقام، وذهبت عنهم وحشة الاغتراب، وآخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار. واتخذ رسول الله من علي رضي الله عنه أخاً^(٢).

وبعد أن تزوج رسول الله من السيدة عائشة رضي الله عنها تقدّم كبار الصحابة لخطبة الزهراء بعد أن كانوا يحجمون عن ذلك سابقاً لوجودها مع أبيها وخدمتها إياه.

تقدم لخطبة الزهراء أبو بكر وعمر ولكن النبي ﷺ اعتذر في رفق بالغ^(٣).

ثم تقدم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليخطب إلى رسول الله ابنته فاطمة. فقال رضي الله عنه:

- أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ ابنته فاطمة، فقلت: والله مالي من شيء، ثم ذكرت صلته، وعائدته فخطبتها إليه.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١٢٩/٢).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١٥٠/٢)، والاستيعاب (١٠٩٨/٣).

(٣) طبقات ابن سعد (١١/٨).

فقال لي النبي ﷺ:

« وهل عندك شيء؟ »

فقلت: لا يا رسول الله.

فقال صلى الله عليه وسلم: فأين درعك الحظيمة التي أعطيتك يوم كذا وكذا؟

فقلت: هي عندي يا رسول الله.

فقال صلى الله عليه وسلم: فأعطها إياها^(١).

وانطلق علي مسرعاً وجاء بالدرع، فأمره النبي أن يبيعها ليجوز بثمانها العروس^(٢). واشترى الدرع عثمان بن عفان رضي الله عنه بأربعمائة وسبعين درهماً، وسلم علي الثمن لرسول الله ﷺ، فدفعها عليه الصلاة والسلام إلى بلال ليشتري ببعضها طيباً وعطراً، ثم يدفع الباقي إلى أم سلمة رضي الله عنها لتشتري جهاز العروس.

ثم دعا النبي ﷺ صحابته فأشهدهم أنه زوج ابنته فاطمة من علي ابن أبي طالب على أربعمائة مثقال من فضة على السنة القائمة والفريضة الواجبة، وختم خطبة الزواج بمباركة العروسين، والدعاء لهما بالذرية الصالحة، ثم قدم إلى الضيوف من الصحابة الكرام وعاء فيه تمر^(٣).

وفي ليلة زفاف الزهراء إلى فارس الإسلام علي بن أبي طالب أمر رسول الله ﷺ أم سلمة أن تمضي بالعروس إلى دار علي رضي الله عنه والتي جهزها لسكنائها طالباً أن ينتظراه هناك.

(١) طبقات ابن سعد (١٢/٨).

(٢) صحيح البخاري كتاب البيوع ومسند أحمد (١٤٢/١).

(٣) الإصابة (١٥٨/٨).

وبعد صلاة العشاء ذهب إليها رسول الله ﷺ ثم دعا بماء فتوضأ منه، ثم أفرغه عليها وقال:

«اللهم بارك فيهما، وبارك عليهما، وبارك لهما في نسلهما»^(١).

وفرّح المسلمون بزواج الزهراء من الإمام علي رضي الله عنه، وجاء حمزة - عم محمد ﷺ - وعم علي رضي الله عنه - بكبشين فنحرهما وأطعم الناس في المدينة.

ولم يمض عام على الزواج المبارك حتى أقر الله عين الزهراء وعيون من يحبونها فوضعت الحفيد الأول لرسول الله ﷺ (الحسن بن علي) في السنة الثالثة من الهجرة ففرّح به النبي ﷺ فرحاً كبيراً فتلا الأذان في مسمعه، ثم حنكه بنفسه وسماه الحسن. وأماط الأذى عن رأسه وتصدق على الفقراء بزنة شعره فضة.

وما إن بلغ الحسن من العمر عاماً حتى وُلِدَ بعده (الحسين) في شهر شعبان سنة أربع من الهجرة^(٢).

وتفتح قلب النبي ﷺ لسبطيه الغاليين (الحسن والحسين) فقد رأى فيها امتداداً لحياته الخاصة على هذه الأرض، فغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب وحنان.

ولما نزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾^(٣) كان النبي ﷺ عند أم سلمة رضي

(١) طبقات ابن سعد (١٥/٨)، والإصابة (١٥٨/٨).

(٢) لمزيد المعرفة بترجمة حياة الحسن والحسين رضي الله عنهما أنظر ترجمتهما في كتاب المناقب من صحيح البخاري، والفضائل من صحيح مسلم.

(٣) سورة الأحزاب، آية ٢٣/.

الله عنها فدعا علياً وفاطمة والحسين والحسن فغطاهم بكساء ثم قال:
«اللهم هؤلاء أهل بيتي، اللهم فأذهب عنهم الرجس وطهرهم
تطهيراً» قال ذلك ثلاث مرات ثم قال:
«اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل
إبراهيم إنك حميد مجيد»^(١).

وتتابع الثمر المبارك فولدت الزهراء في العام الخامس للهجرة طفلة
أسماها جدها صلى الله عليه وسلم (زينب). وبعد عامين من مولد زينب
وضعت طفلة أخرى اختار لها الرسول ﷺ اسم (أم كلثوم).
وبذلك أثر الله فاطمة الزهراء بالنعمة الكبرى، فحصر في ولدها
ذرية نبيه ﷺ، وحفظ بها أشرف سلالة عرفتها البشرية.

ولقد بلغ من حب رسول الله ﷺ لابنته فاطمة أنه كان إذا قدم
من سفر بدأ بالمسجد فيصلي ركعتين، ثم يأتي فاطمة، ثم يأتي أزواجه.
تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها:

«ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً برسول الله ﷺ من
فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها، فقبلها، ورحب بها، وكذلك
كانت هي تصنع به»^(٢).

ولقد عبر رسول الله ﷺ عن حبه لابنته الكريمة فاطمة حين قال
وهو على المنبر: «إن فاطمة بضعة مني فمن أغضبها فقد أغضبني».

(١) أنظر صحيح مسلم في فضائل الصحابة، باب فضل أهل بيت النبي ﷺ برقم
٢٤٢٤/، والمسند (١٠٧/٤) و(٢٩٢/٦)، والحاكم (١٤٦/٣ و١٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب ما جاء في القيام برقم ٥٢١٧/، والترمذي في
المناقب. باب مناقب فاطمة بنت محمد ﷺ برقم ٣٨٧١/، والحاكم في المستدرک
(١٥٤/٣) وصححه ووافقه الذهبي.

وفي رواية أخرى: «إن فاطمة بضعة مني يُريني ما رابها، ويؤذيني ما اذاها»^(١)

ومع هذا الحب الفياض فقد بينَّ النبي ﷺ لابنته وغيرها أنه لا بد من العمل والتزود بالتقوى. فقد قام يوماً فنادى:

«.. يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا.. يا.. يا فاطمة بنت محمد سlinي ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئاً».

وفي رواية: «.. يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك من الله ضراً ولا نفعاً..»^(٢).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على فاطمة وأنا معه، وقد أخذت من عنقها سلسلة من ذهب، فقالت: هذه أهداها لي أبو الحسن، فقال: «يا فاطمة أيسرك أن يقول الناس: هذه فاطمة بنت محمد وفي يدها سلسلة من نار؟» ثم عزمها (أي عَنَّفها) ولامها لوماً شديداً، ثم خرج ولم يقعد، فعمدت فاطمة إلى السلسلة فباعتها. واشترت بثمانها أمة فاعتقتها، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال:

«الحمد لله الذي نجَّى فاطمة من النار»^(٣).

فهذه هي المنزلة التي وصلت إليها فاطمة رضي الله عنها عند أبيها رسول الله ﷺ لم تمنعه من تعنيفها وتوبيخها، بل وتهديدها بأنه لن يغني

(١) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب فاطمة (٢١٩/٤).

ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل بنت النبي ﷺ برقم ٢٤٤٩/.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الشعراء، باب (وانذر عشيرتك الأقربين (١٦/٦)

ومسلم في الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾ برقم ٢٠٦/.

(٣) أخرجه النسائي في الزينة (١٥٨/٨)، والحاكم (١٥٢/٣ و ١٥٣).

عنها من الله شيئاً. وتهديدها إن هي سرقت لأقام عليها الحد وقطع يدها. كما ورد في حديث المرأة المخزومية التي سرقت واستشفع لها قومها بحبِّه أسامة بن زيد بن حارثة.. فذكر في الحديث:

(وإيم الله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعت يدها)^(١).

بل أكثر من هذا كله، أنه على الرغم من حب النبي ﷺ الشديد لفاطمة فقد كان يؤثر عليها - وهي في شدة العناء وشظف العيش - الفقراء والمحتاجين.

قال علي رضي الله عنه لفاطمة رضي الله عنها: لقد شقوتِ يا فاطمة حتى أسليت صدري، وقد جاء الله بسبي فاذهي فالتمسي واحدة تخدمك.

فقالت: أفعل إن شاء الله ثم أتت النبي ﷺ فلما رآها هش لها وسأل:

ما جاء بك أي بنيتي؟

فقالت: جئت لأسلم عليك. واستحيت أن تسأله، ورجعت فأتياه جميعاً، فذكر له عليّ حالها.

فقال رسول الله ﷺ:

«لا والله، لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم ولكن أبيع وأنفق عليهم بالثمن».

فرجعا إلى منزلها، فأتاها - أي رسول الله ﷺ - وقد دخلا في قטיפتهما، إذا غطيا رؤوسها بدت أقدامها، وإذا غطيا أقدامها انكشفت رؤوسها. فثار اللقاء النبي ﷺ.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع (١٦/٨) ومسلم في الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره برقم ١٦٨٨/.

فقال: مكانكما!... ألا أخبركما بخير ما سألتاني؟ فقالا: بلى.

فقال: «كلمات علمنيهن جبريل، تسبحان في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً، وإذا أويتا إلى فراشكما، تسبحان ثلاثاً وثلاثين، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين، وتكبران ثلاثاً وثلاثين. فهو خير لكما من خادم».

فقال عليّ رضي الله عنه: فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن، فسأله رجل من أصحابه: ولا ليلة صفين؟ فقال: ولا ليلة صفين^(١).

لقد مرت السيدة فاطمة رضي الله عنها بأحداث كثيرة ومتشابكة وقاسية للغاية وذلك منذ نعومة أظفارها حيث شهدت وفاة أمها، ومن ثم أختها رقية، وتلتها في السنة الثامنة للهجرة أختها زينب، وفي السنة التاسعة أختها أم كلثوم.

واحتملت حياة الفقر، وكابدت من ذلك الشيء الكثير.

ولكن الفتاة التي ربها رسول الله ﷺ لم تكن لتستلم للاحزان، أو اليأس، بل كانت مثال الفتاة الصابرة المرابطة المهاجرة.

ولما حج رسول الله ﷺ حجة الوداع، وأرسى قواعد الإسلام، وأكمل الله الدين. مرض رسول الله ﷺ، وما إن سمعت فاطمة بذلك حتى هرعت لتوها لتطمئن عليه وهو عند أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. فلما رآها هشت للقاءها قائلاً: مرحباً يا بنيّتي، ثم قبلها وأجلسها على يمينه - أو عن شماله - ثم سارها فبكت بكاءً شديداً، فلما رأى جزعها سارها الثانية، فضحكت. فقلت لها - أي عائشة - خصك رسول الله

(١) الإصابة (١٥٩/٨). وأصل الحديث في صحيح مسلم وبألفاظ متفاوتة في كتاب الذكر والدعاء، باب التسيب أول النهار وعند النوم برقم ٢٧٢٧/و/٢٧٢٨/.

ﷺ من بين سائر نسائه بالسُّرَّار، ثم أنت تبكين؟ فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما كنت لافشي على رسول الله ﷺ سره.

قالت: فلما توفي رسول الله ﷺ قلت: عزمت عليك بمالي عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ. قالت: أما الآن فنعم.

أما حين سارني في المرة الأولى، فأخبرني أن جبريل كان يعارضه القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضه الآن مرتين، وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك. قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت: فلما رأى جزعي سارني الثانية، فقال: يا فاطمة، أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة؟ وأنك أول أهلي لحوقاً بي؟ فضحكت^(١).

واشتد الوجد على رسول الله ﷺ، واشتد حزن فاطمة وأقامت إلى جانب أبيها تسهر عليه وتخدمه، وهي تتكلف الصبر. ولكن لما رآته قد أثقل وجعل يتغشاه الكرب خنقتها العبرة وقالت: بصوت يفيض حزناً ولوعة:

واكرب أبتاه؟ فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم». فلما مات صلى الله عليه وسلم جعلت تقول:

يا أبتاه أجاب رباً دعاه.

يا أبتاه جنة الفردوس مأواه.

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (١٣٧/٥) ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ برقم ٢٤٥٠/.

يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.

فلما دفن عليه الصلاة والسلام قالت: يا أنس كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟^(١).

وبكت الزهراء أم أبيها، وبكى المسلمون جميعاً نبياً ورسولهم محمداً ﷺ وذكروا قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾^(٣).

ولم تمض على وفاة رسول الله ﷺ حوالي ستة أشهر حتى مرضت الزهراء وهي مستبشرة ببشرى أبيها عليه الصلاة والسلام بأنها أول أهله لحوقاً به، وانتقلت إلى جوار ربها ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى عشرة وهي بنت سبع وعشرين سنة.

فرحم الله الزهراء ریحانة سيد ولد آدم، وزوجة سيد الفرسان، وأم الحسن والحسين أبي الشهداء وأم زينب بطلة كربلاء.

لقد ضربت لنا الزهراء نموذجاً فريداً ومثلاً أعلى في حياتها، فقد كانت مثال الزوجة الصالحة الصابرة على شطف العيش وضنك الحياة، وكانت مثلاً أعلى في حسن علاقتها مع جاراتها وقربياتها، وكانت قدوة في رسالة الأمومة وتقديم التوجيهات حتى كان من ذريتها ما كان.

وها نحن نلحق بسيرة الزهراء العطرة قصيدة طيبة للشاعر الباكستاني محمد إقبال بعنوان (فاطمة الزهراء).

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (١٣٧/٥).

(٢) جزء من آية ١٤٤/ من سورة آل عمران.

(٣) سورة الأنبياء آية ٣٤.

فاطمہ الزہراء

قصيدة

لمفكر باكستان الدكتور

محمد إقبال

فاطمة الزهراء

لمفكر باكستان الدكتور محمد اقبال
وترجمة الاستاذين محمد حسن الاعظمي والصاوي شعلان

في مهد فاطمة فما أعلاها !
من ذا يُداني في الفخار أباهَا؟
هادي الشعوب إذا تروم هُداها
مال في الدنيا. وفي أخراها
وكأنه بعد البلى أحيَاها
مثلَ العرائس في جديد حُلاها
تاجٌ يفوق الشمس عند ضُحاها
ت بصيفلي يحو سطورَ دُجاها
سيفٌ. غدا يمينه تيَّاهَا
ينجيهما في النيرَات سواها
ثرة الوثام والاتحاد ابنَاهَا
يترسمُ الفخر المنير خطَاهَا
أمسى تفرَّقُها يحلُّ عُرَاهَا
ر إمام ألفتها. وحسن عُلَاهَا
أزكى شمائله وما أندَاهَا!

المجدُ يُشرق من ثلاث مطالِع
هي بنت من؟ هي زوج من؟ هي أم من؟
هي ومضة من نور عين المصطفى
هو رحمة للعالمين. وكعبة الآ
من أيقظ الفطرَ النيام بروحه
وأعاد تاريخ الحياة جديدة
ولزوج فاطمة بسورة « هل أتى »
أسدٌ بحسن الله يرمى المشكلا
إيوانه كوخٌ، وكنز ثرائه
في روض فاطمة فما غصنان لم
فأمير قافلة الجهاد. وقطب دا
هي أسوة للأمهات وقُدوة
حسنُ الذي صان الجماعة بعدما
ترك الخلافة ثم أصبح في الديا
وحسينُ في الأبرار. والأحرار، ما

أُمُّ كُلثُومَ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ
حَبِيسَةُ الشَّعْبِ

أُمُّ كُلْثُومَ بْنِ رَسُولِ اللَّهِ حبيلة السَّعْبِ

كانت رضي الله عنها مكتنزة الجسم، جميلة الهيأ، أسيلة الخدين، فمهاها أبوها صلى الله عليه وسلم (أم كلثوم).

ولدت (أم كلثوم) رضي الله عنها بعد أختها (رُقِيَّة) فنشأتا سوياً متلاصقتين متعاطفتين وكأنها توأم.

وما إن بلغت رقية وأم كلثوم سن النضوج حتى خُطبتا معاً إلى وَلَدَيْ (أبي لهب (عتبة)، و(عتيبة)، وأراد الله بهما خيراً فردتا معاً بتحريض من عدو الله أبي لهب قائلاً لولديه: رأسي من رأسيكما حرام إن لم تُطلقا ابنتي محمد.

وهكذا نجت (أم كلثوم) بهذا الفراق من نكد العيش مع حمالة الحطب، كما نجت أختها (رقية) التي ما لبثت أن تزوجت من عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وهاجرت معه إلى الحبشة.

وبقيت أم كلثوم مع أختها الصغرى فاطمة في بيت أبيهما صلى الله عليه وسلم بمكة تشاركان أمهما خديجة أم المؤمنين عبء الحياة، وتُخففان عن أبيهما ما يلقاه من أذى قريش.

وبلغ الجهل ذروته بقريش فقرروا مقاطعة المسلمين وبني هاشم، مقاطعة تُعَدُّ في ذلك الحين أقصى ألوان الحرمان والضيوط الاقتصادية

والاجتماعية، وهناك في الشعب ذاقت أم كلثوم كغيرها من المسلمين ضيق الحصار وشدة آلام الجوع حتى أنهم كانوا يأكلون أوراق الشجر، وأقاموا على ذلك ثلاث سنوات.

وحلت أم كلثوم رضي الله عنها في تلك الآونة أكبر المسؤوليات فأما خديجة رضي الله عنها انهكها الحصار فرقدت في فراشها تعاني المرض الشديد، والصغيرة فاطمة الزهراء بحاجة إلى رعاية وعناية، ولم يبق إلا أم كلثوم تقوم على تريض الأم، وتعني بشأن الصغيرة، وتحفف عن الأب آلامه وأحزانه .

وخرج المسلمون من الحصار وقد زادتهم المحنة أيماناً، وشدت التجربة القاسية من عزيمتهم.

وفي بيت النبوة بمكة كانت خديجة أم المؤمنين تجود بأنفاسها الأخيرة، وبناتها الثلاث (زينب وأم كلثوم، وفاطمة) يحطن بها، والزوج الحبيب صلوات الله عليه إلى جانبها يهون عليها سكرات الموت، ويبشرها بما أعد الله لها من نعيم.

وفي اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من البعثة فاضت الروح الطاهرة إلى بارئها عز وجل، وأضحت (أم كلثوم) المسئولة الأولى عن البيت النبوي الشريف.

ولما أحست قريش بفشل الضغوط السياسية والاقتصادية والاجتماعية استقر رأيها على اغتيال النبي ﷺ ولكن الله أعلم بما دبره الأعداء في سرهم وأمره بالهجرة إلى (يثرب).

وهاجر المسلمون إلى حيث العزة والمنعة، وهاجر النبي ﷺ برفقة صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبقيت أم كلثوم وفاطمة في مكة حرصاً على سلامتهما إلى أن أرسل لها صلى الله عليه وسلم (زيد بن حارثة) ليستحضرهن إلى يثرب.

وخلال عامين في مدينة الرسول ﷺ شهدت (أم كلثوم) عودة أبيها من بدر مكللاً بالنصر، كما شهدت وفاة شقيقتها رقية زوجة عثمان بن عفان متأثرة بمرضها.

ومع بداية العام الثالث للهجرة كانت أم كلثوم تلمح كثرة تردد عثمان إلى أبيها ليلتمس عنده العزاء والعون عن فقيدته الغالية.

وفي ذات يوم دخل ابن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ شاكياً مغضباً من موقف أبي بكر وعثمان إذ عرض عليها ابنته حفصة فلم يجيباه بشيء.

وسمعت (أم كلثوم) أباها عليه الصلاة والسلام يقول لعمر ملاطفاً: «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة»^(١).

وخفق قلب أم كلثوم لأنها أدركت بفطنتها أنها ستكون زوجة لعثمان فما من امرأة خير من بنت عمر رضي الله عنه إلا بنت النبي ﷺ. وبينما هي حاملة تستعيد الذكريات مع رفيقة حياتها (رقية) إذ دعاها رسول الله ﷺ ليطلعها على الخبر.

وتم عقد زواجها من عثمان رضي الله عنه، ومن يومها أطلق على عثمان لقب ذي النورين لأن لم يُعلم أن أحداً أرسل سترأ على ابنتي نبي غيره^(٢).

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب عرض الانسان بنته أو أخته على أهل الخير (١٣٠/٦).

(٢) انظر ترجمة عثمان في الاستيعاب (١٠٧٩/٣) وسبب تسميته بذلك.

وانتقلت (أم كلثوم) إلى بيت زوجها وعاشت معه ست سنوات رأت فيها مجد الإسلام يبلغ أوج انتصاره، وشاهدت أباهما صلى الله عليه وسلم يخرج من غزاة إلى غزاة مؤيداً مظفراً، وزوجها ذو النورين معه صاحباً ومجاهداً بنفسه وماله.

وأدركت رضي الله عنها يوم النصر الأكبر يوم فتح مكة فحن قلبها رضي الله عنها لزيارة قبر أمها إلا أن المنية عاجلتها في شهر شعبان سنة تسع للهجرة فوسدها رسول الله ﷺ إلى جانب ما بقي من رفات رفيقة الصبا أختها (رقية).

فرحم الله أم كلثوم فقد ساهمت في قسط كبير من حمل أعباء الدعوة إلى الله حيث عاصرت أشد فترات الاضطهاد، وأصعب ظروف الدعوة، وأقسى أيام الجهاد.

الرَّسُولُ أَبًا وَجَدًا

الرَّسُولُ أَبًا وَجَدًا
الرَّسُولُ أَبًا مُحِبًّا
الرَّسُولُ أَبًا حَازِمًا

الرَّسُولُ أَبًا وَجَدًا

شاءت إرادة الله أن لا يعيش للنبي ﷺ ولد ذكر، في وقت كان العرب يتعلقون بالبنين ويحرصون على الانجاب، ويباهون بكثرة الولد إذ كانت الكثرة والقوة هما مناط العزة والمتعة في ذلك المجتمع، ولا أدل على ذلك مما فعله عبد المطلب جد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم عندما أدرك أن قريشاً تستضعفه لقلته ولده فما كان منه إلا أن نذر لئن وُلد له عشرة أبناء ثم بلغوا معه بحيث يمنونه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة^(١).

وورد أيضاً أن أكابر القوم ممن كانوا يكيّدون لـ محمد ﷺ ودعوته أمثال العاص ابن وائل، وعقبة بن أبي معيط، وأبي لهب، وأبي جهل، وغيرهم... كانوا يقولون عن النبي ﷺ (ابتُر) يشيرون بذلك إلى موت الذكور من أولاده. حتى أن أحدهم قال: دعوه فإنه سيموت بلا عقب وينتهي أمره^(٢).

(١) النظر سيرة ابن هشام (١/٢٦٤)، وتاريخ الطبري (٢/١٧٤).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣٤).

فلهذه الأخبار وغيرها دلالتها الصريحة على الاعتزاز بكثرة الولد في ذلك المجتمع العربي القديم لدرجة أن الله سبحانه وتعالى أنزل فيهم سورة التكاثر يُعيب فيهم هذا التباهي والتفاخر: ﴿أَلْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾. أجل.. في تلك البيئة المفتونة بالبنين دون البنات كان النبي ﷺ القدوة الصالحة للمؤمنين، والمثل الأعلى للآباء والمربين على مر العصور حيث رأى المسلمون من أفعاله وسمعوا من أحاديثه ما لمس أعظم مشاعر الأبوة فيهم، واستشار فيهم مشاعر الحب والحنان والعطف والرحمة للأبناء الذكور منهم والإناث على حد سواء، دون أن يكون بينهما أي تمييز أو تفريق: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنْ أَخْلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ (١).

وإذا كان على المربين بشكل عام والأبوين بشكل خاص مسؤولية كبرى في تنشئة الأولاد تنشئة سليمة صحيحة على ضوء العقيدة الإسلامية، والمنهج الإسلامي - املأ أن يكونوا أبطال الغد ورجال المستقبل - فما عليهم إلا أن يعرفوا منهج معلم البشرية ومربيها وهو يربي بناته وأحفاده وغيرهم من أبناء الصحابة ويسلكوا الطريق نفسه التي سلكها الرسول صلى الله عليه وسلم والتي ساهمت في بناء أمة عظيمة ومجد تليد لم نفقده إلا عندما فقدنا تلك الأصول.

هذا وسيقتصر حديثنا عن الرسول الأب والجد على النقاط التالية:

الرسول أبا محباً.

الرسول أبا حازماً.

(١) سورة الحجرات، آية ١٣.

الرَّسُولُ أَبًا مُحِبًّا

لقد فطر الله قلب الأبوين على محبة الولد، والرحمة به، والاهتمام بأمره ولولا هذا الحب لما صبر الأبوان على رعاية أولادهما، وتربيتهم والسهر على مصالحهم.

هذا والقلوب المتجردة من حب الأولاد ورحمتهم قلوب شاذة تتصف بالفظاظة والغلظة، وكثيراً ما يحدث لدى أطفال هؤلاء ردود أفعال تؤدي الى انحراف الأولاد وتخبطهم في أحوال الشذوذ ومستنقعات الجهل والشقاء. لأن الطفل منذ ولادته في حاجة إلى من يضمه ويعانقه ويدلله ويلاعبه ويداعبه.

ولا بد من الإشارة إلى أنه لا يجدي الأطفال شيء أن يكون هناك شعور قوي بحبهم كامن في قلوب الآباء والأمهات، بل لا بد من ظهور هذا الحب وتأكيدده في نفوس الأطفال بمختلف الأساليب من حين إلى حين.

ولهذا كله نجد أن الرسول ﷺ كان في حبه لبناته وأحفاده مضمراً للأمثال حيث مارس الرسول الأب معهن فن الأبوة بكل ما في هذه الكلمة من معاني العطف والحنان والرحمة والرفقة والبر والعناية والشفقة والرعاية حتى كان حبه موضع دهشة وعمل تساؤل.

تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: جاء أعرابي إلى

رسول الله ﷺ فقال: إنكم تقبلون الصبيان ولا نقبلهم؟ فقال رسول الله ﷺ:

«أو أملك لك إن نزع الله الرحمة من قلبك؟!»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم»^(٢).

وكان صلى الله عليه وسلم إذا دخلت عليه ابنته فاطمة رضي الله عنها هش لها ويقوم إليها فيقبلها وهو يقول: مرحبا يا بنيتي، ثم يجلسها في مجلسه^(٣).

ولم تكن هذه العاطفة وهذا الفيض من الحب الذي ملأ قلب النبي الأب مقتصرأ على بناته فقط، بل كان يشمل أحفاده صلى الله عليه وسلم، بل وأبناء المسلمين عامة كما سنرى.

وروى البخاري عن أسامة بن زيد بن حارثة قال: كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، وكان يقعد الحسن على فخذه الآخر، ثم يضمهما ويقول: اللهم ارحمهما فإني ارحمهما^(٤).

(١) رواه البخاري في الأدب باب رحمة الولد وتقبيله (٧٥/٧) ومسلم في الفضائل باب رحته صلى الله عليه وسلم بالصبيان والعيال برقم ٢٣١٧/.

(٢) رواه البخاري في الأدب باب رحمة الولد وتقبيله (٧٥/٧) ومسلم في الفضائل باب رحته صلى الله عليه وسلم بالصبيان والعيال برقم ٢٣١٨/.

(٣) رواه البخاري في فضائل اصحاب النبي ﷺ، باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ (٢٠٩/٤).

ورواه مسلم في فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ برقم ٢٤٥٠/.

(٤) رواه البخاري في فضائل اصحاب النبي ﷺ، باب مناقب أسامة بن زيد (٢١٤/٤).

وعن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليها السلام، وعليها قميصان أحمران ويمثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما ووضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (سورة التغابن آية ١٥) نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويمثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما^(١).

وفي البخاري أيضاً عن أبي قتادة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وأمامه بنت أبي العاص على عاتقه فصلى، فإذا ركع وضعهما، وإذا رفع رفعهما^(٢).

وكان صلى الله عليه وسلم يدلح لسانه للحسن بن علي فيرى حمرة لسانه فيهش إليه (أي يسرع إليه) .

وكان عليه أفضل الصلاة والسلام يزور الأنصار فإذا جاء دورهم، جاء صبيان الأنصار يدورون حوله فيدعو لهم، ويمسح رؤوسهم ويسلم عليهم.

وكل ذلك من علامات الحب والشفقة والرحمة التي غمرت قلبه صلى الله عليه وسلم نحو الناس جميعاً لتكون درساً، بل دروساً لكل الآباء والأمهات نحتمها بالحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف الفين، وكان ظئراً^(٣) لابراهيم فأخذ رسول الله ﷺ ابنه ابراهيم فقبله

(١) رواه الترمذي في المناقب، باب مناقب الحسن والحسين برقم ٣٧٧٦ / وأبو داود في الصلاة باب قطع الخطبة لأمر يحدث برقم ١١٠٩ / وإسناده حسن.

(٢) رواه البخاري في الأدب باب رحمة الولد وتقبيله (٧٤/٧).

(٣) الظئر: المرأة التي ترضع ولد غيرها بالاجرة. وزوج المرضعة يسمى ظئراً.

وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان فقال ابن عوف وأنت يا رسول الله! فقال: «يا ابن عوف، إنها رحمة، ثم اتبعها باخرى فقال: «إن العين تدمع، والقلب يخشع، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم محزونون» (١).

وتشاء قدرة الله أن تنكسف الشمس يوم موت إبراهيم، ويحسب المسلمون أنها انكسفت لموته، ويقول الأب الذي فُجع بموت ابنه وفلذة كبده إبراهيم: «كلا.. إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتموها فادعوا الله وصلوا حتى تنجلي» (٢).

وقد أدهش هذا الموقف العظيم أحد الشعراء النصارى واسمه الياس قنصل، ويقال بأنه أسلم فعبر عن ذلك في قصيدة طويلة له ينتصر فيها للرسول ﷺ وقد أعجب هذا الشاعر من صدقه صلى الله عليه وسلم وكيف أنه لم يستثمر حادث الكسوف فيما يستثمره الوصوليون والكذبة فقال:

إني ذكرتُك يا نبي مُلوَّعا	بشدائد الآلام والاحزان
تحنو على إبراهيم يلفظ روحه	وشبابه ما زال في الريعان
فنفيت ما نسب الصحابة للما	وعلى جفونك مذمع الثكلان
هي فرصة لو قالها متنبئ	أغنته عن عمل وعن برهان
إن لم يكن فيما أتيت رسالة	للحق، كان الحق في بطلان

(١) رواه البخاري في المنائز باب قول النبي ﷺ إنا بك محزونون (٨٤/٢) ومسلم في الفضائل، باب رحمة صلى الله عليه وسلم بالصبيان والعيال برقم /٢٣١٥/.

(٢) رواه البخاري في الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس (٢٣/٢) ورواه مسلم في الكسوف باب ذكر النداء بصلاة الكسوف برقم /٩١٥/.

وهكذا كان صلى الله عليه وسلم مثال الأب يوم ولد له إبراهيم
فابتهج واهتز قلبه فرحاً وذبح الذبائح احتفالاً بمولده.
وكان مثال الأب الصبور يوم فارقه إبراهيم فحزن وفاضت عيناه
بالدمع ولم يتكلم إلا بما يرضي الرب تبارك وتعالى.

الرَّسُولُ أَبًا حَازِمًا

لقد سبق أن فصلنا القول على أن قلب النبي ﷺ كان ينطوي على أسمى المشاعر الصادقة من الحب والرحمة والعطف والحنان نحو الأولاد وفلذات الأكباد.

كما كنا قد أوضحنا أيضاً أن الأطفال بحاجة إلى عنصر الحب في التربية كحاجتهم إلى الشمس والغذاء.

وهنا نشير إلى أن كل ما كان يصنعه معلم البشرية ومربيها من الحب والملاطفة.. و.. و.. مع الأطفال، كل ذلك كان في حدود الاعتدال ولم يكن ليخرج عن المألوف، ولم يكن يتعارض مع أسس الإسلام وتبليغ الدعوة، وإقامة المجتمع الإسلامي.. وإلا فمصلحة كل هذا فوق كل الاعتبارات والعواطف.

ومن أجل هذا كله نجد الرسول الأب يقف من ابنته (فاطمة) سيدة نساء أهل الجنة، وأحب الناس إليه - موقف الحزم الصارم حينما يرى في يدها سلسلة من ذهب كان قد أهداها لها أبو الحسن، فيغضب الأب ولم يقعد، ولم يهش لأحب الناس إليه. ولم يقبلها كما كان يصنع. بل قال في حزم بالغ:

«أيسرك أن يقول الناس: ابنة رسول الله وفي يدها سلسلة من نار» ثم خرج عليه أفضل الصلاة والسلام ولم يقعد، فما كان من الحبيبة

ابنة الحبيب إلا أن أرسلت بالسلسلة إلى السوق فباعتها واشترت بثمنها غلاماً فأعتقته.

فلما علم صلى الله عليه وسلم بذلك قال:

« الحمد لله الذي أنجى فاطمة من النار »^(١).

ولما أنزل الله عز وجل قوله: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(٢) قام رسول الله ﷺ واعظاً وفي أول دعوته ليقطع دابر الوساطات والالتباسات فصعد على الصفا ونادى بأعلى صوته ابنته فاطمة، في جملة من نادى من قرابته فقال:

« يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً »^(٣).

وفي حديث المرأة المخزومية التي سرقت في عهد النبي ﷺ نرى الرسول الأب صلى الله عليه وسلم يقف وقفة الحازم الشديد الذي لا يجازي في حدود الله حتى من أقرب المقربين إليه فيعنف حبه أسامة بن زيد لمحاولته الشفاعة للمرأة المخزومية، لأن الشفاعة حينئذ تصرف الحاكم عن وظيفته الأولى، وتفتح الباب لتعطيل الحدود، ويمر وجه النبي ﷺ غضباً لله، ومن ثم يقسم بالله تعالى على أنه سيطبق حد الله

(١) أخرجه النسائي في الزينة، باب الكراهية للنساء في إظهار الحلي والذهب (١٥٨/٨) وأخرجه أيضاً الإمام أحمد في مسنده (٢٧٨/٥)، والحاكم في المستدرک (١٥٢/٣) وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، والحديث عند الجميع عن ثوبان رضي الله عنه.

(٢) سورة الشعراء، آية ٢١٤.

(٣) البخاري في تفسير سورة الشعراء، باب واذنر عشيرتك الأقربين (١٧/٦) ومسلم في الايمان باب قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ برقم ٢٠٨.

حتى في أحب الناس إليه إن ارتكبت ما يستوجب إقامة الحد، وجعل منها مضرباً للأمثال.

تروي عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: أن قريشاً أهتمهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم رسول الله ﷺ، ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله ﷺ فكلم رسول الله ﷺ فقال: أتشفع في حد من حدود الله، ثم قام فخطب فقال:

«يا أيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد. وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(١).

ومن روائع مواقف الرسول الأب الحازمة مع ابنته فاطمة أنها كانت تعيش مع زوجها علي بن أبي طالب، رضي الله عنه حياة شاقة، فجرت بالرحى حتى أثرت في يدها، واستقت بالقرية حتى أثرت في نحرها، وكنت البيت حتى أغبرت ثيابها، وكان زوجها من الفقر بحيث لم يستطع أن يستأجر لها خادماً تعينها بعملها الشاق، ولم يكن يهون عليه أن يراها كادحة مجهدة فكان يساعدها في بعض الأعمال ما أمكن ذلك.

وانتهز علي رضي الله عنه فرصة موالية فقال لها ذات يوم وقد عرف أن أباه النبي ﷺ قد عاد من إحدى غزواته الظافرة بغنائم وسبايا:

لقد شقوت يا فاطمة حتى أسليت صدري، وقد جاء بسبي فاذهبي فاستخدمي^(٢).

(١) البخاري في الحدود، باب إقامة الحدود وعلى الشريف والوضيع (١٦/٨) ومسلم في الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره برقم ١٦٨٨.

(٢) فاستخدمي: أي أطلي خادماً.

فقلت: أفعل إن شاء الله .
فأتى النبي ﷺ فقال:
ما جاء بك أي بنيتي؟ .
قلت: جئت لأسلم عليك .
وأستحييت أن تسأله، ورجعت، فأتياه جميعاً فذكر له عليُّ حالها .
فقال الرسول الأب مجزم بالغ:
« لا والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم، لا أجد ما
أنفق عليهم، ولكن أبيع وأنفق عليهم بالثمن »^(١) .
وعادت سيدة نساء أهل الجنة وابنة رسول الله ﷺ ولم تظفر بشيء
ما عند أبيها . فقد أثر عليها - وهي من أحب الناس إليه، وهي في
شدة العناء وشظف العيش - الفقراء والمحتاجين . فلا نامت أعين
الأباء والمسؤولين الجبناء!!!

(١) انظر البخاري في النفقات، باب عمل المرأة في بيت زوجها، وباب خادم المرأة
(١٩٢/٦) .
ومسلم في الذكر والدعاء، باب التسبيح أول النهار وعند النوم برقم ٢٧٢٨ / وانظر
الإصابة (١٥٩/٨) .

صَحَابِيَّاتٌ فَاضِلَاتٌ
تَخْرُجْنَ مِنْ مَدْرَسَةِ النَّبَوَّةِ

أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ ذَاتُ الرِّطَاقَيْنِ

أم عبد الله القرشية التمية، بنت المسلم الأول بعد رسول الله، شيخ الإسلام أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأُمها قتيلة بنت عبد العزي العامرية.

وأسماء هي والددة الصحابي البطل عبد الله بن الزبير، وأخت أم المؤمنين عائشة وكانت أسن منها ببضع عشرة سنة، وهي آخر المهاجرات وفاة.

أسلمت رضي الله عنها بعد إسلام سبعة عشر إنساناً وبايعت النبي ﷺ وآمنت به إيماناً قوياً، فمن حسن إسلامها أن أمها قتيلة - وكان أبو بكر قد طلقها في الجاهلية - قدمت عليها لزيارتها فأبت أن تدخلها عليها أو تقبل هديتها، ففي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: قَدِمْتُ عَلَيَّ أُمِّي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ قلت: إن أُمِّي قَدِمَتْ وهي راغبة أفأَصِلُ أُمِّي؟ قال: «نعم صِلِي أُمَّكَ»^(١).

(١) أخرجه البخاري في الهبة، باب الهدية للمشركين وقول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ (١٤٢/٣)، ومسلم في الزكاة (١٠٠٣).

وكانت رضي الله عنها تدعى بذات النطاقين لأنها شقت نطاقها إلى قسمين ليسهل عليها حمل وإخفاء ما كانت تنقل إلى الفار من طعام وشراب إلى رسول الله فلما رأى رسول الله ما فعلت بنطاقها لقبها بذات النطاقين^(١).

ولما توجه رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة مهاجراً برفقة أبيها حمل أبو بكر معه جميع ماله - خمسة آلاف أو ستة آلاف، فأتاها جدها أبو قحافة وقد ذهب بصره فقال: إن هذا قد فجعكم بماله ونفسه، فما كان من الفتاة الزكية الشجاعة إلا أن قالت: كلا قد ترك لنا خيراً كثيراً، ثم عمدت إلى أحجار فجعلتهن في كوة البيت وغطت عليها بشوب، ثم أخذت بيده ووضعتها على الثوب وقالت: هذا تركه لنا، فقال: أما إذ ترك لكم هذا فنعم، وبذلك هدأت من روع الشيخ الكبير وأطفأت ثورته، وبعثت الطمأنينة في نفسه^(٢).

وقد تعرضت ذات النطاقين الصغيرة إلى الأذى على يد عدو الله أبي جهل الذي جاء إليها ليستدرجها للبوح بسرها ليعرف مكان أبيها، ولكنها كانت على مستوى المسؤولية على الرغم من حداثة سنّها فكانت تدرك أن أي كلمة تخرج منها قد تحمل أشد الأخطار على رسول الله وأبيها فلاذت بالصمت، ولا تزيد عن القول: لا أدري. فما كان من عدو الله إلا أن لطمها لكمة قاسية خر منها قرطها، ثم تركها وانصرف وهو يتميز غيظاً أمام ذلك الاصرار العنيد^(٣).

(١) حديث تسمية أسماء رضي الله عنها بذات النطاقين أخرجه البخاري في المناقب، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٢٥٨/٤) وابن سعد في الطبقات (٢٥٠/٨).

(٢) انظر: الخبر في السيرة النبوية لابن هشام (٤٨٨/١) ونقله عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٨٨/٢) حيث أشار الشيخ شعيب الأرنؤوط إلى صحة الإسناد هناك.

(٣) انظر سيرة ابن هشام (٤٨٧/١).

وهكذا يفعل الجبناء في كل عصر. عندما يعجزون عن ضرب الرجال وقتلهم يضربون النساء والأطفال.

ولم تمض فترة طويلة حتى لحقت أسماء بموكب الهجرة، وهناك وضعت ابنها عبد الله، وكان أول مولود في الإسلام.

هذا ولقد ضربت ذات النطاقين مثلاً حياً ونموذجاً طيباً في الصبر على شظف العيش والحرمان الشديد، والحرص على طاعة الزوج والتحري في مرضاته فقد جاء في الحديث الصحيح قولها: «تزوجني الزبير وما له شيء غير فرسه فكنت أسوسه وأعلفه، وأدق لناضحه النوى، وأستقي وأعجن، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي وهي على ثلثي فرسخ فجئت يوماً والنوى على رأسي فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر فدعاني فقال: «اخ. ليحملني خلفه فاستحييت وذكرت الزبير وغيرته. قالت: فمضى. فلما أتيت، أخبرت الزبير فقال: والله لحملك النوى كان أشد عليّ من ركوبك معه! قالت: حتى أرسل إليّ أبو بكر بعد بخادم، فكفتني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني»^(١).

وبعد هذا الصبر كله، كانت العاقبة أن انصبت عليها وعلى زوجها النعم ولكنها لم تبطر بالغنى، بل كانت سخية كريمة لا تدخر شيئاً لغد، وكانت إذا مرضت تنتظر حتى تنشط فتعتق كل مملوك لها، وتقول لبناتها ولأهلها: أنفقوا وتصدقوا ولا تنتظروا الفضل^(٢).

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب الغيرة (١٥٦/٦).
ومسلم في السلام، باب جواز ارداف المرأة الأجنبية إذا أعتيت في الطريق برقم
./٢١٨٢/

(٢) انظر الطبقات لابن سعد (٢٥١/٨) وما بعدها).

وكانت رضي الله عنها شجاعة لا تخاف في الله لومة لائم، فقد شاركت يوم اليرموك في القتال وفعلت فعل الأبطال.

ولما كثر اللصوص في المدينة أيام سعيد بن العاصي اتخذت خنجراً كانت تجعله تحت رأسها. وقد قيل لها ما تصنعين بهذا؟ قالت: إن دخل عليّ لص بعجت بطنه^(١).

وأما مضاء العزيمة وعزة النفس عند أسماء رضي الله عنها فنعرفها من خلال كلماتها لابنها عبد الله لما دخل عليها ليستشيرها لما حاصر الحجاج مكة، وكانت أسماء آنذاك عجوزاً مكفوفة قد قاربت المئة. فقال لها عبد الله: يا أماء قد خذلني الناس حتى أهلي وولدي ولم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني من الدنيا ما أردت فما رأيك؟

وأمام هذا الامتحان العسير للأمم سقطت العواطف الجياشة ونجحت العزة والكرامة وهي تحيب:

أنت والله أعلم بنفسك يا بني: إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكك من قتل معك.

.. وقال عبد الله: هذا والله رأيي يا أماء، ولكن أخاف إن قتلني أهل الشام أن يثلوا بي ويصلبوني فأجابته: يا بني إن الشاة لا تتألم بالسليخ بعد الذبح فامض على بصيرتك واستعن بالله.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٥٣/٨) والحاكم في المستدرک (٦٤/٤).

ولما دنت منه لتودعه وتعانقه وقعت يدها على درعه فقالت: ما هذا يا عبد الله صنع من يريد ما تريد!! فنزع درعه وخرج للقتال وظل يقاوم ويكر حتى قتل. فأمر الحجاج بجثته أن تصلب، ثم دخل على أسماء وقال لها: يا أمه، إن أمير المؤمنين وصاني بك فهل لك من حاجة؟ قالت: لست لك بأمر، ولكني أم المصلوب على رأس التينة، وما لي من حاجة، ولكن أحدثك:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يخرج في ثقيف كذاب ومبير، فأما الكذاب فقد رأيناه - تعني المختار - وأما المبير فأنت ».

وفي بعض الروايات أن الحجاج لما دخل على أسماء رضي الله عنها قال لها بتشف: كيف رأيتني صنعت بابتك يا أسماء؟

فقالت يهدوء: أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك^(١).

وتوفيت أسماء رضي الله عنها بمكة بعد مقتل ابنها عبد الله بليال كما ذكر ابن سعد. وكان قتل عبد الله لسبع عشرة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين للهجرة. ولم يسقط لها سن، ولم ينكر لها عقل.

فرحم الله أسماء ذات النطاقين فقد كانت بحق مثلاً يحتذى به، ونموذجاً طيباً يضرب فيه المثل.

(١) أنظر الطبقات لابن سعد (٢٥٤/٨) والمستدرک (٦٥/٤) وسير أعلام النبلاء الذهبي (٢٩٣/٢). وما بعد) وتاريخ الإسلام الذهبي أيضاً (١٣٦/٣).

فَاطِمَةُ بِنْتُ الْخَطَّابِ

هي فاطمة بنت الخطاب بن نفيل، بن عبد العزي، بن رباح، بن عبدالله، بن قرط، بن عدي، بن كعب، من أفاضل النساء جابهت وصمدت في وجه أصلب القرشين عوداً وأشدهم بأساً، فلينت عريكته، وأسست قيادة.

نشأت رضي الله عنها في بيت الخطاب بن نفيل، البيت المخزومي القرشي الذي يمتاز بالشرف والرفعة والاعتداد بالحسب والنسب، ويتميز أبناؤه بالفضائل العربية إلى جانب القوة في تكوين الشخصية.

ولما اكتمل شبابها وبرزت أنوثتها خطبها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل واقترن بها وأقاما معاً على أحسن ما تكون العلاقات بين الزوج وزوجته من الوفاق والتفاهم والاحترام المتبادل.

أسلم سعيد زوج فاطمة على يد الصحابي الجليل (خباب بن الأرت) رضي الله عنه وأخذه إلى رسول الله ﷺ ليسلم بين يديه ويشهد لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالرسالة.

ثم عاد سعيد إلى بيته ليحدث زوجته بما جرى معه مع خباب وبلقائه مع رسول الله ﷺ، وأخذ يشرح لها ما عرفه عن الدين الذي اعتنقه، وهي تصغي إليه بكل جوارحها وعواطفها وعقلها، وما كاد

الزوج يحتم حديثه حتى شهدت فاطمة رضي الله عنها بالشهادتين، وأصبحت في عداد الأوائل من المسلمات.

وأصبح خباب بن الأرت رضي الله عنه يأتيهم دوماً في منزلهم ويزودهم ب زاد القرآن، ويفقههم في دين الله، وينمي في قلوبهم غرسة الإيمان.

هذا والكل يحرصون على أن لا يشيع خبر إسلامهم خوفاً من بطش عمر الذي كان من أشد الناس انفعالاً وأكثرهم حماساً للقضاء على الدعوة الإسلامية في مهدها.

وفي أحد الأيام كان عمر بن الخطاب يمضي في طريقه متوجهاً نحو دار الأرقم بن أبي الأرقم ليفتك برسول الله ﷺ، وقد بدا الغضب في عينيه إذ لقيه رجل من بني زهرة فسأله أين تريد يا عمر؟ وما لي أراك غاضباً هائجاً متوشحاً سيفك؟ فقال له عمر: أريد أن أقتل محمداً هذا الصابيء الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها. فقال له الرجل: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر. أترى عبد مناف تاركك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً!! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلمنا وتابعا محمداً على دينه.

واشتد الغضب عند عمر وهو يقول: أو قد فعلا ذلك؟ لئن فعلا لاقتلنها شر قتلة.

ورجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وقد بلغت ثورته حداً لم يعد يتالك فيه نفسه، وما إن دنا من باب منزل أخته فاطمة وهم بالدخول حتى سمع أصواتاً تردد كلاماً لم يتبينه، فأصغى قليلاً ثم دخل وصوته يدوي بالنداء على أخته.

وكان خباب بن الأثرث في ذلك الحين عندهما يقرأ على مسمع سعيد وفاطمة بعض آيات من القرآن الكريم. فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في بعض البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة فجعلتها تحت يدها لتواربها عن ناظري عمر.

ولما دخل عمر قال: ما هذه الهيئمة التي سمعت؟ فقالا له: ما سمعت شيئاً. فقال عمر: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتا محمداً على دينه.

ثم هجم على ختنه سعيد بن زيد وبطش به، فقامت إليه فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها وتقف حائلاً بينه وبين عمر الثائر. فما كان من عمر إلا أن ضربها فشجها.

فلما فعل عمر ذلك قالت له أخته وختنه: نعم لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك.

ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى، وقال لأخته: اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد. فقالت له أخته: إنا نخشاك عليها. فقال عمر: لا تخافي وحلف لها بألته ليردنها إذا قرأها إليها. فلما قال ذلك طمعت في إسلامه وقالت له: يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لا يمسه إلا الطاهر. فقام عمر فاغتسل فاعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها، فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿لِتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ فقال: ما أطيب هذا الكلام وأحسنه وأكرمه!!

فلما سمع ذلك خباب بن الأثرث خرج من مخبئه الذي توارى فيه ثم قال لعمر: يا عمر إني لأرجو الله أن يكون قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس وهو يقول:

«اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، فإله

الله يا عمر. فقال له عند ذلك عمر فدلني يا خباب على محمد حتى أتيه فاسلم».

وفي رواية أخرى: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب، قال وكان أحبهما إليه عمر»^(١).

وخرج عمر بن الخطاب من بيت أخته فاطمة متوجهاً إلى الدار التي دله عليها خباب بن الأرت حيث يوجد رسول الله ﷺ وأصحابه ولكن لا ليفتك برسول الله ليتخلص من دعوة الإسلام، بل لينضم إلى تلك العصبة المؤمنة، ويكون إسلامه عزاً وفتحاً كما قال عنه رسول الله ﷺ.

وهكذا سجل التاريخ لفاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها ذلك الموقف الإيماني العظيم، وتصديها لعمر بن الخطاب، وما صنعه موقفها من تلاشي الكبرياء والجبروت من نفسه.

ثم عاشت فاطمة بقية حياتها في ظل الإسلام تنهل من نبعه الصافي وتنقل ما سمعته من حديث رسول الله ﷺ.

ويكفي فاطمة فخراً، ويكفيها من حياتها درساً أن يذكرها لنا التاريخ من خلال قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنها وأرضاها.

(١) هذه الرواية أخرجها الترمذي في المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، ورواه أيضاً أحمد في المسند وابن سعد في الطبقات وصححه ابن حبان.

أما الرواية الأولى فأنظرها في السيرة النبوية لابن هشام (٣٧٠/١) عند الحديث عن إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وانظر هناك أيضاً في الهامش ما قاله السهيلي عند الكلام على تطهير عمر ليمس القرآن. وقول أخته له لا يمسه إلا المطهرون ص ٣٦٩.

أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب القائلة السليمة

هي أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، أول من أسلم من الأطفال، وصاحب المنزلة الرفيعة والمكانة العالية عند رسول الله ﷺ. ورابع الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم جميعاً، وجدها سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم، وأمها سيدة نساء أهل الجنة، فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وأخوها سيدا شباب أهل الجنة وريحاننا رسول الله ﷺ.

في هذه البيئة الكريمة ولدت أم كلثوم في عهد النبي ﷺ، ونشأت، وترعرعت، وتربت، فكانت مثال الفتاة المسلمة الناشئة على الدين والفضيلة والحياء.

خطبها إلى أبيها الفاروق عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين رضي الله عنه.

ولكن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه اعتذر بصغر أم كلثوم، فقال له عمر رضي الله عنه: زوجنيها يا أبا الحسن فإني أرصد كرامتها ما لا يرصده أحد^(١) فرضي وزوجه إياها، فدخل بها في ذي

(١) الإصابة لابن حجر العسقلاني (٢٧٥/٨).

القمعة سنة ١٧ هـ، وظلت عنده حتى قتل رضي الله عنه، وولدت له زيد بن عمر الأكبر، ورقية بنت عمر .

من مآثر أم كلثوم زوجة أمير المؤمنين، أنه خرج ليلة كعادته يتفقد الناس - وهذه حال كل مسئول عن الرعية في ظل دولة الاسلام - فمر برجة من رحاب المدينة ، فإذا به يسمع أنين امرأة ينبعث من بيت شعر ، على باب رجل قاعد ، فسلم عليه عمر وسأله عن نفسه ، فقال له الرجل : بأنه من البادية جاء يصيب من فضل أمير المؤمنين فسأله عمر عن المرأة التي سمع أنينها ، فقال الرجل وهو لا يدري أن محدثه هو أمير المؤمنين : انطلق رحمك الله لحاجتك ، ولا تسأل عما لا يعنيك .

فعاد عمر يلح بالسؤال عارضاً عليه المساعدة إن أمكن، فأجابه الرجل: انها امرأتي قد حضرتها الولادة وليس عندها أحد. ترك عمر الرجل وعاد إلى منزله مسرعاً فدخل على امرأته أم كلثوم وقال لها:

هل لك في أجر ساقه الله إليك؟

ف قالت له - وقد غمرت السعادة بهذه البشرى السارة التي وهبت نفسها من أجلها - ما هو ذلك الخير والأجر يا عمر؟

فأخبرها الخبر، فقامت مسرعة، وأخذت معها ما تحتاجه الولادة، وما يحتاجه المولود، وحل أمير المؤمنين القدر بما فيها من السمن والحبوب، وانطلق وامرأته حتى انتهيا إلى بيت الشعر .

ودخلت أم كلثوم إلى المرأة تساعدتها وتقوم بمهمة القابلة، وجلس أمير المؤمنين مع الرجل خارج البيت يطبخ ما جاء به، وعندما وضعت المرأة مولودها، قالت أم كلثوم من داخل بيت الشعر:

بشر يا أمير المؤمنين صاحبك بأن الله رزقه غلاماً، وذهل الأعرابي

أن يكون أمير المؤمنين صاحبه الذي يطبخ وينفخ .
وذهلت المرأة الإعرابية أن تكون زوجة أمير المؤمنين قابلتها في بيت
الشُّعر وينذهل أتباع كل أصحاب الحضارات المزيفة وهم يعطلعون على تلك
الحقائق عن حضارة الإسلام التي تجعل من رئيس الدولة وزوجه يخدمان رجلاً
وامراته من أهل البادية؟؟ .
وبعد فترة من الزمن اغتالت اليد الآثمة الحاكمة على الإسلام
الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتأيت أم كلثوم .
ولما توفيت رضي الله عنها، صلى ابن عمر عليها وابنها زيد فجعله مما
يليه وكبر أربعاً .
فارض اللهم عن أم كلثوم القابلة المسلمة .

صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلِبِ عَمَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

هي المؤمنة المبايعة، والمجاهدة الصابرة، والشاعرة الفاضلة، صفية بنت عبد المطلب بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي ابن كلاب، القرشية الهاشمية، عمة رسول الله ﷺ، وشقيقة أسد الله حمزة بن عبد المطلب، وأم الصحابي الجليل الزبير بن العوام.

نشأت صفية رضي الله عنها في بيت (عبد المطلب) سيد قريش، وصاحب السؤدد والمجد والشرف، وهو الذي أوكلت إليه سقاية الحاج.

تأثرت صفية رضي الله عنها بكل تلك العوامل فتكونت شخصيتها القوية. فكانت فصيحة اللسان بليغة، قارئة عالمة، وشجاعة فارسة، وكانت رضي الله عنها من الأوائل الذين آمنوا بآبئ أخيها الصادق الأمين محمد عليه الصلاة والسلام، فحسن إسلامها، وهاجرت مع ولدها الزبير بن العوام رضي الله عنه إلى المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى.

شهدت رضي الله عنها إنتشار الإسلام، وشاركت في نشره فقد كانت نزعة الجهاد متأصلة في نفسها، ولذلك ما إن أتاحت لها الفرصة يوم أحد حتى كانت في طليعة النسوة اللاتي خرجن لخدمة المجاهدين وبث روح الحمية والاستبسال في نفوسهم، ومداواة الجرحى منهم.

ولما شاءت إرادة الله بانهزام المسلمين بسبب مخالفة الرماة أوامر

الرسول القائد عليه الصلاة والسلام انفض كثير من الناس عن رسول الله ، فقامت صفية الشجاعة وبيدها رمح تضرب به وجوه الناس الفارين من المعركة وتقول لهم :

- انهزمت عن رسول الله ﷺ؟! -

ولما علمت صفية باستشهاد أخيها حمزة بن عبد المطلب أسد الله رضي الله عنه ، اغتيالاً ، وبلغها خبر التمثيل به ، ضربت لنا صفية نموذجاً رائعاً في الصبر والإحتساب والثبات . فتروي لنا هي بنفسها ذلك المشهد الرائع فتقول :

« يوم مقتل حمزة لقيني الزبير وقال لي: أي أُمي إن رسول الله ﷺ يأمرُك أن ترجعي . »

فقلت: ولم؟ فقد بلغني أنه مثل بأخي وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك لاصبرن ولاحتسبن إن شاء الله .

فلما أخبر الزبير رضي الله عنه رسول الله ﷺ بما قلت ، قال: « خل سبيلها .. »

فأتيت حمزة وقلت لما رأيته: (إنا لله وإنا إليه راجعون) واستغفرت له .. ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه^(١).

وموقف آخر لصفية المجاهدة الفارسة يوم الخندق عندما حاول يهودي خبيث التهجم على معسكر النساء ، حيث كانت نسوة المسلمين وصبيانهم في حصن ثبت عليه حسان بن ثابت رضي الله عنه ، فلما مرَّ اليهودي جعل يطوف بالحصن . والمسلمون في نخور عدوهم .

(١) انظر الإصابة لابن حجر (١٢٩/٨) والبر النوبة لابن هشام (١٠٣/٣).

فقامت صفية رضي الله عنها وقالت لحسان: إن هذا لا آمنه أن
يَدُل على عورتنا فقم فاقتله.

فقال حسان: يفر الله لك. لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا.

وما إن سمعت صفية كلام حسان حتى نهضت مذعورة، ودبت الحماسة
في نفسها، فاحتجزت وأخذت عموداً غليظاً، ونزلت من الحصن، وتحينت
فرصة غفلة اليهودي وضربته على أم رأسه ضربات متلاحقة حتى قتله.
فكانت كما تقول: (أول امرأة قتلت رجلاً). ورجعت إلى الحصن والفرحة
في عينيها إذ استطاعت أن تقضي على عدو الله وتحفظ بذلك عورات
النساء المسلمات من الفضيحة، ثم قالت لحسان: أنزل فاسلبه فلم يمنعني
سلبه إلا أنه رجل.

فقال حسان: ما لي بسلبه حاجة يا ابنة عبد المطلب^(١).

وهكذا انتصر المسلمون في هذه الغزوة بتلك النفوس المؤمنة
الشجاعة التي لا يعرف المستحيل إليها سبيلاً.

ويوم خيبر انطلقت صفية رضي الله عنها مع المسلمات المؤمنات
تشددن أزر أبطال الإسلام، واتخذن في أرض المعركة خيمة يداوين بها
جراحات المصابين.

وسرَّ رسول الله ﷺ من مواقفهن فجعل لهن نصيباً مما أفاء الله
عليه.

وكان صلوات الله عليه وسلامه يحب عمته صفية رضي الله عنها
ويكرمها ويجزل لها العطاء.

(١) حديث قتل صفية رضي الله عنها لليهودي أخرجه الحاكم (٥١/٤) وصححه، والهيثمي
في مجمع الزوائد (١٣٤/٦) وقال: رواه الطبراني ورجاله إلى عروة رجال الصحيح
ولكنه مرسل.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١) قام النبي ﷺ

فقال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم»^(٢) كل ذلك ليقطع دابر الواسطات والالتباسات حتى من أحب الناس إليه وأقربهم منه نسباً.

وكانت صفية تحب الرسول الله ﷺ منذ صغره، وتحن عليه، وأعجبت به شاباً، وصدقته نبياً، وساندته غازياً، وحزنت لوفاته صلى الله عليه وسلم فرثته بشعرها المتميز:

عيني جودي بدمعة وسهود	واندي خير هالك مفقود
واندي المصطفى بجزن شديد	خالط القلب فهو كالمعمود
كدت أقضي الحياة لما أتاه	قدرٌ خُطٌّ في كتابٍ مجيد
فلقد كان بالعباد رؤوفاً	ولهم رحمة وخير رشيد
رضي الله عنه حياً وميتاً	وجزاه الجنان يوم الخلود

وعاشت صفية رضي الله عنها بعد رسول الله ﷺ معززة مكرمة يعرف الجميع قدرها ومكانتها. حتى توفيت في خلافة عمر بن الخطاب وقد بلغت من العمر نيفاً وسبعين عاماً.

فرحم الله صفية فقد كانت منارة عالية في التاريخ الإسلامي، وسيرة حسنة للتضحية والجهاد في سبيل نصره دين الله.

(١) سورة الشعراء . آية ١٢٤ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان باب قوله: (وانذر عشيرتك الأقربين برقم/٢٠٥/ وأحد في المسند (١٨٧/٦) . والنسائي (٢٥٠/٦) والترمذي برقم /٢٣١٠/ و/٢١٨٤/ .

سُمَيَّةُ بِنْتُ خَيْطٍ أَوَّلُ شَرِيفَةٍ فِي إِسْلَامٍ

هي سمية بنت خياط، مولاة أبي حذيفة بن المغيرة. تزوجها ياسر الذي قدم إلى مكة غريباً فاستوطنها، ولم تكن له قبيلة تدافع عنه وتؤويه، وتمنع عنه المظالم، وكان بقاءه وحيداً أمر مستبعد في ظل نظام عشائري تسيطر عليه الجاهلية.

وهكذا وجد ياسر نفسه يلجأ إلى حمى بني مخزوم، ويعيش في ظل أبي حذيفة الذي روجه من أمة له تدعى (سمية) صاحبة هذه الترجمة فعاش معها، واستأنس بها، ولم يمض وقت طويل على زواجهما حتى أنجبت له عماراً، وعبيد الله.

وما كاد عمار يصبح شاباً مكتمل الرجولة حتى سمع بالدين الجديد الذي يدعو إليه محمد بن عبد الله ﷺ، وفكر عمار بن ياسر فيمن فكر من أهل مكة إلى أن ساقه تفكيره الجاد وسلامه فطرته إلى اعتناق دين الإسلام.

وعاد عمار إلى أبويه وهو يشعر بغبطة الإيمان التي استقرت في نفسه، فطفق يحدث والديه عمّاً جرى معه، وينقل إليهما حديثه مع الرسول ﷺ، ويعرض عليهما الدخول في هذه الدعوة الجديدة.

واستجاب ياسر وسمية للدعوة المباركة فأعلنا إسلامهما، وبذلك

كانت سمية سابعة سبعة في الإسلام.
ومن هنا يبدأ المنعطف التاريخي الكبير لسمية مع بداية الدعوة
الإسلامية، ومنذ فجر لحظاتها الأولى.

وعلمت بنو مخزوم بذلك، إذ لم ينكر عمار ولا أهله ما هم عليه من
الإسلام، بل أعلنوا ذلك في قوة لم ير الكافرون فيها إلا عناداً وتحدياً.
وانقض بنو مخزوم على آل ياسر يذيقونهم أشد أنواع العذاب
ليفتنوه عن دينهم، ويتفنون بالتنكيل بهم فيخرجونهم إلى الصحراء
عندما تشتد الظهيرة وتلتهب الرمضاء، فيطرحون سمية أرضاً ويهيلون
عليها الرمال الحارة، ويضعون على صدرها الاحجار الثقال، ولم يسمع
لها أنة أو شكوى فما تريد أن تقول: أحد، أحد، تردها كما ردها
ياسر وعمار وبلال.

ويرُّ الرسول ﷺ بالإسرة المسلمة وهي تُسام العذاب الذي لا يطاق،
فيرفع بصره الى السماء وينادي:

« صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة »^(١).

وتسمع سمية مقالة رسول الله ﷺ فتردد وهي ثابتة شاحخة في عزة
المؤمنة وكبرياتها: أشهد أنك رسول الله وأشهد أن وعدك حق.

وهكذا فقد ذاقت سمية طعم الإيمان وحلاوته، فاستهانت بالموت في
سبيل عقيدتها، ووصلت القلب الكبير بالله عز وجل فهان عليها كل ما
تلاقيه على أيدي الطغاة الظالمين الذين لم يستطيعوا أن ينالوا من إيمانها
ولا من عقيدتها قيد أنملة.

(١) انظر المستدرک للحاکم في معرفة الصحابة (٣/٣٨٣).

وقضى ياسر نجبه على مرأى منها ومسمع، وهي توطن النفس على
الللحاق به لتفوز بموعود رسول الله ﷺ.

ولما يؤس الطغاة من سماع كلمة الكفر ترددها شفتها أنقض عدو الله
(أبو جهل) على سمية ليطعننها بحربة كانت في يده ففاضت روحها إلى
بارئها مؤمنة طاهرة فكانت أول شهيدة في الإسلام. بعد أن ضربت لنا
نموذجاً طيباً كريماً في البطولة والإيمان حيث ضحت بكل ما تملك،
واستهانت بالموت في سبيل ذلك، فبذلت روحها رخيصة إرضاء لربها،
«والجود بالنفس أقصى غاية الجود».

أَسْمَاءُ بِنْتُ يُزَيْدِ بْنِ السَّكَنِ خَطِيبَةُ النِّسَاءِ

هي أسماء بنت يزيد ، بن السكن ، بن رافع ، بن امرئ القيس ، بن عبد الأشهل ، بن الحارث ، الأنصارية الأوسية الأشهلية .

محدثة فاضلة ، ومجاهدة جلييلة من ذوات العقل والدين والخطابة حتى لقبوها بخطيبة النساء .

وعلى الرغم مما امتازت به أسماء رضي الله عنها من رهافة الحس ونبل المشاعر ورق العاطفة فقد كانت إلى جانب كل هذا كغيرها من فتيات الإسلام اللواتي تخرجن من مدرسة النبوة - لا تعرف الخضوع في القول ، ولا الهبوط في المستوى ، ولا تقبل الضيم والذل ، بل هي شجاعة .. ثابتة .. مجاهدة ، قدّمت لبنات جنسها نماذج رائعة في شتى الميادين .

وفدت رضي الله عنها على رسول الله صلوات الله عليه وسلامه في السنة لأولى للهجرة ، وبايعته بيعة الإسلام ، وكان النبي ﷺ يبايع النساء بالآية الواردة في سورة الممتحنة وهي قوله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ

الْمُؤْمِنَاتُ يَبَيعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِفْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعُهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٢ ﴾ (١)

(١) سورة الممتحنة آية ١٢ .

وكانت مبايعة أسماء بنت يزيد رضي الله عنها - في صدق وإخلاص، ولا أدل على ذلك ما روته كتب السيرة من أن أسماء كانت تضع عند المبايعة في يديها سوارين كبيرين من ذهب، فقال لها النبي ﷺ: «ألقي السوارين يا أسماء، أما تخافين أن يسورك الله بأساور من نار؟».

فما كان منها إلا أن سارعت وبدون أي تردد أو جدال لتنفيذ أوامر الرسول ﷺ فنزعتهما وألقتهما أمامه^(١).

وأخذت أسماء بعد ذلك تسمع حديث الرسول الشريف، وتسأله عن دقائق الأشياء والأمور لتتفقه في أمور الدين، وهي التي سألته عن طريق تطهر المرأة من الحيض، وكانت شخصيتها قوية لا تستحي من الحق، وبذلك يقول عنها ابن عبد البر: (كانت من ذوات العقل والدين)^(٢).

وكانت رضي الله عنها تنوب عن نساء المسلمين في مخاطبة الرسول ﷺ فيما يتعلقن بهن، وقد أتته ذات مرة فقالت له:

يا رسول الله إني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين، كلهن يقلن بقولي، وهن على مثل رأيي.. إن الله تعالى بعثك إلى الرجال والنساء فأمننا بك واتبعناك، ونحن معاشر النساء مقصورات مخدرات، قواعد بيوت، ومواضع شهوات الرجال، وحاملات أولادهم، وإن الرجال فضلوا بالجمعات وشهود الجنائز والجهاد، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم، وربينا أولادهم، أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله؟؟؟.

(١) حلية الأولياء للأصبهاني (٧٦/٢).

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر، على هامش الإصابة (٢٢٣/٤).

فالتفت رسول الله ﷺ إلى أصحابه فقال:
« هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه؟ »
فقالوا بلى يا رسول الله .

فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: « انصرفي يا أَسْمَاءُ ، وأعلمي
من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها^(١) وطلبها
لمرضاتها، واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت للرجال » .

فانصرفت أَسْمَاءُ وهي تهلل وتكبر استبشاراً بما قال رسول الله ﷺ^(٢) .
وكانت أَسْمَاءُ تطوي في صدرها التطلع إلى المشاركة في الجهاد، ولكن
الظروف حينئذ لم تكن تتطلب ذلك .

وما إن أقبلت السنة الثالثة عشرة للهجرة بعد وفاة النبي ﷺ حتى كانت
معركة اليرموك العصيبة الشديدة .

وفي هذه المعركة اشتركت المرأة المسلمة . بنصيب وافر من الجهاد كما
يذكر الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية وهو يتحدث عن المجاهدين
المؤمنين الأبطال: (فقاتلوا قتالاً شديداً حتى قاتلت النساء من وراءهم
أشد القتال) .

وتارة يقول: (واستقبل النساء من انهزم من سرعان الناس يضربنهم
بالخشب وبالحجارة ، وجعلت خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها تقول:

يا هارباً من نسوة تقيات فعن قليل ما ترى سيات
ولا حصيات ولا رضيات

(١) أي حسن المصاحبة في الحياة الزوجية والمعاشرة .
(٢) انظر الاستيعاب لابن عبد البر على هامش الاصابة (٢٢٣/٤) .

وتارة يقول: (وقد قاتل نساء المسلمين في هذا اليوم، وقتلن خلقاً كثيراً من الروم، ولكن يضرين من انهزم من المسلمين حتى يرجع إلى القتال)^(١)

وفي هذه المعركة العظيمة كانت أسماء بنت يزيد مع الجيش الإسلامي مع أخواتها من المؤمنات خلف المجاهدين تبذل جهدها في مناوله السلاح وسقي الماء وتضميد الجراح، والشد من عزائم الأبطال المسلمين.

ولكن عندما تأزمت المعركة، وحى الوطيس، واحمرت الحدق، حينئذ نسيت أسماء رضي الله عنها أنها أثنى، ولم تذكر إلا أنها مسلمة مؤمنة تستطيع أن تجاهد بما في وسعها وطاقاتها، ولم تجد أمامها إلا عمود خيمة فحملته وانغمرت في الصفوف، وأخذت تضرب به أعداء الله ذات اليمين وذات الشمال حتى قتلت به تسعة من الروم، كما يذكر الإمام ابن حجر عنها: (هي أسماء بنت يزيد بن السكن، شهدت اليرموك، وقتلت يومئذ تسعة من الروم بعمود فسطاطها وعاشت بعد ذلك دهرًا)^(٢).

وخرجت أسماء من المعركة وقد اثقلت الجراح كاهلها، وشاء الله لها أن تظل على قيد الحياة بعد ذلك سبعة عشر عاماً حيث أنها لم تمت إلا في حدود السنة الثلاثين من الهجرة، وبعد أن قدمت للأمة كل خير.

فرحم الله أسماء بنت يزيد بن السكن، وأكرم مثواها بما روت لنا من أحاديث، وبما بذلت، وعملت لتكون درساً لغيرها في تقديم ما بوسعها وطاقاتها في سبيل نصره الحق، ورفع راية الإسلام خفاقة حتى يكون الدين كله لله.

(١) لمزيد من الأقوال في مواقف النساء المؤمنات المجاهدات في معركة اليرموك راجع أقوال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية من ص ٥ حتى ١٤ من الجزء السابع.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٤/٢٢٩).

أُمُّ سَلِيمٍ بَنَتْ مَلَحَانَ المُرْمَنَةَ الرَّاعِيَةَ

هي الرميماء أم سليم ، بنت ملحان ، بن خالد ، بن زيد ، بن حرام ،
بن جندب ، بن عامر ، بن غنم ، بن عدي ، بن النجار ، الأنصارية
الحزرجية .

كانت ذات أنوثة وجمال تزينها رزانة وحصافة، وسداد رأي، وتتحلّى
بذكاء نادر، وخلق كريم. حتى غدت حديث (طيبة) يشار لها بالبنان،
ويثنى عليها كل لسان.

ولهذه الصفات العظيمة سارع ابن عمها مالك بن النضر فتزوجها
فولدت له أنساً.

وما إن بزغ نور النبوة، وانطلقت الدعوة إلى التوحيد حتى تسارع
أهل العقل الراجح والفطرة السليمة إلى الدخول في الإسلام،
وكانت أم سليم مع السابقين إلى الإسلام من الأنصار، ولم تبال بما يمكن
أن تلاقيه من المجتمع الجاهلي الوثني الذي انسلخت منه دون تردد .

وكان من أوائل من وقف في وجهها زوجها مالك الذي غضب وثار
عندما رجع من غيبته وعلم بإسلامها، فقال لها بغضب بالغ: أصبوت؟
فقال بيقين وثبات: ما صبوت، ولكني آمنت .

وجعلت تلقن أنساً: قل: لا إله إلا الله قل: أشهد أن محمداً رسول
الله ففعل، فيقول لها أبوه: لا تفسدي عليّ ابني فتقول: إني لا أفسده بل
أعلمه وأهذبه .

وتحركت لدى مالك بن النضر مشاعر الاعتزاز بالإثم أمام مواقف زوجته الصلبة، وصمودها على العقيدة الجديدة فلم يجد بداً من إخبارها بأنه سيخرج من البيت هائماً على وجهه، وأنه لن يعود إليه حتى تعود عن دينها.

ولما سمع مالك زوجته تردد بعزيمة أقوى من الصخر:

اشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

خرج من البيت غاضباً فلقى عدو له فقتله.

ولما علمت أم سليم، بمقتل زوجها احتسبت وقالت: لا جرم، لا أفطم أنساً حتى يدع الثدي، ولا أتزوج حتى يأمرني أنس.

وذهبت أم أنس إلى الحبيب العظيم صلوات الله عليه وسلامه على استحياء، وعرضت عليه أن يكون فلذة كبدها أنس خادماً عند معلم البشرية كل خير، فرحب رسول الله ﷺ وأقر عينها بذلك.

ومضى الناس يتحدثون عن أنس بن مالك، وأمه بإعجاب وتقدير، ويسمع أبو طلحة بالخبر فيهبو قلبه بالحب والإعجاب، فيتقدم للزواج من أم سليم، وعرض عليها مهراً غالياً. إلا أن المفاجأة اذهلته وعقلت لسانه. عندما رفضت أم سليم كل ذلك بعزة وكبرياء وهي تقول:

إنه لا ينبغي أن أتزوج مشركاً. أما تعلم يا أبا طلحة أن آلهتكم ينحتها عبد آل فلان. وأنكم لو أشعلتم فيها ناراً لاحتترقت^(١).

فأحس أبو طلحة بضيق شديد فأنصرف وهو لا يكاد يصدق ما يرى ويسمع، ولكن حبه الصادق جعله يعود في اليوم التالي يمينها بمهر أكبر وعيشة رغيدة عساها تلين وتقبل.

(١) انظر الطبقات لابن سعد (٤٢٦/٨)، ونحوه الحافظ ابن حجر في الإصابة (٢٤٣/٨). وكذا في الحلية (٥٩/٢).

ولكن أم سليم الداعية اللبيرة الذكية - التي ترى الدنيا تتراقص أمام عينيها حيث المال والجاه والشباب - تشعر بأن قلعة الإسلام في قلبها أقوى من كل نعيم الدنيا، فقالت بأدب جم: (ما مثلك يرد يا أبا طلحة، ولكنك امرؤ كافر، وأنا امرأة مسلمة لا تصلح لي أن أتزوجك فقال: ما ذاك دهرك. قالت: وما دهري؟ قال: الصفراء والبيضاء. قالت: فإني لا أريد صفراء ولا بيضاء، أريد منك الإسلام. قال: فمن لي بذلك؟ قالت: لك بذلك رسول الله ﷺ، فانطلق يريد النبي وهو جالس في أصحابه، فلما رآه قال: «جاءكم أبو طلحة غرة الإسلام في عيني» فجاء فأخبر النبي بما قالت أم سليم فتزوجها على ذلك.

وفي رواية أخرى: (والله ما مثلك يا أبا طلحة يُرد. ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة ولا يحل لي أن أتزوجك، فإن تُسلم فذاك مهري ولا أسألك غيره^(١)).

لقد هزت هذه الكلمات أعماق أبي طلحة وملأت كيانه، فقد تمكنت أم سليم من قلبه تماماً، فليست هي بالمرأة اللعوب التي تنهار أمام المغريات، إنها المرأة العاقلة التي تفرض وجودها، وهل يجد خيراً منها تكون زوجاً له، وأما لأولاده؟؟.

وما شعر إلا ولسانه يردد (أنا على مثل ما أنت عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله).

فالتفتت أم سليم إلى ابنها أنس وهي تقول بسعادة بالغة أن هدى الله علي يديها أبا طلحة: قم يا أنس فزوج أبا طلحة فزوجها وكان صداقها الإسلام.

(١) انظر النسائي (١١٤/٦) ومسنده صحيح، وله طرق متعددة أنظر للإصابة (٢٤٣/٨) والجليّة (٥٩/٢ و ٦٠).

وبذلك قال ثابت راوي الحديث عن أنس: (فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرأ من أم سليم كان مهرها الإسلام)^(١).

وعاشت أم سليم مع أبي طلحة حياة زوجية تقوم على المعاني الإسلامية التي تضمن للزوجين الحياة الهادئة الهنيئة.

وكانت أم سليم مثال الزوجة الصالحة التي تقوم بحقوق الزوج أحسن قيام، كما كانت مثال الأم الرؤوم. والمربية الفاضلة الداعية.

وهكذا دخل أبو طلحة مدرسة الإيمان على يد زوجته الفاضلة أم سليم، وأصبح ينهل من نبع النبوة حتى غدا كفوأ كريأ لأم سليم.

ولنستمع إلى أنس رضي الله عنه يروي لنا كيف كان يتفاعل أبو طلحة مع كتاب الله ويلتزم به مبدأ وسلوكاً فيقول - أي أنس -:

كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالاً، وكان أحب أمواله إليه - يبرحى - وكانت مستقبله المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها

ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت هذه الآية: ﴿لَنْ نَأْثِلُوا الْبَرَحَتَيْنِ

تُنْفِقُوا مِمَّا يُحِبُّونَ﴾^(٢) قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: إن الله

عز وجل يقول في كتابه: ﴿لَنْ نَأْثِلُوا الْبَرَحَتَيْنِ تُنْفِقُوا مِمَّا يُحِبُّونَ﴾

وإن أحب أموالي إلي (يبرحى) وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث شئت.

فقال رسول الله ﷺ:

«بخر بخر ذلك مال رابح، وذلك مال رابح، قد سمعت ما قلت فيها وإني أرى أن تجعلها في الأقربين».

(١) سنن النسائي (١١٤/٦) من طريق جعفر بن سليمان، عن ثابت عن أنس.

(٢) سورة آل عمران آية ٩٢.

فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبنى عمه^(١).

ويكرم الله هذين الزوجين بولده ذكر فرحا لقدمه أعظم الفرح، وأصبح قرة عين لهما يأنسان به ويحركاته، وقد سمياه (أبا عمير). وقد اتخذ الطفل طائراً يلعب به، فمات فحزن عليه وبكى من أجله، فمر رسول الله ﷺ به فقال له مداعباً ومواسياً «يا أبا عمير ما فعل النغير»^(٢).

و شاء الله أن يمتحنها بالطفل الجميل المحبوب، فمرض أبو عمير وشغل الأبوين به، وكان أبوه إذا عاد من السوق أول ما يواجهه به أهل الدار بعد السلام السؤال عن صحة ابنه ولا يطمئن حتى يراه.

وخرج أبو طلحة مرة إلى المسجد، فقُبض الصبي.. وتلفت الأم المؤمنة الصابرة الحادث بنفس راضية طيبة، وسجته في فراشه وهي تردد:

إنا لله وإنا إليه راجعون. وقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه.

ولما رجع أبو طلحة كانت أم سليم قد جففت دموع الرحمة من عينيهما، وهشت لاستقبال زوجها وإجابته عن سؤاله المجهود: ما فعل ابني؟ فقالت له: هو أسكن ما يكون.

فطن أنه عوفي، وفرح لسكونه وراحته، ولم يدن منه لكيلا يعكر عليه سكونه، ثم قربت إليه أم سليم عشاءً أهدته له، فأكل وشرب، ثم صنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، وليست أجل ثيابها وتزينت

(١) رواه البخاري في الزكاة باب الزكاة، على الأقارب (١٢٦/٢).

ومسلم في الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج برقم ٩٩٨.

(٢) رواه البخاري في الأدب، باب الانبساط إلى الناس (١٠٩/٧).

ومسلم في الأدب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته برقم ٢١٥٠. وأبو داود برقم ٤٩٦٩ في الأدب، ماجاء في الرجل يتكنى والنغير: تصغير النغر، وهو طائر صغير كالصغور.

وتطيت، فأصاب منها.

فلما رآته قد شبع وأصاب منها، وههأت نفسه على ولده حدث الله أنها لم تفجعه وتركته يغط في نوم عميق.

فلما كان من آخر الليل قالت:

يا أبا طلحة، أرايت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم فهل لهم أن يمنعوها عنهم؟.

قال: لا.

قالت: فما تقول إذا شق عليهم أن تطلب هذه العارية منهم بعد أن انتفعوا بها.

قال: ما أنصفوا.

قالت: فإن ابنك كان عارية من الله فقبضه، فاحتسب ابنك، ولم يتالك أبو طلحة أعصابه فقال غاضباً:

تركنتني حتى إذا تلطخت أخبرتني بابني؟!.

فما زالت تذكره حتى استرجع وحمد الله. وههأت نفسه.

فلما أصبح غداً إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: «بارك الله لكما في ليلتكما».

فكان ذاك حملها بعبد الله بن أبي طلحة، فلما ولدت ليلاً أرسلت بالمولود مع أنس إلى رسول الله ﷺ، فقال يا رسول الله ولدت أم سليم الليلة. فمضغ رسول الله ثمرات ثم حنكه، فقال أنس: سمه يا رسول الله فقال: «هو عبد الله»^(١).

(١) انظر طرق الحديث المتعددة وهو في طبقات ابن سعد (٤٣١/٨ و ٤٣٢).

وأخرجه البخاري في أول العقيقة (٢١٥/٦).

وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي طلحة برقم ٢١٤٤/،

وأخرجه الإمام أحمد (١٩٦/٣) و (٢٨٧/٣).

يقول عبادة أحد رجال السند فلقد رأيت لذلك الغلام سبع بنين، كلهم قد ختم القرآن»^(١).

ومن مآثر هذه المرأة الفاضلة وزوجها المؤمن أن أنزل الله فيهم قرآنًا يتعبد به الناس. يقول أبو هريرة رضي الله عنه:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك. وقلن كلهن مثل ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «من يضيفه يرحمه الله» فقام رجل من الأنصار يقال له: أبو طلحة فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته (أم سليم) هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلا قوت صبياني قال: فعليهم بشيء ونومهم، فإذا دخل ضيفنا فأريه أنا ناكل، فإذا هوى بيده ليأكل فقومي إلى السرج كي تصلحيه فاطفئي، ففعلت. ففعدوا فأكل الضيف، وباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «لقد عجب الله - أو ضحك الله - من فلان وفلانة».

وفي رواية أخرى: «قد عجب الله من صنعكما بضيفكما الليلة» وفي آخر الحديث^(٢) فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٣).

ولم يتالك أبو طلحة نفسه من الفرح، وأسرع ليثلج صدر زوجته ويقر

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤٣٤/٨) ورجاله ثقات.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (٢٢٦/٤) وفي تفسير سورة الحشر.

ومسلم في الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره برقم ٢٠٥٤/.

(٣) سورة الحشر، آية ٩.

عينها بأنه قد أنزل الله بهم قرآن يتلى .

ولم يكف أم سليم أن تؤدي دورها في نشر دعوة الإسلام بالبيان ، بل حرصت على أن تشارك أبطال الإسلام في جهادهم . فقد كان لها يوم حنين موقف بطولي في تذكية نار الحماسة في صدور المجاهدين ومداواة الجرحى ، بل كانت مستعدة للدفاع ومواجهة من يتعرض لها . فقد أخرج مسلم ، في صحيحه وابن سعد في الطبقات بسند صحيح أن أم سليم اتخذت خنجرأ يوم حنين فقال أبو طلحة : يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر . فقالت : يا رسول الله إن دنا مني مشرك بقرت به بطنه^(١) . ويقول أنس رضي الله عنه :

كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا فيسقين الماء ويداوين الجرحى^(٢) .

وهكذا كان لأم سليم منزلة عالية عند رسول الله ﷺ فلم يكن يدخل بيتاً غير بيت أم سليم^(٣) . وقد بشرها عليه الصلاة والسلام بالجنة حين قال :

« دخلت الجنة فسمعت خشفة ، فقلت من هذا ؟ قالوا هذه الرميضاء^(٤) بنت ملحان أم أنس بن مالك »^(٥) .

فهنيئاً لك يا أم سليم فأنت تستحقين كل ذلك ، فأنت زوجة صالحة ناصحة ، وداعية حكيمة ، وأم مربية واعية حيث أدخلت ابنك في أعظم مدرسة عرفتها الدنيا هي مدرسة النبوة ولما يبلغ العشر من العمر . وبذلك غدا علماً من أعلام الإسلام ، فهنيئاً لك .. هنيئاً لك ..

(١ ، ٢) أنظر الطبقات (٤٣٥/٨) ، وشرح مسلم للنووي (١٢/١٨٨) .

(٣) ذكر النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم (١٦ / ١٠) أن أم سليم وأختها أم حبرام رضي الله عنهما كانتا خالتي لرسول الله ﷺ محرمين إماماً من الرضاع وإماماً من النسب فتحل له الخلوة بهما . وكان يدخل عليهما ، وقال العلماء : ففيه جواز دخول المحرم على محرمه ، وفيه إشارة إلى منع دخول الرجل إلى الأجنبية وإن كان صالحاً .

(٤) في بعض النسخ الغميطاء .

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ، باب من فضائل أم سليم برقم ٤٤٥٦ / ، وأخرجه البخاري نحوه في فضائل أصحاب النبي ﷺ .

أم حَرام بنت ملحان سَيِّدة البَحر

هي أم حرام بنت ملحان، بن خالد، بن زيد، بن حرام، بن جندب، بن عامر، بن غنم، بن عدي، بن النجار، الأنصارية النجارية المدنية.

أخت أم سليم، وخالة أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، وزوجة الصحابي الجليل عبادة بن الصامت. وأخوها سليم وحرام اللذين شهدا بدرًا وأحداً، واستشهدا يوم بئر معونة، وحرام هو القاتل عندما طعن من خلفه برمح: فزت ورب الكعبة.

كانت أم حرام رضي الله عنها من عليّة النساء، أسلمت، وبايعت النبي ﷺ وهاجرت. وروى الأحاديث، وحدثت عنها أنس بن مالك وغيره. كان رسول الله ﷺ يكرمها ويزورها في بيتها، ويقيل عندها، فقد كانت هي وأختها أم سليم خالتي لرسول الله ﷺ، إما من الرضاع، وإما من النسب، لذا تحل له الخلوة بها^(١).

(١) أنظر قول النبوي رحمه الله - في شرح الامام مسلم (١٠/١٦).

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

(دخل علينا رسول الله ﷺ ما هو إلا أنا، وأمي، وخالتي أم حرام، فقال: «قوموا فلأصل بكم، فصلى بنا في غير وقت صلاة»^(١)).

وكانت أم حرام رضي الله عنها تتمنى أن تكون مع الغزاة المجاهدين الذين يركبون البحر لنشر الدعوة، وتحرير العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. فاستجاب الله لها وحقق أملها، حيث تزوجت من الصحابي الجليل عبادة ابن صامت وخرجت معه واستشهدت هناك في غزوة قبرس.

يقول أنس رضي الله عنه.

كان رسول الله ﷺ إذا ذهب إلى قباء يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت أم حرام زوجة عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً فأطعمته ثم جلست تظلي رأسه، فنام رسول الله ﷺ ثم أستيقظ وهو يضحك.

فقلت أم حرام: ما يضحكك يا رسول الله؟.

قال: «ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثج هذا البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الاسرة».

فقلت أم حرام: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم.

فدعا لها ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ وهو يضحك.

فقلت أم حرام: يا رسول الله ما يضحكك؟.

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في المساجد، باب جواز الجماعة في النافلة برقم . / ٩٩٠ /

فقال صلى الله عليه وسلم: «ناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله مثل الملوك على الأسرة».

فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم.

فقال: «أنت مع الأولين».

قال - يعني أنس بن مالك رضي الله عنه.

فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت، فلما جاز البحر، ركبت دابة فصرعتها فقتلتها، وكانت تلك الغزوة غزوة قبرس، فدفنت فيها، وكان أمير ذلك الجيش معاوية بن أبي سفيان في خلافة عثمان رضي الله عنهم جميعاً^(١).

وكان ذلك في سنة سبع وعشرين^(٢).

وهكذا كانت أم حرام رضي الله عنها واحدة من تلك الأسرة الكريمة الوفية للمبادئ التي تحملها وتبذل كل ما في وسعها لنشر عقيدة التوحيد خالصة لا تبغي من وراء ذلك إلا رضاء الله عز وجل.

(١) أخرجه البخاري في التعبير، باب رؤيا النهار (٧٢/٨).

ومسلم في الإمامة، باب فضل الغزو في البحر برقم ١٩١٢/.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة (٢٢٣/٨).

أُمُّ وَرَقَةَ الْمَرْأَةُ .. الشَّهِيدَةُ

إنها ابنة عبد الله بن الحارث، بن عويمر، بن نوفل، الأنصارية، وهي مشهورة بكنيتها (أم ورقة بنت عبد الله) وقد يقال لها: أم ورقة بنت نوفل نسبة إلى جدها الأعلى.

وهي من كرائم نساء عصرها وأفاضلهم، ولذا كان رسول الله ﷺ يزورها في بعض الأحيان والأوقات ويلقبها بالشهيدة.

وكانت رضي الله عنها غيرة على الدين حريصة للموت في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة الله، ومن أجل أن لا تحرم الجهاد مع المسلمين، ولتناول أجر المجاهدين، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا قالت له:

ايذن لي أن أخرج معكم أداوي جرحاكم، وامرض مرضاكم، فلعل الله يهدي إليَّ الشهادة.

فقال لها النبي ﷺ:

«إن الله يهديك الشهادة، وقري في بيتك فإنك شهيدة»^(١).

وكانت رضي الله عنها قد جمعت القرآن الكريم، وكانت قارئة له ولذا أمرها النبي ﷺ أن تؤم أهل دارها، وجعل لها مؤذنًا يؤذن لها.

(١) أنظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٢٨٩/٨)، وحلية الأولياء للأصبهاني (٦٣/٢).

فقد جاء في المسند والسنن من حديث عبد الرحمن بن خلد عن أم ورقة: أن رسول الله ﷺ كان يزورها في بيتها، وجعل لها مؤذناً كان يؤذن لها، قال عبد الرحمن: أنا رأيت مؤذنها شيخاً كبيراً.

وهكذا غدا بيت أم ورقة رضي الله عنها بيتاً من بيوت الله تقام فيه الصلوات الخمس. فيا له من فخر تفخر به امرأة مؤمنة كأم ورقة رضي الله عنها^(١).

وظلت أم ورقة على حالها تحافظ على شعائر الله إلى أن قام غلام وجارية لها كانت دبرتها^(٢) فغمياها فقتلها فلما أصبح عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: والله ما سمعت قراءة خالتي أم ورقة البارحة، فدخل الدار فلم ير شيئاً، فدخل البيت فإذا هي ملفوفة في قطيفة في

(١) قال الإمام ابن القيم في كتابه أعلام الموقعين عن رب العالمين: لقد ردَّ بعض المذاهب هذه السنة الصحيحة - في استحباب صلاة النساء جماعة لامنفرات - بالمشابهة من قوله صلى الله عليه وسلم: «لن يفلح قوم ولو أمرهم امرأة»، وهذا إنما ورد في الولاية والإمامة العظمى والقضاء، وأما الرواية والشهادة والفتيا والإمامة فلا تدخل في هذا، ومن العجب أن من خالف هذه السنة جوز للمرأة أن تكون قاضية تلي أمور المسلمين، فكيف أفلحوا وهي حاكمة عليهم ولم يفلح أخواتها من النساء إذا أمتهن؟؟

ثم ذكر ابن القيم - رحمه الله - في نفس المصدر الأحاديث التي تردُّ على المنكرين لهذه السنة الصحيحة منها:

- أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أمت نسوة في المكتوبة فأمتن بينهن وسطاً.

- وأن أم سلمة رضي الله عنها أيضاً أمت نساء فقامت وسطهن.

ثم قال: (ولو لم يكن في المسألة إلا عموم قوله صلى الله عليه وسلم «تفضل صلاة الجماعة على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة» لكفى.

أنظر أعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/٣٥٧).

(٢) أدبرتها: يعني أنها اعتقتها بشرط أن يكون العتق بعد موتها.

جانب البيت فقال: صدق رسول الله حين كان يقول: «انطلقوا بنا
نزور الشهيدة»^(١).

ثم صعد عمر رضي الله عنه المنبر فذكر الخبر وقال: علي بها فأتي بها
فسألها فاقرا أنها قتلاها، فأمر بها فصلباً، فكانا أول مصلوب بالمدينة.
فرحم الله أم ورقة، وجزاها الله كل الخير، قرأت القرآن وجمعته،
وكانت إماماً لنساء عصرها، واستحبت الجهاد لتنال أجر المجاهدين،
فاستجاب الله لها، ونالت أجرهم.

(١) الإصابة لابن حجر (٢٨٩/٨)، وحلية الأولياء للأصبهاني (٦٣/٢) (والمستدرك للحاكم
(٢٠٣/١)).

أَسْمَاءُ بِنْتُ عَمَيْسَ صَاحِبَةُ الْمُهْجَرَيْنِ

أسماء بنت عميس، بن معد، بن تميم، بن الحارث، بن كعب، بن مالك، بن قحافة، وتكنى بأُم عبد الله. إحدى الأخوات المؤمنات الأربع اللاتي حصلن على وسام الإيمان من رسول الله ﷺ حين قال: «الأخوات الأربع مؤمنات: ميمونة، وأم الفضل، وسلمى، وأسماء»^(١).

أسلمت رضي الله عنها قبل أن يدخل المسلمون دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهي زوجة الصحابي البطل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه صاحب الجناحين كما يلقبه رسول الله ﷺ، فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يُسلم على عبدالله بن جعفر قال: «السلام عليك يا ابن ذي الجناحين»^(٢).

كانت أسماء رضي الله عنها من المهاجرات الأول، فهاجرت مع زوجها جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة، وذاقت مرارة الغربة القاسية

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٢٦٦/٨)، والطبقات لابن سعد (٢٧٨/٨).

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب جعفر بن أبي طالب (٢٠٩/٤).

ولوعتها، وكان زوجها خطيب المسلمين أمام ملك الحبشة النجاشي آنذاك.

وفي أرض الغربة ولدت لزوجها جعفر أبناءه الثلاثة: عبدالله، ومحمداً، وعوناً، وكان ولدها عبدالله شبيهاً بأبيه جعفر، وأبوه شبيهاً برسول الله ﷺ، فكان ذلك يسعدها، ويحرك مشاعر الشوق عندها لرؤية النبي ﷺ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يقول لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي»^(١).

ولما أمر النبي عليه أفضل الصلاة والسلام المهاجرين بالتوجه إلى المدينة كادت أسماء تطير من الفرح، فها هو الحلم قد تحقق وصار للمسلمين دولتهم فسيكونوا جنوداً في جيش الإسلام لنشر دعوته وإعلاء كلمة الله.

وهكذا خرجت أسماء رضي الله عنها مع الركب في هجرته الثانية من أرض الحبشة إلى المدينة، وما إن وصل الوفد المهاجر إلى المدينة حتى سمع المسلمون بسقوط خيبر، وانتصار المسلمين، وارتفع التكبير من كل مكان فرحاً بانتصار الجيوش، وبعودة المهاجرين من الحبشة.

ويتقدم جعفر بن أبي طالب من رسول الله ﷺ فيلتقاه بالبشر ويقبل جبهته ثم يقول:

«والله ما أدري بأيها أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»^(٢).

ودخلت أسماء بنت عميس رضي الله عنها على حفصة بنت عمر تزورها، فدخل عمر على حفصة وأساء عندها فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣/٤). وزاد المعاد (١/٣٩٧).

قالت: أسماء بنت عميس.

قال عمر: هذه الحبشية البحرية؟

قالت أسماء: نعم.

قال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم.

وغضبت أسماء رضي الله عنها، ولم تتالك نفسها فقالت:

كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعط جاهلكم، وكنا في دار أوفى أرض البعداء والبغضاء بالحبشة وذلك في الله وفي رسوله صلى الله عليه وسلم.

وسكتت رضي الله عنها هنيهة ثم تابعت:

وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نؤذي ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ، وأسأله، والله لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه.

فلما جاء النبي ﷺ قالت له أسماء:

يا نبي الله إن عمر قال: كذا وكذا.

قال رسول الله ﷺ فما قلت له؟

قالت: قلت له: كذا وكذا.

فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»^(١).

وغمرت السعادة قلب أسماء بشهادة النبي ﷺ، وشاع خبر حديث

(١) رواه البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر (٨٠/٥)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس برقم ٢٥٠٣/٢ وكلاهما من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

رسول الله بين الناس، وبدأ الناس يفدون على أسماء يستوضحون الخبر.
فتقول أسماء:

فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن
هذا الحديث. ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما
قال لهم النبي ﷺ (١).

ولما توجه جيش المسلمين إلى الشام، كان من بين أمرائه الثلاثة زوج
أسماء، جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه. وهناك في أرض المعركة
اختاره الله من بين العديد من الجيش ليفوز بالشهادة في سبيل الله.
ويأتي رسول الله ﷺ إلى بيت أسماء ويسأل عن الصبيان الثلاثة
فيضمهم إليه، ويضمهم، ويمسح رؤوسهم، وتذرف عيناه الشريقتان بالدموع.
فقلت له أسماء رضي الله عنها والجزع قد ملأ كيائها:

بأبي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟
قال: نعم أصيبوا هذا اليوم (٢).

ولم تتالك أسماء نفسها من البكاء فواساها صلى الله عليه وسلم وقال
لها: «تسلي ثلاثاً، ثم اصنعي ما شئت» (٣).
ثم قال عليه الصلاة والسلام لأهله:

«اصنعوا لأهل جعفر طعاماً، فإنه قد جاءهم ما يشغلهم» (٤).

(١) نفس المرجع السابق.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢٢/٤).

(٣) تسلي ثلاثاً: أي ألبسي ثوب الحداد ثلاثاً، والحديث استاده قوي كما ذكر الحافظ في
الفتح (٤٢٩/٩). وهو أيضاً في طبقات ابن سعد (٢٨٢/٨).

(٤) أخرجه الترمذي في الجناز، باب ما جاء في الطعام يصنع لأهل الميت برقم /٩٩٨/
وأبو داود في الجناز، باب صنعة الطعام لأهل الميت برقم /٣١٣٢/. وقال أبو
عيسى هذا حديث حسن صحيح وهو كما قال.

ولم يكن للمرأة المؤمنة إلا أن تحفف الدموع، وتصبر وتحسب عند الله الأجر العظيم. بل باتت تتمنى أن تكون مع زوجها لتفوز بالشهادة مثله، وخاصة عندما سمعت أحد رجال بني مرة بن عوف يقول - وكان في تلك الغزوة - : والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء، ثم عقرها، ثم قاتل حتى قتل وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقتراها طيبةً وبارداً شربها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
عليّ إذ لاقيتها ضاربها

ثم أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضي الله عنه^(١).

وتدرك أسماء رضي الله عنها معنى قول الرسول ﷺ لولدها: «السلام عليك يا ابن ذي الجناحين»^(٢).

فقد أبدله الله عن يديه المقطوعتين جناحين يطير بها حيث شاء .
وتنكب الأم الصالحة الصابرة على تربية أطفالها الثلاثة وتنشئهم على الاقتداء بسيرة أبيهم الشهيد الطيار. وطبعهم بطابع الإيمان.
ولم تمض فترة طويلة حتى يتقدم أبو بكر الصديق رضي الله عنه خاطباً لأسماء بنت عميس - وذلك بعد وفاة زوجته أم رومان رضي الله عنها.

ولم يكن لأسماء أن ترفض مثل الصديق رضي الله عنه، وهكذا انتقلت إلى بيت الصديق رضي الله عنه لتستلم منه المزيد من نور الحق والإيمان ، ولتضفي على بيته الحب والوفاء .

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢٠/٤).

(٢) حديث صحيح سبق ترجمه. ص ٢١٨ .

وبعد فترة من الزواج المبارك من الله عليها فرزقت منه بولدٍ وهي
بذي الخليفة، وهم يريدون حجة الوداع، فأمرها أبو بكر أن تغتسل ثم
تهل بالحج بعد أن سأل رسول الله ﷺ عن ذلك^(١).

ثم شهدت أسماء من الأحداث الجسام الكثير الكثير. وكان أشدها
وفاة سيد ولد آدم وانقطاع الوحي من السماء.

ثم شهدت زوجها أبا بكر خليفة المسلمين وهو يواجه أعضل
المشكلات يومئذ كقتال المرتدين وما نعي الزكاة، وبعث جيش أسامة
وكيف وقف كالطود لا يتزحزح ولا يتزعزع، وكيف نصر الله المسلمين
بتلك المواقف الإيمانية الجريئة.

وكانت أسماء تسهر على راحة زوجها وتعيش معه بكل مشاعرها
حاملة معه عبء الأمة الكبير.

ولكن ذلك لم يدم طويلاً فقد مرض الخليفة الصديق واشتد عليه
المرض وأخذ العرق يتصبب من وجنتيه، فأحس بشعور المؤمن الصادق
بدنو أجله فسارع بوصيته وكان من جملة ما أوصى به: أن تغسله زوجته
أسماء بنت عميس رضي الله عنها. كما عزم عليها أن تفطر قائلاً لها: هو
أقوى لك^(٢).

وشعرت أسماء بقرب الفاجعة فاسترجعت واستغفرت وهي لا تميل
بنظرها عن وجه زوجها الذي علاه الذبول إلى أن اسلم الروح إلى
بارئها، فدمعت العين، وخشع القلب، ولكنها لم تقل إلا ما يرضي الرب
تبارك وتعالى فصبرت واحتسبت.

(١) اسناده صحيح. أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٨٢/٨).

(٢) خبر أن أسماء غسلت زوجها أبا بكر الصديق رضي الله عنه، في طبقات ابن سعد
(٢٨٢ / ٨) ، وأخرجه الامام مالك في الموطأ مالك أيضاً (٢٢/١) . أما خبر عزمه عليها
بالإفطار ففي الطبقات (٨ / ٢٨٤) .

ومن ثم قامت بالمهمة التي طلبها منها زوجها الفقيد حيث كانت محل ثقته، فبدأت بتفسيله وقد أضناها الهم والحزن، فنسيت وصيته الثانية، فسألت من حضر من المهاجرين قائلة: إني صائمة، وهذا يوم شديد البرد فهل عليّ من غسل؟ فقالوا: لا^(١).

وفي آخر النهار وبعد أن وري جثمان الصديق تذكرت أسماء بنت عميس وصية زوجها الثانية، فقد عزم عليها أن تفطر. فإذا عساها تفعل الآن؟؟ فالوقت آخر النهار، وما هي إلا فترة وجيزة وتغيب الشمس ويفطر الصائم.

فهل تستجيب أسماء لعزيمة زوجها؟ أم تنتظر لحظات؟ إن الوفاء للزوج أبقى عليها أن ترد عزيمة زوجها الراحل، فدعت بقاء وشربت وقالت: والله لا أتبعه اليوم حنثاً^(٢).

ولزمت أسماء بنت عميس رضي الله عنها - بيتها ترعى أولادها من جعفر، ومن أبي بكر الصديق، وتحذب عليهم سائلة الله أن يصلحهم، ويصلح بهم، ويجعلهم للمتقين إماماً، وهذا غاية ما كانت ترجوه من دنياها غير عالمة بما يفاجئها من القدر المكنون في علم الله.

فها هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخو جعفر الطيار ذي الجناحين يتقدم لأسماء طالباً الزواج منها وفاءً لأخيه الحبيب جعفر ولصاحبه الصديق رضي الله عنها.

وبعد ترددٍ وتقليبٍ للأمور من كل جوانبها قررت الموافقة على الزواج من علي لتتيح له بذلك الفرصة لمساعدتها في رعاية أولاد أخيه جعفر.

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ (٢٢٢/١)، وابن سعد في الطبقات (٢٨٤/٨).

(٢) طبقات ابن سعد (٢٨٤/٨).

وانتقلت معه إلى بيته بعد وفاة فاطمة الزهراء رضي الله عنها فكانت له خير الزوجة الصالحة، وكان لها خير الزوج في حسن المعاشرة. وما زالت أسماء ترتفع وتسمو في عين علي رضي الله عنه حتى أصبح يردد في كل مكان: (كذبتكم من النساء الحارقة فما ثبتت منهن امرأة إلا أسماء بنت عميس)^(١).

ويكرم الله علياً فيرزقه الولد من أسماء، فولدت له يحيى وعونا^(٢) وتمر الأيام ويشاهد عليٌّ منظرًا غريباً... ولدًا لأخيه جعفر يتشاجر مع محمد بن أبي بكر، وكل منهما يتفاخر على الآخر ويقول:

أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك.

ولم يدر علي ماذا يقول لهما؟ وكيف يصلح بينهما بحيث يرضي عواطفها معاً؟؟ فما كان منه إلا أن استدعى أمها أسماء رضي الله عنها وقال لها: أقضي بينهما.

وبفكر حاضراً، وحكمةً بالغة قالت: ما رأيت شاباً من العرب خيراً من جعفر، ولا رأيت كهلاً خيراً من أبي بكر.

وهكذا انتهت المشاجرة وعاد الصغيران إلى التعانق واللعب ولكن علياً المعجب بحسن القضاء بين الأولاد نظر في وجه زوجته العاقلة قائلاً: ما تركت لنا شيئاً يا أسماء!!

وبذكاء حاد، وشجاعة نادرة، وأدب جم، قالت:

إن ثلاثة أنت أخسهم خيار^(٣).

(١) أنظر الإصابة (٩/٨)، والطبقات لابن سعد (٢٨٤/٨).

(٢) الطبقات لابن سعد (٢٨٥/٨)، والإصابة (٩/٨).

(٣) نفس المصادر السابقة.

ولم يستغرب علي رضي الله عنه مقالة زوجته العاقلة، فقال لها بكل شهامة ومروءة نادرة:

لو قلت غير الذي قلت لمقتك^(١).

واختار المسلمون علي بن أبي طالب خليفة بعد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأصبحت أسماء للمرة الثانية زوجاً لأمير المؤمنين رابع الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم جميعاً.

وكانت أسماء على مستوى المسؤولية كزوجة لخليفة المسلمين أمام الأحداث العظام، فدفعت بولديها عبدالله بن جعفر، ومحمد بن أبي بكر رضي الله عنهما إلى جانب أبيهما لنصرة الحق.

ثم ما لبثت طويلاً حتى فجعت بولدها محمد بن أبي بكر رضي الله عنه، وكان أثر هذا المصاب عليها عظيماً، ولكن أسماء المؤمنة لا يمكن لها أن تحالف تعاليم الإسلام فتصرخ وتندب...و..و.. فما كان منها إلا أن تجلدت واستعانت بالصبر والصلاة على ما ألم بها، وما زالت تكتم غيظها حتى شخت ثدياها دماً^(٢).

وما كاد العام ينتهي حتى ثقلت وأحست بالوهن يسري في جسمها سريعاً ثم فارقت الحياة، وبقيت رمزاً على مدار التاريخ بعد أن ضربت لنا أعظم النماذج في الحكمة والصبر على الشدائد.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) الإصابة (٩/٨).

الشفاء بنت الحارث المعلمة الأولى في الإسلام

الشفاء بنت عبد الله ، بن عبد شمس ، بن خلف ، بن سداد ، بن عبد الله ، بن قرط ، بن رزاح ابن عدي ، بن كعب ، القرشية العدوية .
أسلمت الشفاء رضي الله عنها قبل الهجرة ، وهي من المهاجرات الأول ، ومن المؤمنات المبایعات . وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

وكانت رضي الله عنها من عقلاء النساء وفضلائهن ، وكانت عالماً من أعلام الإسلام ، وتربة خصبة للعلم والإيمان .
تزوجت الشفاء رضي الله عنها من أبي حثمة بن حذيفة بن عدي فرزقها الله منه بولدها سليمان بن أبي حثمة .

(١) سورة الممتحنة ، آية ١٢ .

وكانت الشفاء رضي الله عنها من تعلمن القراءة والكتابة في مكة قبل الإسلام، ولما أسلمت أخذت بتعليم ذلك إلى نساء المسلمين مبتغية بذلك الأجر والثواب فكانت بذلك (أول معلمة في الإسلام) وكان من علمتهن الشفاء (حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها) وزوج رسول الله عليه الصلاة والسلام.

فقد ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ طلب من الشفاء أن تعلم حفصة رضي الله عنها الكتابة وبعض الرقي. تقول الشفاء رضي الله عنها: دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا عند حفصة فقال لي:

«ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة»^(١).

ومن المعلوم أن الشفاء كانت ترقى في الجاهلية، فلما أسلمت وهاجرت قالت لرسول الله ﷺ:

كنت أرقى في الجاهلية وقد أردت أن أعرضها عليك.

فقال عليه الصلاة والسلام فاعرضيها.

قالت: فعرضتها عليه وكانت ترقى من النملة.

فقال صلى الله عليه وسلم: «ارقي بها وعلميها حفصة»^(٢).

ومما جاء في الرقية أيضاً: أن يقول: «اللهم رب الناس، مذهب

(١) أخرجه أبو داود في الطب، باب ما جاء في الرقي برقم ٣٨٨٧/ وإسناده حسن. والنملة: عبارة عن قروح تخرج من الجبين، وسميت كذلك لأن المصاب بها يشعر كأن نملاً يسير في جسده. ويقال أيضاً: أنها تخرج في الجنب، فترقى فتذهب بإذن الله عز وجل.

(٢) انظر الإصابة في تمييز الصحابة للمسقلاني (١٢١/٨).

الباس، إشف، أنت الشافي، لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقماً»^(١).

هذا وقد نالت الشفاء رضي الله عنها الكثير من رعاية الرسول ﷺ فخصص لها داراً في المدينة عند الحكاكين فنزلت فيها مع ابنها سليمان. وكان عليه الصلاة والسلام يزورها ويقبل عندها.

وقد أحبت الشفاء رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام كغيرها من المؤمنين والمؤمنات فتعلمت من أحاديثه عليه الصلاة والسلام الكثير في أمور الدين والدنيا، فكانت تدعو إلى الإسلام وتنصح الجميع، ولا تتوانى عن تبيان الأخطاء فروى عنها ابنها سليمان، وابناء ابنها ومولاها أبو اسحاق، وحفصة أم المؤمنين وغيرهم.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدمها في الرأي، ويرعاها ويفضلها وربما ولاها شيئاً من أمر السوق^(٢).

وكانت هي أيضاً تبادل عمر الاحترام، وترى فيه الإنسان المسلم الصادق، والقُدوة الحسنة في الإصلاح والتقوى والعدل، فقد رأت فتياناً يقصدون في المشي ويتكلمون رويداً، فقالت: ما هذا؟.

قالوا: نساك.

فقالت الشفاء رضي الله عنها: كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الطب، باب رقية النبي ﷺ (٢٤/٧).

وأبو داود في الطب، باب كيف الرقي برقم / ٣٨٩٠. والترمذي في الجنائز باب في التعمد للمريض برقم / ٩٧٣. والجميع من حديث عبدالعزيز بن صهيب رضي الله عنه.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة (١٢١/٨).

(٣) الطبقات لابن سعد (٢٠٨/٨).

وعاشت الشفاء بقية حياتها بعد رسول الله ﷺ تحظى برعاية الجميع واحترامهم ، حتى توفيت سنة ٢٠ هـ .

فرحم الله الشفاء بنت عبد الله ، فقد قدمت لأمتها كل الخير بما أوتيته من علم ودين لتكون أسوة حسنة لكل فتاة في الإسلام فلا تبخل أن تجود بما تملكه من علم و.. و.. في سبيل عقيدتها إرضاء لله عز وجل .

أُمّ حَكِيم بِنْتُ الْحَارِثِ زَوْجُ عِكْرَمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ

أم حكيم بنت الحارث ، بن هشام ، بن المغيرة ، المخزومية ، بنت أخي أبي جهل عمرو بن هشام ، عدو الله ورسوله ، وأمها فاطمة بنت الوليد .

كانت أم حكيم تتمتع بعقل ثاقب، وحكمة نادرة، زوّجها أبوها الحارث في الجاهلية من ابن عمها عكرمة بن أبي جهل. وهو من النفر الذين أعلن رسول الله ﷺ عن إهدار دمهم.

فلما انتصر المسلمون ، وتم فتح مكة ، هرب عكرمة بن أبي جهل إلى اليمن ، وهو يعلم ما توعدّه بن رسول الله ﷺ .

ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وأسلم الحارث بن هشام، وأسلمت ابنته أم حكيم فحسن إسلامها، وكانت من اللاتي بايعن رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام، وشعرت أم حكيم رضي الله عنها بجلاوة الإيمان تملأ كيائها، فتمنت أن يذوق حلاوة الإيمان ولذتها أحب الناس إليها وأقربهم إلى نفسها زوجها عكرمة بن أبي جهل.

وقادتها حكمتها وعقلها إلى الذهاب إلى رسول الله ﷺ تطلب الأمان لزوجها إذا عاد مسلماً.

وغمرت السعادة قلبها وهي تسمع رسول الله ﷺ - صاحب القلب الكبير - يصفح عنه ويأمنه على نفسه.

واندفعت أم حكيم مسرعة تتبع زوجها الهارب لعلها تدركه قبل أن يركب البحر، وعانت من وحشة الطريق، وقلة الزاد، ولكنها لم تيأس، ولم تضعف فالغاية عظيمة يهون من أجلها الكثير.. الكثير.. وشاءت قدرة الله لها أن تدرك زوجها في ساحل من سواحل تهامة وقد كاد يركب البحر.

فجعلت تناديه قائلة:

يا ابن عم.. جئتكَ من أوصل الناس، وأبر الناس، وخير الناس، فلا تهلك نفسك، وقد استأمنت لك منه فأمنك.

فقال لها عكرمة: أوقد فعلت ذلك؟؟

قالت: نعم.

ثم أخذت تحدّثه عن تلك العقيدة التي ملأت كيائها، وشعرت بجلاوتها، وأنها لم تدخل في هذا الدين إلا بعد أن اقتنعت بكماله، وأنه دين يعلى ولا يعلى عليه.

ثم حدّثته عن شخص الرسول الكريم، وكيف دخل مكة وكسر أصنامها، وكيف عفا عن الناس بقلبه الكبير، ونفسه المنفتحة لكل إنسان.

وهكذا نجحت أم حكيم رضي الله عنها بذرع البذور الطيبة في نفس زوجها، وعادت به إلى رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه بين يديه وليجدد بهذا الإسلام شباباً كاد أن يضيع في ظلمات الجهل والوثنية.

وفتح رسول الله ﷺ ذراعيه ليحتوي الشاب العائد بكلية ليعلن ولاءه لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

وما كاد عكرمة رضي الله عنه ينهل من نبع العقيدة الإسلامية حتى فجرت في نفسه إيماناً صادقاً وحباً خالصاً دفعه إلى أرض المعركة ومن

ورائه من بنيه كل قادر على حمل السلاح.
وعلى أرض المعركة بايع عكرمة رضي الله عنه أصحابه على الموت في
سبيل الله عز وجل، وصدق الله فصدقه، وحاز على وسام الشهادة في
سبيل الله.

ولم تجزع أم حكيم المرأة المؤمنة الصابرة وقد استشهد في المعركة
أخوها وابوها وزوجها.. وكيف تجزع؟ وهي تتمنى لنفسها أن تفوز
بالشهادة مثلهم. والشهادة أسمى وأنبل ما يتمناه المؤمن الصادق.

وبعد فترة من الزمن على استشهاد زوجها عكرمة رضي الله عنه،
خطبها قائد المسلمين الأموي خالد بن سعيد رضي الله عنه. فلما كانت
وقعة (مرج الصفر) أراد خالد أن يدخل بها. فقالت له أم حكيم:

لو تأخرت حتى يهزم الله هذه الجموع.

فقال: إن نقسي تحدثني أني أقتل.

قالت: فدونك.

فأعرس بها عند قنطرة عرفت فيما بعد بقنطرة أم حكيم.

ثم أصبح فأولموا عليها، فما فرغوا من الطعام حتى وافتهم الروم.
واندفع العريس القائد إلى قلب المعركة يقاتل حتى استشهد. فشدت أم
حكيم عليها ثيابها، وقامت تضرب الروم بعمود الخيمة التي أعرست فيها
فقتلت من أعداء الله يومئذ سبعة منهم^(١).

فيا له من عرس!! ويا له من صباحية للعرس!!.

وهكذا المؤمنات المجاهدات الصابرات عرسهن في الميدان، وصباحهن
جهاد و قتال.

(١) انظر الإصابة في تمييز الصحابة (٢٢٥/٨)

ولا غرو في ذلك فأم حكيم رضي الله عنها هي ابنة أخت سيف الله
المسلول، والقائد الشجاع خالد بن الوليد رضي الله عنه .
فرحم الله أم حكيم المرأة المؤمنة الصادقة صانعة الأبطال، وفيه
مخلصة أنقذت زوجها من الضلال والكفر إلى نور الإسلام، وقاتلت بنفسها
أعداء الله سبحانه وتعالى. فجزاها الله عن دينها خير الجزاء، وجعل الله
من بناتنا و اخوتنا ونسائنا ممن يستمعن القول فيتبعن أحسنه ..

أُمُّ أَيْمَنَ مَوْلَاةُ النَّبِيِّ ﷺ وَحَاضِنَتُهُ

اسمها بركة بنت ثعلبة، بن عمرو، بن حصن، بن مالك، بن سلمة، بن عمرو، بن النعمان الحبشية.

ورثها رسول الله ﷺ من أبيه وما زالت أم أيمن تحضن رسول الله حتى كبر، ولما تزوج رسول الله ﷺ من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أعتق أم أيمن فتزوجها عبيد بن الحارث الخزرجي، فولدت له: أيمن، ولأيمن هذا رضي الله عنه هجرة وجهاد واستشهد يوم حنين.

وكان النبي صلوات الله عليه وسلامه يكرمها ويزورها ويقول: «يا أمه، ويقول: هذه بقية أهل بيتي، ويقول أيضاً: أم أيمن أُمِّي بعد أُمِّي»^(١).

وكانت رضي الله عنها تقوم على خدمة رسول الله ﷺ وتلاطفه، وكان صلى الله عليه وسلم يقول بعد النبوة: «من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن»^(٢) فتزوجها زيد بن حارثة ليالي بعث

(١) أخرجه الحاكم (٦٣/٤)، والعسقلاني في الإصابة (٢١٣/٨)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٢٣/٨).

(٢) أخرجه ابن سعد (٢٢٤/٨) من طريق عبيد الله بن موسى عن فضل بن مرزوق ورجاله ثقات ولكنه منقطع. وانظر الإصابة أيضاً (٢١٣/٨).

النبي ﷺ فولدت له أسامة بن زيد، حب رسول الله ﷺ.

ولما أذن الله للمسلمين بالهجرة إلى المدينة كانت أم أيمن رضي الله عنها من المهاجرات الأوّل، فهاجرت في سبيل الله وهي ماشية ليس معها زاد، وهي صائمة في يوم شديد الحر فجهدتها العطش، فدُيِّ عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض، فشربت منه حتى رويت، وكانت تقول: ما أصابني بعد عطش ولقد تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر فما عطشت بعد تلك الشربة، وإن كنت لأصوم في اليوم الحار فما أعطش^(١).

وكان رسول الله ﷺ يلاطفها ويمازحها وكأنها أمه، وقد جاءته ذات مرة فقالت له: يا رسول الله احملني فقال عليه الصلاة والسلام: أحملك على ولد الناقة.

فقالت: يا رسول الله إنه لا يطيقني ولا أريده.

فقال: لا أحملك إلا على ولد الناقة. يعني أنه كان يمازحها صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً، فالإبل كلها ولد النوق^(٢).

وكانت أم أيمن رضي الله عنها عسراء اللسان، فقد أرادت أن تدعي للمسلمين يوم حنين فقالت: سبت الله أقدامكم.

فقال لها النبي ﷺ: «اسكتي يا أم أيمن فإنك عسراء اللسان»^(٣).

ودخلت مرة على النبي ﷺ فقالت: سلام لا عليكم فرخص لها رسول الله ﷺ أن تقول السلام^(٤).

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٢٤/٨) وعنه الحافظ المسقلاني في الإصابة (٢١٣/٨).

(٢) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٢٤/٨).

(٣) نفس المصدر السابق (٢٢٤/٨ و ٢٢٥).

وإلى جانب كل هذه الصفات الحميدة، ورغم كبر السن، فقد أبت أم أيمن رضي الله عنها إلا أن تشارك أبطال الإسلام في مقارعة أعداء الله عز وجل لإعلاء كلمته فحضرت أحداً، وساهمت بما تستطيع، فسقت الماء، وداوت الجرحى، وشهدت خبير مع رسول الله ﷺ^(١).

ولما توفي رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام قال أبو بكر رضي الله عنه لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهي إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله.

فقالت: ما أبكي ألا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتها على البكاء فجعلنا يبكيان معها^(٢).

ولما قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بكت أم أيمن رضي الله عنها وقالت: اليوم وهى الإسلام^(٣).

وتوفيت رضي الله عنها في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد مقتل عمر بعشرين يوماً.

فرحم الله أم أيمن حاضنة سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام، الصائمة الطاوية، المهاجرة الماشية التي سُقيت من غير راوية، شربة سماوية كانت لها شافية كافية.

(١) الطبقات (٢٢٥/٨).

(٢) أخرجه الإمام مسلم في فضائل الصحابة برقم ٢٤٥٤/، وابن ماجه في الجنايز برقم ١٦٣٥/ وأبو نعيم في الحلية (٦٨/٢). والطبقات (٢٢٦/٨) وكلهم من طريق سليمان بن المغيرة بن ثابت، عن أنس قال: ... الحديث.

(٣) الطبقات (٢٢٦/٨). وسنده صحيح. وعن الحافظ في الإصابة (٢١٤/٨).

هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ بَطْلَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ

إنها هند بنت عتبة ، بن ربيعة ، بن عبد شمس ، بن عبد مناف ، الأموية القرشية ، وأمها صفية بنت أمية ، بن حارثة ، بن الأوقصي ، بن مرة ، بن هلال ، بن فالح ، بن ذكوان ، بن ثعلبة ، بن بهته ، بن سليم .

كانت هند ذات صفات ترفع قدرها بين النساء العرب ، ففيها فصاحة وجرأة وثقة وحزم . ورأي ، تقول الشعر وترسل الحكمة ، وتشمخ بأنفها معتزة بنفسها ونسبها . ولقد قال فيها ابنها معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنهما : إنها في الجاهلية عظيمة الخطر ، وفي الإسلام كريمة الخير . ويقول عنها الإمام ابن عبد البر : كانت امرأة لها نفس وانفة .

زوجها أبوها من الفاكهة بن المغيرة المخزومي ، فولدت له أبناء ، وبعد ذلك طلقته ، وقالت لوالدها عتبة بن ربيعة : إني امرأة قد ملكت امرئ فلا تزوجني رجلاً حتى تعرضه عليّ . فقال لها : ذلك لك .

وفي ذات يوم قال لها إنه قد خطبك رجلان من قومك ولست مُسمياً لك واحداً منها حتى أصفه لك .

أما الأول : ففي الشرف الصميم ، والحسب الكريم ، تخالين به هوجاً من غفلته وذلك اسجاح من شيمته ، حسن الصحابة ، حسن الإجابة ، إن تابعته تابعك ، وإن ملت كان معك ، تقضين عليه في ماله ، وتكتفين برأيك في ضعفه .

وأما الآخر: ففي الحسب والنسب والرأي الأريب، بدر أرومته، وعز عشيرته، يؤدب أهله ولا يؤدبونه، إن اتبعوه أسهل بهم، وإن جانبوه توعر بهم، شديد الغيرة سريع الطيرة، شديد حجاب القبة إن جاع فغير منزور وإن نوزع فغير مقهور.

قال والدها: لقد بينت لك حالها.

فقالت: أما الأول فسيد مضياك لكريمته، مؤاتٍ لها فيما عسى إن لم تعصم ان تلين بعد إباءها، وتضيع تحت جنائها، إن جاءت له بولد أحمت، وإن أنجبت فغن خطأ ما أنجبت.

ثم تابعت: اطو ذكر هذا عني فلا تسمه لي.

وأما الآخر: فبعل الحرة الكريمة، إني لأخلاق هذا لواقمه، وإني له لموافقة، وإني لأخذه بأدب البعل مع لزومي قبتي وقلة تلفتي، وإن السليل بيني وبينه لحري أن يكون المدافع عن حريم عشيرته الذائد عن كتيبته، المحامي عن حقيقتها الزائن لأرومتها غير مواكل ولا زُميل عند ضعضة الحوادث فمن هو؟؟

فقال والدها عتبة: ذاك أبو سفيان بن حرب.

فقالت: فزوجه ولا تلقي إليه إلقاء المتسلس السلس، ولا تسمه سوم المواطن الضرس، استخر الله في السماء يخر لك بعلمه في القضاء^(١).

وهكذا نرى هنداً تركب الصعب من الأمور، وترفع رأسها نحو القمم، ولا ترضى بالزوج الطيب الذي يكون ألعوبة في يدها، بل تريده زوجاً له شخصيته وكرامته وقوته، فيكون محرماً لها، لا تكون هي محرماً له.

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٣٥/٨ و ٢٣٦).

وتعطي هند في حياتها الزوجية مع أبي سفيان فنراها تحرص دوماً
على محامد الفعال أكثر مما تحرص على شهوة النساء والرجال.

وكانت ذات طموح واسع ترى في نفسها أهلاً له. ومن شواهد ذلك
أن بعض الناس رآها ومعها ابنها معاوية، فتوسموا فيه النبوغ فقالوا لها
عنه: إن عاش ساد قومه.

فلم يعجبها هذا المديح فقالت في إباءٍ وتطلع واسع: ثكلته إن لم
يسد إلا قومه.

ولما كانت موقعة بدر الكبرى قُتل في هذه المعركة والد هند وعمها
شيبة، وأخوها الوليد.. فراحت هند ترثيهم مرَّ الرثاء، وفي عكاظ
التقت مع الخنساء فسألتها من تبكين يا هند؟ فأجابت:

أبكي عميد الأبطحين كليها وحاميها من كل باغٍ يريد
أبي عتبة الخيرات ويحك فاعلمي وشيبة والحامي الذمَّار وليدها
أولئك آل المجد من آل غالب وفي العز منها حين ينمى عديدها

وفي غزوة أحد كان لهند بنت عتبة دروها العسكري البارز فقد
خرجت مع المشركين من قريش، وكان يقودهم زوجها أبو سفيان،
وراحت هند تحرض القرشيين على القتال وتزعمت فئة من النساء،
فرحن يضربن الدفوف وهي ترتجز:

نحن بنات طارق نمشي على النارق
إن تقبلوا نعانق وإن تدبروا نفارق
وتردد أيضاً:

أيها بني عبد الدار وهما حماة الأديار
ضرباً بكل بثار^(١).

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٧٢/٣).

ولقد سجلت هند في هذا اليوم صفحة سوداء قائمة لم ينسها التاريخ.. تلك الصفحة هي ما فعلته هند بأبي الشهداء وسيدهم حمزة بن عبد المطلب رضوان الله تعالى عليه.

فقد حرضت وحشي بن حرب، عبدها، ووعدته بالحرية إن قتل حمزة وأخذ لها بثأرها، وما زالت تؤجج في صدره نيران العدوان وتقول له: إيه أبا دسمة أشف واشتف.

وليس هذا غريباً في منطق الثأر، ولكن الغريب الذي لا يطاق أن تقبل هند على جثان البطل الشهيد - وقد فقد الحياة بطريق الغدر الشائن - فتقطع أنفه وأذنيه، وتشق بطنه وتنزع كبده وتمضغها ولكنها لم تستطع ابتلاعها فلفظتها، ثم علت على صخرة مشرفة وصرخت بأعلى صوتها:

نحن جزينام يوم بدر	والحرب بعد الحرب ذات سُعرٍ
ما كان عن عتبة لي من صبر	ولا أخي وعمه وبكري
شفيت نفسي وقضيت نذري	شفيت وحشي غليل صدري
فشكر وحشي على عمري	حتى ترم أعظمي في قبري ^(١) .

وقالت أيضاً:

شفيت من حمزة نفسي بأحد	حتى بقرت بطنه عن الكبـد
أذهب عني ذاك ما كنت أجد	من لذعة الحزن الشديد المعتمد ^(٢)

وهكذا باءت هند بلقب أذاها كثيراً ظل يتردد على مسامعها حتى بعد أن أسلمت ألا وهو: (أكلة الأكباد).

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٩٧/٣).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٩٨/٣).

وبقيت هند تكابر وتعاقد وتمثل الأنفة الجاهلية، حتى عزت كلمة الله، وأقبل الفتح المبين، وشاءت إرادة الله جل شأنه أن تنقلب بطلاة الجاهلية إلى بطلاة الإسلام. ففي عشية ليلة الفتح، فتح مكة، عاد أبو سفيان بن حرب من عند رسول الله ﷺ مسلماً وهو يصيح: يا معشر قريش.. ألا إني قد أسلمت فأسلموا إن محمداً قد أتاكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

فقامت إليه هند فأخذت بشاربه وهي تردد: بئس طليعة القوم أنت.. يا أهل مكة اقتلوا الحميت الدسم الأحس، قبح من طليعة قوم. فقال أبو سفيان: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟.

قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد^(١).

وفي اليوم الثاني لفتح مكة قالت هند لزوجها أبي سفيان: إنما أريد أن أتابع محمداً فخذني إليه.

فقال لها: قد رأيتك تكرهين هذا الحديث بالأمس.

فقالت: إني والله لم أر أن الله قد عبّد حق عبادته في هذا المسجد إلا في هذه الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً.

فقال لها: فإنك قد فعلت ما فعلت فاذهبي برجل من قومك معك، فذهبت إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، فذهب بها إلى رسول الله ﷺ ومعها نسوة فاستأذن لها فدخلت متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة فهي تخاف أن يأخذها رسول الله ﷺ بفعلتها، فقالت:

(١) سيرة ابن هشام (٤/٤٧).

يا رسول الله الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه
لتنفعمني رحمك يا محمد، إني امرأة مؤمنة بالله مصدقة برسوله، ثم كشفت
عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة.

فقال رسول الله ﷺ: مرحباً بك.

فقالت: والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إليّ من أن يُدلوأ
من خبائك، ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباءٍ أحب إليّ من أن
يُعزوا من خبائك.

فقال رسول الله ﷺ: وزيادة، وقرأ عليهن القرآن وبايعهن. فقالت
هند من بينهن: يا رسول الله نماسحك؟ - أي نصافحك - .

فقال صلى الله عليه وسلم: إني لا أصافح النساء، أن قولي لمائة امرأة
مثل قولي لامرأة واحدة^(١).

ثم قال عليه أفضل الصلاة والسلام: تبايعنني على أن لا تشركن بالله
شيئاً؟ فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا امرأة ما تأخذه على الرجال
وسنؤتيكه.

فقال صلى الله عليه وسلم: ولا تسرقن؟ فقالت هند: يا رسول الله إن
أبا سفيان رجل مسيك فهل عليّ من حرج أن أصيب من طعامه من غير إذنه؟
قال فرخص لها رسول الله في الرطب، ولم يرخص لها في اليابس^(٢).

قال صلى الله عليه وسلم: ولا يزينن قالت هند: وهل تزني الحرة؟
قال: ولا يقتلن أولادهن. قالت: قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر
كباراً فأنت وهم أعلم. فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب.

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٣٦/٨). والحديث صحيح. أخرجه الموطأ في
البيعة، باب ما جاء في البيعة (٩٨٢/٢). والنسائي في البيعة، باب بيعة النساء
(١٤٩/٧).

(٢) أصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين. وفيها: خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك
وولدك.

ثم قال رسول الله ﷺ: ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن.

فقلت هند: والله إن إتيان البهتان لقبيح.

فقال صلى الله عليه وسلم: ولا تعصيني في معروف.

فقلت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف^(١). وهكذا وقفت هند أمام الرسول ﷺ بشخصيتها القوية المؤمنة بصدق لتحاوّر وتسأل وتراجع.

ولما عادت إلى بيتها لحظت صنماً فيه فجعلت تضربه بالقدوم حتى فلذته فلذة فلذة وهي تقول: كنا منك في غرور، كنا منك في غرور^(٢).

وتعطي الأيام وتزداد هند المسلمة ثقافة إيمانية جعلتها تسهم في الجهاد مع المسلمين، فاشتركت مع زوجها أبي سفيان في غزوة اليرموك الشهيرة، وأبلت فيها بلاء حسناً، وكانت تحرض المسلمين على قتال الروم فتقول: عاجلوهم بسيوفكم يا معشر المسلمين.

وروت هند رضي الله عنها عن النبي ﷺ، وروى عنها ابنها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

وفي السنة الرابعة عشرة للهجرة توفيت هند بنت عتبة التي كانت كما صورها ابنها معاوية:

«إنها في الجاهلية عظيمة الخطر، وفي الإسلام كريمة الخير».

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٣٧/٨)، والإصابة (٢٠٥/٨)، والسيرة النبوية لابن كثير (٦٠٢/٣).

(٢) الطبقات الكبرى (٢٣٧/٨)، والإصابة (٢٠٦/٨).

أُمُّ شَرِيكَ الْقُرَشِيَّةِ الْمَرْأَةُ الدَّاعِيَّةُ

إسمها غزية، بنت جابر، بن حكيم، وهي إحدى نساء قريش، ثم إحدى بني عامر، بن لؤي، وكانت تحت أبي العكر الدوسي^(١). وقد وقع في قلب أُم شريك الإسلام وهي بمكة، وما إن تمكن الإيمان من قلبها وفهمت ما يتوجب عليها تجاه هذا الدين الحنيف حتى أوقفت حياتها لنشر دعوة التوحيد، وإعلاء كلمة الله ورفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وبدأت أُم شريك تتحرك في دعوتها، وتدخل على نساء قريش سراً فتدعوهم وترغبهن في الإسلام دون كلل أو ملل، وهي تدرك ما ينتظرها من تضحيات وآلام، وما ينتظرها من أذى وبلاء في الأنفس والأموال، فالإيمان ليس كلمة تقال باللسان، وإنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر.

وشاءت قدرة الله. بعد فترة من الزمن - أن تبدأ فترة الامتحان والتعرض للفتنة فظهر أمر أُم شريك رضي الله عنها لأهل مكة، فأخذوها وقالوا لها: لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا.. ولكننا سنردك إليهم.

قالت أُم شريك: فجاءني أهل أبي العكر - أي أهل زوجها - فقالوا: لعلك على دينه!! فقلت - أي والله - إني لعلى دينه. قالوا: لا

(١) أنظر ترجمتها في الإصابة (٢٤٨/٨)، والطبقات (١٥٤/٨)، والحلية (٩٦/٢).

جرم والله لنعذبك عذاباً شديداً. ثم ارتحلوا بنا من دارنا ونحن كنا
بذي الخلصة - وهو من صنعاء - فساروا يريدون منزلاً وحلوني على
جل ثقال، شر ركابهم وأغلظه، يطعموني الخبز والعسل، ولا يسقوني قطرة
من ماء حتى إذا انتصف النهار، وسخت الشمس، نزلوا فضربوا
أخبيتهم، وتركوني في الشمس حتى ذهب عقلي وسمعي وبصري، فعلوا بي
ذلك ثلاثة أيام. فقالوا لي في اليوم الثالث: اتركي ما أنت عليه. قالت:
ما دريت ما يقولون إلا الكلمة بعد الكلمة، وأشير باصبعي إلى السماء
بالتوحيد.

قالت: فوالله إني لعل ذلك، وقد بلغني الجهد إذ وجدت برد دلو على
صدري فأخذته فشربت منه نفساً واحداً، ثم انتزع مني فذهبت أنظر،
فإذا هو معلق بين السماء والأرض فلم أقدر عليه.

ثم دُلِّيَ إلي ثانية فشربت منه نفساً ثم رفع، فذهبت أنظر، فإذا هو
بين السماء والأرض، ثم دُلِّيَ إلي الثالثة فشربت منه حتى رويت وأهرقت
على رأسي ووجهي وثيابي.

قالت: فخرجوا فنظروا وقالوا: من أين ذلك هذا يا عدوة الله؟
فقلت لهم: إن عدو الله غيري من خالف دينه، وأما قولكم من أين هذا؟
فمن عند الله رزقاً رزقنيه الله.

قالت: فانطلقوا سراعا إلى قربهم وادأوبهم فوجدوها موكوءة لم تحل
فقالوا: نشهد أن ربك هو ربنا، وأن الذي رزقك ما رزقك في هذا
الموضع بعد أن فعلنا بك ما فعلنا هو الذي شرع الإسلام، فأسلموا
وهاجزوا جميعاً إلى رسول الله ﷺ. وكانوا يعرفون فضلي عليهم وما صنع
الله لي^(١).

(١) انظر الخبر في الطبقات الكبرى لابن سعد (١٥٥/٨، و١٥٦)، والإصابة لابن حجر
المسقلاني (٢٤٨/٨). وحلية الأولياء للأصبهاني (٩٦/٢ و٩٧).

فرحم الله أم شريك فقد ضربت أروع الأمثلة في الدعوة إلى الله،
وفي الثبات على الإيمان والعقيدة صابرة على الابتلاء معتصمة بالله.. وما
خطر لها على بال أن تلين، أو تضعف فتتنازل ولو قليلاً لتنقذ نفسها من
الموت والهلاك. بل كانت نتيجة الثبات أن أكرمها الله وافر عينها
بإسلام قومها، وهذا غاية ما يقصده المسلم من جهاده (.. فوالله لأن
يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)^(١).

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري في الجهاد، باب فضل من أسلم على يديه رجل
(٢٠/٤) ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه
برقم/٢٤٠٦.

أُمُّ الْفَضْلِ زَوْجَةُ الْعَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ

اسمها لبابة بنت الحارث، بن حزن، بن بجير، الهلالية، وهي لبابة الكبرى مشهورة بكنيتها، ومعروفة باسمها. وأم لبابة رضي الله عنها خولة بنت عوف القرشية، وهي إحدى الأخوات المؤمنات الأربعة اللاتي شهد لهن رسول الله ﷺ بالإيمان. وهم: ميمونة، وأم الفضل، وأسماء، وسلمى.

وأما ميمونة فهي أم المؤمنين رضي الله عنها وهي شقيقة أم الفضل، وأما أسماء وسلمى فأختاهما من أبيهما وهما بنتا عميس^(١).
وأم الفضل رضي الله عنها هي زوجة العباس عم النبي ﷺ وأم أولاده الرجال الستة النجباء الذين لم تلد امرأة مثلهم وهم:
الفضل، وعبد الله الفقيه، وعبيد الله الفقيه، ومعبد، وقثم، وعبد الرحمن. وفيها قال عبد الله بن يزيد الهلالي:

ما ولدت نجيبة من فحل مجبل نعلمه وسهل
كسته من بطن أم الفضل أكرم بها من كهلة وكهل

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٢٦٦/٨، ٢٦٧). والطبقات لابن سعد (٢٧٨/٨).

عم النبي المصطفى ذي الفضل وخاتم الرسل وخير الرسل^(١)
أسلمت أم الفضل رضي الله عنها قبل الهجرة، وهي أول امرأة
أسلمت بعد خديجة - أم المؤمنين - رضي الله عنها. فكان ابنها
عبد الله يقول:

كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان^(٢).
وكانت أم الفضل من عليّة النساء وفضلائهن فكان رسول الله ﷺ
يزورها ويقيم في بيتها^(٣).

وأم الفضل هي المرأة الشجاعة المؤمنة التي قضت على أبي لهب عدو
الله وقتلته، فقد أخرج ابن اسحاق عن عكرمة قال: قال أبو رافع مولى
رسول الله ﷺ:

كنت غلاماً للعباس، وكان الإسلام فأسلم العباس سرّاً، وأسلمت أم
الفضل وأسلمت، وكان العباس يهاب قومه.

وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، فبعث مكانه العاص بن هشام بن
المغيرة، وكذلك كانوا صنعوا، لم يتخلف منهم رجل إلا بعث مكانه
رجلاً.

فلما جاء الخبر من مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه،
فوجدنا في أنفسنا قوة وعزاً قال:

-
- (١) أنظر الطبقات لابن سعد (٢٧٧/٨)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب.
(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة النساء، باب (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله...)
(١٨١/٥)، وأخرجه البخاري أيضاً عن ابن أبي مليكة أن ابن عباس تلا: (إلا
المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) قال: كنت أنا وأمي من عذر الله.
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٧٨/٨).

وكننت رجلاً ضعيفاً، أعمل الأقداح أنحتها في حجرة زمزم، فوالله
إني لجالس وعندي أم الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخير، إذ
أقبل أبو لهب يجر رجله بشر حتى جلس. فبينما هو جالس إذ قال
الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث قد قدم. قال: فقال أبو لهب: هلم
إليّ، فعندك لعمرى الخبر، قال: فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال:
يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟.

فقال أبو سفيان: والله ما هو إلا أن لقينا القوم حتى منحناهم
أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا!!! وأيم الله مع
ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين الناس والأرض
والله لا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجره بيدي، ثم قلت: تلك والله
الملائكة. فرغ أبو لهب يده فضرب بها وجهي ضربة شديدة، فثاورته،
فاحتلمني وضرب بي الأرض، ثم برك عليّ يضربني وكننت رجلاً ضعيفاً،
فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجره فأخذته فضربت به ضربة
فلعت في رأسه شجة منكرة وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده؟..

فقام أبو لهب مولياً ذليلاً، فوالله ما عاش إلا سبع ليالي حتى رماه
الله بالعدسة فقتلته^(١).

(١) انظر حياة الصحابة (٢٨٧/٤) وما بعدها. وقد زاد يونس عن ابن اسحاق: فلقد
تركه أبناءه بعد موته ثلاثاً ما دفناه حتى اتن، وكانت قريش تتقي العدسة كما تتقي
الطاعون، حتى قال لهم رجل من قريش: ويحك ألا تستحيان إن أباكما قد أتتني في
بيته لا تدفناه؟ فقالا: إنا نخشى عدوة هذه القرحة، فقال: انطلقا فأنا أعينكما
عليه. فوالله ما غسلوه إلا قذفاً بالماء ما يدنون منه. ثم حفروا له حفرة ودفنوه بعود
في حفرة، ثم قذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه.

وهكذا نهاية كل من يتبجح في عداوته لله ولرسوله ﴿ذلك بأن لهم خزي في الحياة
الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من واقع﴾.

وهكذا فعلت المرأة المؤمنة الشجاعة بعدو الله فداست كبرياءه،
ومرغت كرامته بالوحل. فياله من فخر عظيم يفخر به التاريخ الإسلامي
بأم الفضل رضي الله عنها وبأمثالها من النساء اللاتي رباهن الإسلام.
وذكر ابن سعد في طبقاته الكبرى أن أم الفضل رضي الله عنها رأت
ذات يوم في منامها حلماً عجيباً فذهبت لتوها إلى رسول الله ﷺ وقالت:
يا رسول الله رأيت فيما يرى النائم كأن عضواً من أعضائك في بيتي!!
فقال رسول الله ﷺ: «خيراً رأيت، تلد فاطمة غلاماً وترضعه
بلبان ابنك (قثم)».

وخرجت أم الفضل بهذه البشري الكريمة وما هي إلا فترة وجيزة
حتى ولدت فاطمة (الحسين بن علي) رضي الله عنها. فكفلته أم الفضل.
قالت أم الفضل: فأتيت به رسول الله ﷺ فهو ينزيه ويقبله إذ بال
على رسول الله فقال: «يا أم الفضل أمسكي ابني فقد بال عليّ».
قالت: فأخذه فقرصته قرصة بكى منها وقلت: أذيت رسول الله
بلت عليه، فلما بكى الصبي قال رسول الله ﷺ: «يا أم الفضل أذيتني
في بني أبكيتيه».

ثم دعا رسول الله ﷺ بقاء فحدره حدرراً ثم قال: «إذا كان غلاماً
فاحدروه حدرراً، وإذا كان جارية فاغسلوه غسلاً».

وفي رواية قالت أم الفضل: اخلع ازرارك والبس ثوباً غيره كما
أغسله فقال صلى الله عليه وسلم: «إنما يغسل من بول الأنثى وينضح
من البول الذكر»^(١).

(١) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٧٩/٨) والإصابة (٢٦٧/٨) وانظر الحديث أيضاً
عند أبي داود في الطهارة، باب بول الصبي يصيب الثوب برقم ٢٧٥/ وهو حديث
حسن.

ومن مآثر لبابة بنت الحارث رضي الله عنها أنها حين كُثِرَ تساؤل الناس يوم عرفة هل رسول الله ﷺ صائم أم مفطر؟ فاستطاعت بحكمتها أن تزيل الالتباس عن المسلمين حيث استدعت أحد أولادها، وبعثت معه بكأس لبن إلى النبي ﷺ، وهو بعرفة، فتناوله النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وعلى مرأى من الناس كلهم تناول قدح اللبن فشربه^(١).

وإلى جانب كل هذا فقد تلقت أم الفضل الأحاديث الشريفة عن رسول الله ﷺ فروت ثلاثين حديثاً. فروى عنها ابنها عبدالله بن العباس رضي الله عنها، وتام مولاها، وأنس بن مالك وغيرهم.

وتوفيت رضي الله عنها في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد أن قدمت لنا نموذجاً طيباً يحتذى به في الأمومة الصالحة التي أنجبت أمثال عبدالله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، وفي البطولة النابعة من العقيدة الصحيحة التي جعلت منها لبوة كاسرة استطاعت أن تقضي على ألد أعداء الله.

(١) حديث صحيح، انظر الإصابة (٢٦٧/٨)، والطبقات (٢٧٩/٨).

وأخرجه البخاري في الصوم، باب صوم يوم عرفة (٢٤٨/٢) ومسلم في الصوم، باب استحباب الفطر للحجاج يوم عرفة برقم /١١٢٣/.

الرُّبَيْعُ بِنْتُ مَعُودٍ مُؤْمِنَةٌ بَايَعَتْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ

الرُّبَيْعُ بِنْتُ مَعُودٍ ، بن الحارث ، بن رفاعة ، بن الحارث ، بن سواد ، بن مالك ، ابن غنم ، بن مالك ، الأنصارية النجارية . وأمها أم يزيد بنت قيس ، بن زعواء ، بن حرام ، ابن جندب ، بن عامر ، بن غنم ، بن عدي ، بن النجار .

والربيع رضي الله عنها من السابقات إلى الإسلام، وقد عبرت عن صدق إيمانها وصلابة عقيدتها بأن بايعت رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام مع من بايع تحت الشجرة، تلك البيعة التي سميت ببيعة الرضوان، ففازت برضى الله عز وجل. القائل في كتابه العزيز: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١).

وكانت الربيع بنت معوذ رضي الله عنها من الصحابيات الجليلات اللاتي رباهن الإسلام فشاركن في الحياة الإسلامية، وأدين واجبهن في بناء المجتمع الإسلامي العظيم، فغزت في سبيل الله ضمن الحدود التي

(١) سورة الفتح الآيات ١٨ و ١٩ .

شرعها الإسلام، وبايعت رسول الله ﷺ، وروى عنه الحديث، وكانت عالمة بأمور دينها.

وقد عرف المسلمون قدرها، فكان كبار الصحابة يسألونها في أمور الدين. وكانت رضي الله عنها وصافة لرسول الله ﷺ، فعن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر قال: قلت للربيع: صف لي رسول الله ﷺ.

فقلت: يا بني لو رأيته لرأيت الشمس طالعة^(١).

وهي أيضاً الراوية لصفة وضوء النبي ﷺ فقد أخرج أبو داود في سننه عن الربيع قالت: (كان رسول الله ﷺ يأتينا فحدثنا أنه قال: «اسكني لي وضوءاً فذكرت وضوء رسول الله ﷺ وقالت فيه: «فغسل كفيه ثلاثاً..» الحديث^(٢).

وعنها أيضاً قالت: جاء رسول الله ﷺ حين بُني عليّ فدخل بيتي وجلس على فراشي فجعل جوويريات لنا يضرين بالدف ويندين من قتل من أبائهن يوم بدر، إذ قالت: إحداهن:

وفينا نبي يعلم ما في غد.

فقال لها رسول الله ﷺ: «دعي هذا وقولي بالذي كنت تقولين»^(٣).

وكانت رضي الله عنها قد تزوجت من إياس بن البكير من بني ليث فولدت له محمداً بن إياس وذات مرة جرى بينها وبينه كلام أو محاورة

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٨٠/٨).

(٢) أبو داود (٩٠/١)، والإصابة (٧٩/٨).

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب ضرب الدف في النكاح والوليمة (١٣٧/٦) وأبو داود في الأدب، باب النهي عن الغناء برقم ٤٩٢٢/١. والترمذي في النكاح، باب ما جاء في إعلان النكاح برقم ١٠٩٠/١.

علمت فيها أن الحياة معه صعبة فقالت له: لك كل شيء لي وفارقني.
فقال لها: قد فعلت.

قالت: فدفعت له كل شيء غير درعي، فخاصمني إلى عثمان فقال: له
شرطه، فدفعته إليه^(١).

وأما عن مشاركتها في الجهاد مع المسلمين فحدث ولا حرج. فقد
كانت الربيع رضي الله عنها تغزو مع المسلمين فتقوم بسقاية القوم
وخدمتهم ورد القتلى والجرحى إلى المدينة.. وكانت توفر لأبطال الجيش
الإسلامي في الميدان كل ما يدهم بأسباب القوة من التشجيع والزاد و..
وإذا ما اقتضى الأمر مشاركتها في القتال تنقلب إلى فارس شجاعة
ترمي أعداء الله في نحورهم وترد كيدهم^(٢).

وتوفيت رحماً الله أيام معاوية سنة ٤٥ هـ بعد أن أعطت في حياتها
مثالاً للمرأة المسلمة في برها وتقواها وعلمها وجهادها في سبيل الله.

(١) الإصابة (٨٠/٨) والطبقات (٤٤٧/٨).

(٢) حديث مشاركتها الجهاد أخرجه البخاري ونقله عنه العسقلاني في الإصابة (٨٠/٨).

الخنساء أم الشريد

إسمها تماضر بنت عمرو ، بن الحارث ، بن الشريد .
كانت شاعرة شهيرة ، تفجر الشعر على لسانها بعد فجيعتها . بأخيها
صخر في الجاهلية فرثته رثاءً حزيناً جعل منها أعظم شاعرة للرثاء ،
ومن أجل قصائدها في صخر القصيدة التي مطلعها :

قذى بعينيك أم بالعين عوار أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار
ومن جميل ما قالته أيضاً :

أعينى جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا
قدّمت على رسول الله ﷺ مع قومها من بني سليم ، وأعلنت إسلامها
وتبنيها لعقيدة التوحيد ، وحسّن إسلامها حتى أصبحت رمزاً متألقاً من
رموز البسالة ، وعزة النفس ، وعنواناً مشرفاً للأئمة المسلمة .
كان رسول الله ﷺ يستنشد بها ويعجبه شعرها ، وكانت تنشده وهو
يقول : « هيه يا خناس ويومي بيده »^(١) .

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٦٦/٨) .

ولما قدم عدي بن حاتم على رسول الله ﷺ وحادثه فقال: يا رسول الله إن فينا أشعر الناس، واسخى الناس، وأفرس الناس.

فقال النبي ﷺ: «سمهم».

فقال: أما أشعر الناس فأمرؤ القيس بن حجر، وأما أسخى الناس فحاتم بن سعد - يعني أباه، وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكرب.

فقال رسول الله ﷺ:

«ليس كما قلت يا عدي، أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو، وأما أسخى الناس فمحمّد يعني يعني نفسه صلى الله عليه وسلم - وأما أفرس الناس فعلي بن أبي طالب».

وإلى جانب شعرها - الذي تميزت به حتى قيل فيها: لقد أجمع أهل العلم بالشعر أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها^(١) - فقد كان لها مواقف نضالية رائعة في سبيل الزود عن الدين ونصرة الحق، فخرجت في كثير من غزوات المسلمين، وصحبت جيوشهم الظافرة.

ولما توجه المثنى بن حارثة الشيباني إلى القادسية - زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه - كانت الخنساء ومعها أولادها الأربعة في رفقة هذا الجيش.

وفي أرض المعركة وليلة التحام الصناديد مع بعضهم البعض جمعت الخنساء أولادها الأربعة لتوجههم، وتحرضهم على القتال، وعدم الفرار، وتحبب إليهم الاستشهاد في سبيل الله، فلنستمع إلى تلك الوصية العظيمة: وهي تقول:

(١) انظر الإصابة في تمييز الصحابة (٦٧/٨).

(يا بني انكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين ووالله الذي لا إله إلا هو إنكم بنو امرأة واحدة ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَٰبِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالين فأعدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطربت لظى على سياقها، وجللت ناراً على أرواقها، فتيمنوا وطيسها، وجالدوا رئيسها عن احتدام حيسها تظفروا بالغنم والكرامة في الخلد والمقامة....

واستمع أولادها إلى تلك الوصية، وخرجوا من عندها قابلين لنصحها عازمين على قولها. فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم واندفعوا إلى لقاء العدو وهم يرتجزون فقال أولهم:

يا إخوتي إن المعجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالة ذات بيان واضحة فباكروا لحرب الضروس الكالحة
وانما تلقون عند الصائحة من آل ساسان الكلاب النابجة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحه وأنتم بين حياة صالحة
أو ميتة تورث غناً رابجة

ثم تقدم فقاتل حتى قتل، فحمل الثاني وهو يردد:

إن المعجوز ذات حزم وجلد والنظر الأوفى والرأي السدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد نصيحة منها وبراً بالولد

(١) سورة آل عمران، آية ٢٠٠.

فباكروا الحرب حماة في العدد إما لفوز بارد على الكبد
أو ميتة تورثكم عز الأبد في جنة الفردوس والعيش الرغد

ثم تقدم وقاتل حتى استشهد، فحمل الثالث وهو يقول:

والله لا نعصي العجوز حرفاً قد أمرتنا حرباً وعطفاً
نصحاً وبراً صادقاً ولطفاً فبادروا الحرب، الضروس زحفاً
حتى تلقوا آل كسرى لفاً أو يكشفوكم عن حاكم كشفاً
إنا نرى التقصير منكم ضعفاً والقتل فيكم نجدة وزلفى

ثم تقدم فقاتل حتى استشهد، فحمل الرابع وهو يرتجز أيضاً:

لست لخنساء ولا للأخرم ولا لعمر وذي السناء الأقدم
إن لم أرد في الجيش جيش الأعجم ماض على الهول خضم خضرمي
إما لفوز عاجل ومغنم أو لوفاة في السبيل الأكرم

ثم تقدم فقاتل حتى قتل.

ولما بلغ الخبر إلى الأم المؤمنة الصابرة، لم تمزع، ولم تندب، بل قالت
قولتها المشهورة التي بقي التاريخ يرددها وسيردها إلى ما شاء الله:
(الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم
في مستقر رحمته).

وكان عمر بن الخطاب يعرف فضل الخنساء وأولادها فما زال يعطيها
أرزاق أولادها الأربعة حتى قبض.

وتوفيت الخنساء بالبادية في أول خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه
سنة ٢٤هـ^(١).

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٦٦/٨ و ٦٧).

فرحم الله الحنساء لقد كانت أم لا ككل الأمهات ، ولو كانت أمهات
الإسلام فيما بعد مثلها لما ضاع الذي ضاع .. فلا نامت أعين الجبناء ...

خَوْلَةُ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ الْمَرْأَةُ الَّتِي سَمِعَ اللَّهُ شَكْرَهَا مِنْ قَوْلِ سَبْعِ سَمَوَاتٍ

هي خولة بنت ثعلبة، بن أصرم، بن فهر، بن ثعلبة، بن غنم، بن عوف، من ربات الفصاحة والبلاغة، تزوجها أوس بن الصامت، بن قيس، أخو عبادة بن الصامت رضي الله عنها. وهو ممن شهد بدرًا وأُحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وانجبت منه خولة ولدها (الربيع).

راجعت خولة بنت ثعلبة زوجها أوس بن الصامت بشيء فغضب فقال: (أنت علي كظهر أمي، ثم خرج الزوج بعد أن قال ما قال فجلس في نادي القوم ساعة ثم دخل عليها يريدنها عن نفسها، ولكن يقظة الضمير وحساسية الشعور عند خولة أثبت أن توافقه حتى تعلم حكم الله في مثل هذا الحدث الذي يحدث لأول مرة في تاريخ الإسلام. فقالت: كلا والذي نفس خولة بيده، لا تخلصن إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه).

وخرجت خولة حتى جاءت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت من زوجها، وهي بذلك تريد أن تستفيته وتجادله في الأمر، ورسول الله ﷺ يقول: «ما أمرنا في أمرك بشيء.. ما أعلمك إلا قد حرمت عليه، والمرأة المؤمنة تعيد الكلام وتبين لرسول الله ﷺ ما قد يصيبها وإبنها إذا افترقت عن زوجها، وفي كل مرة يقول لها رسول الله ﷺ: ما أعلمك إلا قد حرمت عليه».

وهنا رفعت المرأة المؤمنة يديها إلى السماء وفي قلبها حزن وأسى،

وفي عينها دموع وحسرة، واتجهت إلى من لا يحيب من دعاه قائلة:

اللهم إني أشكو إليك ما نزل بي..

فله در نساء العقيدة الصحيحة أمثال خولة، فهي تقف بين يدي رسول الله ﷺ مجادلة (محاورة) مستفتيه، أما الإستغاثة والشكوى فلا تكون إلا لله تعالى. وهذا هو صريح الإيمان والتوحيد الذي تعلمه الصحابة من رسول الله ﷺ.

وما كادت المرأة تفرغ من دعائها حتى تغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه عند نزول الوحي. ثم سرى عنه. فقال رسول الله ﷺ: «يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً ثم قرأ عليها ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ خَاوِرًا أَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله...

﴿وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ المجادلة / ١ - ٤ / .

ثم بين لها رسول الله كفارة الظهار فقال لها: «مريه فليعتق رقبه» فقالت: يا رسول الله ما عنده ما يعتق. فقال: «فليصم شهرين متتابعين» قالت: والله إنه لشيخ كبير ما له من صيام.

قال: «فليطعم ستين مسكيناً من تمر» فقالت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده. فقال عليه الصلاة والسلام: «فإننا نستعينه بفرق من تمر». فقالت خولة يا رسول الله وأنا أستعينه بفرق آخر.

فقال لها رسول الله ﷺ: «قد أصبت وأحسن فتصديقي به عنه، ثم استوصي بأبن عمك خيراً» ففعلت^(١).

(١) راجع قصة المجادلة خولة بنت ثعلبة مفصلة في مسند الإمام أحمد (٤٦/١) والهاكم في المستدرک (٤٨١/٢) والخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ والنسائي في النكاح باب الظهار (١٦٨/٦) وفي كتب التفسير. أوائل سورة المجادلة.

هذه هي قصة المجادلة لسيد ولد آدم عليه أفضل الصلاة والسلام تحمل في طياتها من العبر والدلالات ما يجعل المرأة المسلمة ترفع رأسها عالياً بفخر واعتزاز لتقدير الإسلام واهتمامه بها.

ولقد قالت في هذا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ...﴾^(١)).

هذه المرأة المؤمنة التي رباها الإسلام توقف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الطريق لتعظه وتنصحه قائلة: (يا عمر عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ ترعى الصبيان بعصاك، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب)، كل هذا وعمر أمير المؤمنين واقف وقد احنى إليها رأسه وهو يسمع كلامها.

ولكن الجارود العبدى وكان يرافق عمر بن الخطاب قال لها: قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين. فقال عمر: دعها أما تعرفها؟ هذه خولة التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات فعمر أحق أن يسمع لها. وفي رواية قال عمر: (والله لو لم تنصرف عني إلى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها إلا أن تحضر صلاة فأصليها، ثم أرجع إليها حتى تقضي حاجتها).

(١) سورة المجادلة آية ١. وانظر قول عائشة في البخاري في كتاب التوحيد تعليقا، باب قول الله تعالى وكان الله سميعاً بصيراً (١٦٧/٨) والنسائي موصلاً في النكاح، باب الظهار (١٦٨/٦).

أُمُّ رُومَانَ زَوْجِ الصَّبِيِّ وَأُمِّ الصَّبِيَّةِ

بنت عامر ، بن عويمر ، بن عبد شمس ، بن عتاب ، بن أذينة ، بن
سُبيح ، بن دهمان ، بن الحارث ، بن غنم ، بن مالك ، بن كنانة .
اختلف في اسمها فقيل: زينب، وقيل: دعد^(١).

نشأت أم رومان في جزيرة العرب في منطقة تدعى (السراة)، وكانت
ذات جمال، وأدب، وفصاحة. فتزوجها أحد شباب عصرها البارزين في
قومه (الحارث بن سخيصة الأزدي) فولدت له (الطفيل).

وكان زوجها الحارث يرغب في الإقامة في مكة، فسافر بها وبأبنها
إلى هناك، وعلى عادة العرب آنذاك كان لا بد للحارث أن يدخل في
حلف أحد الأشخاص البارزين يحتمي به، فحالف عبدالله بن أبي
قحافة - أبا بكر الصديق - رضي الله عنه. وكان ذلك قبل الإسلام.

وبعد فترة من الزمن توفي الحارث بن سخيصة، فما كان من أبي بكر
إلا أن تقدم لها كماداتهم وقتئذ إكراماً لصاحبه بعد مماته، وقبلت أم
رومان به زوجاً كريماً يحافظ عليها بعد وفاة زوجها.

(١) انظر الإصابة في تمييز الصحابة للمسقلاني (٢٣٢/٨).

وكان أبو بكر رضي الله عنه متزوجاً قبل ذلك وله من الولد (عبد الله، وأسماء) ثم ولدت له أم رومان ولدين آخرين هما: عبد الرحمن، وعائشة أم المؤمنين.

وما إن بُعث النبي ﷺ حتى كان أبو بكر الصديق أول من آمن بصدقه وآمن بدعوته من بين الرجال، ثم عمد إلى زوجته أم رومان يحدثها ويدعوها إلى الخير الذي رضىه لنفسه، فأمنت معه وأسلمت واستكتمها الأمر إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وكان النبي ﷺ يتردد على دار أبي بكر بين الحين والحين فتتلقاه أم رومان بالبشر والسرور، وتضيفه أحسن الضيافة، وتؤمن له كل وسائل الراحة والهناء.

وهكذا غدت دار أبي بكر مأوى كريماً لرسول الله ﷺ، وبيتاً إسلامياً طيباً، وكانت أم رومان رضي الله عنها مثال الزوجة الصالحة التي تقف إلى جانب زوجها تخفف آلامه وتواسيه في تلك الأيام الصعبة القاسية التي يمر بها المسلمون الأوائل، بل كانت تشد من أزر زوجها وتشاركه في حماسه، وما يبذله في سبيل الدعوة الإسلامية نصره للحق، وشراء الحرية الكثير من المسلمين المستضعفين.

وإلى جانب هذا وذاك كانت نعم الأم الحانية المربية فقد ربت ولديها عبد الرحمن وعائشة أحسن التربية، ورعتها أحسن الرعاية.

ولما تقدم رسول الله ﷺ لخطبة (عائشة رضي الله عنها)، انصياًعاً لأمر الله تعالى سُرَّتْ أم رومان أيما سرور بتلك المصاهرة الكريمة التي لا يدانيها شرف.

ومع اشتداد أذى المشركين للمسلمين، وتفاقم طغيانهم وظلمهم كان الله عز وجل قد أذن للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، وبقي النبي ﷺ وأهل بيته، وكذلك صاحبه الصديق وأهل بيته، إنتظاراً لأمر الله جل وعلى،

ومن ثم جاء الأمر، وهاجر النبي ﷺ برفقة أبي بكر رضي الله عنه، وبقيت أم رومان لتحمل المسؤولية الكبرى وتحمل شدة التغطرس الجاهلي، وهو يتوعددهم ويهددهم. تقول أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: (لما خرج أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خدي لكمة طرح منها قرطي)^(١).

ولما وصل رسول الله ﷺ وصاحبه إلى المدينة واستقر، بعث زيد بن حارثة ومعه أبا رافع، وبعث أبو بكر عبدالله بن أريقط، فصادفوا طلحة يريد الهجرة فهاجروا جميعاً، والتحقوا برسول الله ﷺ وبالمؤمنين في المدينة.

وفي المدينة بنى رسول الله ﷺ بعائشة رضي الله عنها، وكانت المصاهرة الجديدة سبباً آخر من أسباب تقوية الوشائج بين البيتين الكريمين، وتعاطمت فرحة أم رومان بما كانت تراه من حذب النبي ﷺ على عائشة ومحبه لها، وبما أتيح لها من كثرة التردد على بيت النبي ﷺ والاستزادة من نبع النبوة الصافي.

ودارت الأيام وكان ما لم يكن بالحسبان، ورميت عائشة أم المؤمنين الصديقة ابنة الصديق - بالإفك، وسرت اكذوبة المنافق الكبير (ابن سلول) وتناقلتها الألسنة، وسمعت أم رومان رضي الله عنها بما يقال ويشاع فخرت مغشياً عليها من هول ما سمعت، ولكنها بعد أن أفاقت كتمت الأخبار عن ابنتها رحمة وشفقة وهي تتضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يبرئ ساحة ابنتها.

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٣١ و ١٣٢).

ولما شاء الله أن تعلم عائشة ما يشاع على الألسنة عن طريق أم مسطح بن أثانة ، عادت إلى بيت أبيها شاكية باكية تلوم أمها على كتابتها الأمر .

فقالت أم رومان رضي الله عنها والدموع تغسل وجهها :
- أي بنية .. هوني عليك الشأن - فوالله لقل ما كانت امرأة حسناء عند زوج يحبها ولها ضرائر إلا كثرن وكثر عليها الناس .
واستجاب الله لتلك القلوب المؤمنة الصادقة وانزلت تبرئة الصديقة أم المؤمنين رضي الله عنها بقرآن يتلى ويتعبد به الناس إلى قيام الساعة ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ﴾^(١) .

وكانت هذه الفترة من حياة أم رومان رضي الله عنها من أقسى ما عانت وواجهت وأثر فيها ذلك تأثيراً بالغاً مرضت على أثره فلازمتها عائشة رضي الله عنها بعض الوقت تقوم على خدمتها حتى توفاه الله سبحانه وتعالى .

ونزل رسول الله ﷺ في قبرها واستغفر لها وقال :
« اللهم إنك تعلم ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك »^(٢) .
رضي الله عن أم رومان فقد كانت من السابقين إلى الإسلام ، وقامت بكل مقتضيات الإيمان ، فهاجرت ، وصبرت ، وتحملت أعباء الدعوة لله .

(١) سورة النور ، من الآية ١١ - ١٩ . وانظر حديث الإفك بطوله عند البخاري في تفسير سورة النور ، باب لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً (٥/٦) ، ومسلم في التوبة ، باب حديث الإفك برقم /٢٧٧٠/ .
(٢) انظر الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني (٢٣٢/٨) .

أمّ عمارة الفدائية الرميّة

نسبية بنت كعب ، بن عمرو ، بن عوف ، بن مبذول ، الأنصارية ،
إحدى نساء بني مازن النجار .

وهي من طليعة نساء المدينة اللواتي سارعن إلى الإسلام ، فقد كانت
إحدى امرأتين رحلتا مع طلائع الأنصار إلى مكة حيث كانت المباعدة
لرسول الله ﷺ .

كانت أمّ عمارة رضي الله عنها إلى جانب فضلها وصلاحها مجاهدة
شجاعة جريئة لا تهاب الموت في سبيل الله .

خرجت نسبية رضي الله عنها إلى غزوة أحد مع زوجها (غزية بن
عمرو) ، ومع ولديها من زوجها الأول (زيد بن عاصم بن عمرو) . وهما
(عبد الله وحبيب) ^(١) . فكانت في أول النهار تسقي الجرحى ، ولما انهزم
المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ بالسيف وأخذت ترمي بالقوس ،
وتقاتل أشد القتال وهي حائزة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة
عشر جرحاً . أبلغها جرح في عاتقها ، أصابها به عدو الله ابن قميئة ،
وظلت تداوي هذا الجرح عاماً كاملاً ..

(١) انظر طبقات ابن سعد (٤١٢/٨)

وقد استخفت رضي الله عنها بجرحها الخطير يوم نادى منادي رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد فشدت عليها ثيابها، ولكنها ما استطاعت من نزف الدم.

تحدثت أم عمارة عن وقعة أحد فقالت: رأيتني وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ، فما بقي إلا في نفر ما يتممون عشرة، وأنا وابنائي وزوجي بين يديه نذب عنه، والناس يرون منهزمين، ورآني صلى الله عليه وسلم ولا ترس معي، ورأى رجلاً مولياً ومعه ترس، فقال: «ألق ترسك إلى من يقاتل»، فألقاه، فأخذته فجعلت أترس به عن رسول الله، وإنما فعل بنا الأفاعيل أصحاب الخيل، لو كانوا رجالاً مثلنا أصبناهم إن شاء الله. فأقبل رجل على فرس ف ضربني فتترست له فلم يصنع سيفه شيئاً وولى، ف ضربت عرقوب فرسه فوقع على ظهره، فجعل النبي يصيح: «يا ابن أم عمارة، أمك، أمك»، فعاونني عليه، حتى أوردته شعوب^(١).

وحدث ابنها عبدالله بن زيد فقال: جرحت يومئذ جرحاً، وجعل الدم لا يرقأ فقال النبي ﷺ: «أعصب جرحك» - وكانت أم عمارة لاهية بقتال الأعداء، فلما سمعت نداء النبي ﷺ أقبلت إليّ ومعها عصائب في حقوها فربطت جرحي والنبي ﷺ واقف فقالت لي أمي: انهض بني وضارب القوم. فجعل النبي ﷺ يقول: «ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة!!».

ثم أقبل الذي ضربني فقال رسول الله ﷺ: «هذا ضارب ابنك يا أم عمارة». قالت أم عمارة: فاعترضت له ف ضربت ساقه فبرك.

(١) شعوب: اسم من أسماء المنية (أي قتلته). أنظر الخبر في طبقات ابن سعد (٤١٣/٨)، (٤١٤). ونقله عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٧٩/٢).

ورأت أم عمارة رسول الله ﷺ يتسم من فعلها حتى بدت نواجزه وهو يقول: «استقدت منه يا أم عمارة». ثم أقبلوا يعلونه بالسلاح حتى أتوا على نفسه، فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي ظفرك وأقر عينيك من عدوك وأراك تارك بعينك»^(١).

وتمضي الأيام، وتظل الفدائية المؤمنة تخدم الإسلام، وتؤدي واجبها بكل ما تستطيع في الحرب والسلام. فشهدت مع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان في الحديبية، وهي بيعة المعاهدة على الشهادة في سبيل الله، كما شهدت يوم حنين.

ولما انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى أرتدت بعض القبائل عن الإسلام وعلى رأسهم مسيلمة الكذاب، وما إن اتخذ الخليفة الصديق رضي الله عنه بقراره الحاسم بمحاربة أهل الردة حتى سارعت أم عمارة إلى أبي بكر الصديق تستأذنه بالإلتحاق بهذا الجيش لمحاربة المرتدين عن الإسلام، فيقول لها الصديق رضي الله عنه: لقد عرفنا بلاءك في الحرب فاخرجي على اسم الله. فخرجت ومعها ابنها حبيب بن زيد بن عاصم.

وأبلى نسيبة في هذه المعركة بلاء حسناً وتعرضت لكثير من المخاطر وهي ثابتة مقدامة تمنى نفسها بنعمة الاستشهاد في سبيل الله. ويقع ابنها حبيب أسيراً في يد المجرم مسيلمة الكذاب ويذيقه أشد أنواع العذاب من أجل أن يؤمن بنبوته، ولكن أنى لأبن أم عمارة الذي ربي على الصبر والمصابرة عند اللقاء، وعلى حب الموت في سبيل الله، أن يخضع لتهديد المجرم الآثم الذي يقول له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول نعم.

(١) ابن سعد في الطبقات (٤١٤/٨).

فيقول له: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع.

ويقطع مسيلمة الكذاب جسم حبيب حتى مات.

وتخرج أم عمارة إلى معركة اليمامة مع ابنها الآخر عبد الله. وكانت معركة قاسية أظهرت فيها أم عمارة من الفدائية ما يذهل أعظم الرجال، وكانت خريصة على أن تقتل مسيلمة بيدها ثأراً لابنها حبيب، ولكن قدر الله أن يكون القاتل له ابنها عبد الله الذي ثار لشقيقه حبيب.

وقد اشترك في قتل مسيلمة مع عبد الله وحشي بن حرب، وما إن علمت أم عمارة بموت الطاغية الكذاب حتى سجدت شكراً لله. وخرجت أم عمارة من المعركة باثني عشر جرحاً، بعد أن فقدت ذراعها وفقدت ابنها الآخر عبد الله.

ولقد عرف المسلمون في عصرها قدرها. فهذا أبو بكر الصديق يأتيها في منزلها يتفقدها أحوالها ويطمئن عليها. وخالد سيف الإسلام يشرف على علاجها، ولا بد للمسلمين في عصرنا أن يعرفوا أيضاً حقها، فقد كانت حقاً منارة عالية في التاريخ الإسلامي، وتستحق أن تكون قدوة للمرأة المسلمة على مر العصور في التضحية، وبذل الغالي والرخيص في سبيل العقيدة الإسلامية.

أمّ محجّن

دَرْشَن لَينَسَى

.. أماه: .. أختاه:...

لا تحتقري من عمل الخير شيئاً مهما قل، واعلمي أنك مدعوة لأداء دورك في البذل والتضحية لبناء صرح الإسلام العظيم، وإياك أن يغيب عن بالك ولو لحظة واحدة ما يكيد لك أعداء الإسلام، فهم يريدون أن يصرفوك عن مهمتك الشريفة، ويجبطون جهودك في خدمة الدين وبناء الأمة.

وإياك ثم إياك أن تبرري تقاعسك بأنك ضعيفة ولا تملكين حيلة في المساهمة في إشادة المجتمع الإسلامي، فهذه المبررات من إيجاءات شياطين الإنس والجن.

وها نحن أولاء نضع بين يديك في خاتمة المطاف سيرة الصحابية العجوز السوداء التي كانت درساً للمسلمين على مدار التاريخ بجهداتها المتواضع وكان هو منتهى جهدها.

إنها امرأة سوداء يقال لها (أم محجن)، وقد ذكرت في الصحيح بغير تسمية، وهي من أهل المدينة^(١).

(١) انظر الإصابة في تميز الصحابة (١٨٧/٨).

كانت رضي الله عنها مسكينة ذات بنية ضعيفة، ولذا كانت تحظى باهتمام الرسول القائد صلوات الله عليه وسلامه، لأنه كان يعود المساكين ويسأل عنهم، ويؤاكلهم.. فهلا عرفتم هذا يا قادة الأمم؟..

وكانت رضي الله عنها تدرك أن عليها واجباً تجاه عقيدتها ومجتمعها الإسلامي فإذا عساها أن تفعل وهي عجوز ضعيفة؟؟ ولكنها لم تتردد ولم تتقاعس، ولم تترك مجالاً لليأس إلى قلبها، فاليأس لا يعرف إلى قلوب المؤمنين سبيلاً.

وهكذا هداها إيمانها لتؤدي دورها فتقوم بالتقاط الحرق والقذى والعيدان من المسجد، وتلقي بالكناسة في أماكنها، فتحافظ على نظافة بيت الله، ذلك البيت ذو الأهمية الكبرى في الإسلام، فهو جامعة تخرج الأبطال والعلماء، وهو برلمان يعقد في اليوم خمس مرات للتشاور والتفاهم والتحاب، كما أنه معهد للتربية العملية الأساسية في بناء الأمم. هكذا كان المسجد في عهد الرسول ﷺ، وظل كذلك في عهد أصحابه، وهكذا يجب أن يكون اليوم وحتى قيام الساعة.

ومن أجل ذلك لم تضن أم محجن رضي الله عنها بجهدا المتواضع، وهو غاية ما يمكن أن تقدمه - ولم تحتقر مهمة التقاط القمامة لتهدئ لرسول الله ﷺ وصحبه الجو النظيف في مؤتمراتهم العالمي الدائم الانعقاد.

واستمرت أم محجن رضي الله عنها تؤدي مهمتها إلى أن وافتها المنية في عهد رسول الله ﷺ، فاحتملها الصحابة رضوان الله عليهم بعد العتمة، فوجدوا رسول الله ﷺ قد نام فكروها أن يوقظوه، فصلوا عليها ودفنوها ببقيع الفرقد.

ولما كان الصباح افتقدوا رسول الله ﷺ، فسأل أصحابه عنها. فقالوا: قد دفنت يا رسول الله، وقد جئناك فوجدناك نائماً، فكرهنا أن نوقظك، قال: «فانطلقوا» فانطلق يشي ومشوا معه، حتى أروه

قبرها. فقام رسول الله ﷺ وصفوا وراءه، فصلى عليها، وكبر أربعاً^(١).
فمن أبي هريرة رضي الله عنه: أن امرأة سوداء كانت تقم
المسجد - أو شاباً - فقدتها رسول الله ﷺ، فسأل عنها - أو عنه -
فقالوا: مات قال: «أفلا كنتم اذنتموني؟» قال: فكأنهم صَغَرُوا
أمرها - أو أمره - فقال: دلوني على قبره، فدلوه فصلى عليها، ثم قال:
«إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله ينورها لهم
بصلاتي عليهم»^(٢).

فرحم الله أم محجن رضي الله عنها فقد كانت مسكينة ضعيفة ومع
ذلك قدمت كل ما بوسعها، فكانت درساً للمسلمين على مدار التاريخ
لعدم احتقار شيء من العمل مهما قل.

وبذلك كانت موضع اهتمام الرسول ﷺ حتى بعد موتها لذا عتب على
أصحابه رضوان الله عليهم لعدم إعلامهم إياه بوفاتها ليقوم بتشيعها إلى
مثواها الأخير في الدنيا، بل لم يكتف بذلك وإنما سارع إلى قبرها ليصلي
عليها لينور الله قبرها بصلاته.

أماء: .. أختاه: .. هل عرفت بعد هذا ما هو المطلوب منك تجاه
دينك وأمتك؟ .. وأياً كان الجواب فهلمي معنا لتزدادي علماً بالواجب
الملقى على عاتقك من خلال معرفة بيعة النساء.

(١) انظر الإصابة (١٨٧/٨) والموطأ (٢٢٧/١) والنسائي (٦٩/١) وهو مرسل ولكن جاء
معناه في الحديث الذي بعده موصولاً برواية البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري في المساجد، باب كنس المسجد والتقاط الحرق والقذى والميدان
(١١٨/١). ومسلم في الجنائز، باب الصلاة على القبر برقم ٩٥٦/.

بَيْعُ النِّسَاءِ

بيعة النساء

سبق أن قلنا في مقدمة الكتاب: إن الأبالسة من أعداء الإسلام قد أدركوا الدور البارز للمرأة المسلمة في بناء المجتمع الإسلامي العظيم منذ أن بايعت النبي ﷺ وحتى اليوم ما دامت تعتبر أن تلك البيعة أمانة في عنقها، ومن ثم تؤدي مستلزماتها.

وقلنا أيضاً: بأن هؤلاء الأعداء الخبيثاء قد وجدوا بأن خير وسيلة للقضاء على المرأة المسلمة، وإخراجها عن وظيفتها الأساسية، هو سلب تلك البيعة الكريمة من عنقها.

وحرى بنا الآن أن نتحدث ولو بشيء من الإيجاز عن أركان تلك البيعة المباركة التي صاغت من نساء المسلمين أفذاذاً، وجعلت منهن أعلاماً ومنارات يحتذى بهن كما لمسنا ذلك في سيرتهن رضي الله عنهن.

والذي يهمنا في هذا المقام توضيح موضوع البيعة، لا سرد وقائعها، فالبيعة من النساء للنبي ﷺ قد تعاقبت على مدى حياته الشريفة منذ أن اختاره الله جل شأنه نبياً رسولاً، إلى أن التحق بالرفيق الأعلى.

وقد اتخذت بيعة النساء صوراً مختلفة من حيث الشكل فقط حيث كانت تتم أحياناً باللقاء الفردي، وباللقاء الجماعي أحياناً أخرى. وهي تعني بمضمونها: إعطاء العهد من المبايع على التزام ما يطلبه منه طالب البيعة.

هذا وقد تتنوع البيعة في الشرع بحسب الأمر المباع عليه، والآية ١٢ من سورة الممتحنة هي مدار بحثنا لأنها تتضمن أركان بيعة النساء التي نحن في صدددها.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

أجل.. هذه هي الأسس والمقومات الكبرى للعقيدة الإسلامية، كما أنها مقومات الحياة الاجتماعية الصالحة، وهي المحور لبيعة النساء من خلال أركانها الست:

- ١ - على أن لا يشركن بالله شيئاً.
 - ٢ - ولا يسرقن.
 - ٣ - ولا يزنين.
 - ٤ - ولا يقتلن أولادهن.
 - ٥ - ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن.
 - ٦ - ولا يعصينك في معروف.
- والآن إلى شيء من التفصيل في بنود هذه البيعة الميمونة.

(١) سورة الممتحنة، آية ١٢.

وأول الأركان: (..أن لا يشركن بالله شيئاً).

والشرك هو انقطاع الصلة ما بين الله والعباد، والمقصود بالشرك هنا ما هو ضد التوحيد، وهو ينقسم إلى قسمين: شرك أكبر - وشرك أصغر.

أما الشرك الأكبر: هو اتخاذ العبد من دون الله نداً يسويه برب العالمين، يحبه كحب الله، ويخشاه كخشيتة، ويلتجئ إليه ويدعوه، ويخافه ويرجوه، ويرغب إليه، ويتوكل عليه، أو يطيعه في معصية الله، أو يتبعه على غير مرضاة الله.

وهذا الشرك ينافي التوحيد بالكلية، ويخرج صاحبه من دائرة الإسلام، ولا يعذر صاحبه بالجهل إذا مات عليه، ولا يبقى للإنسان أصل في مغفرة إذا خرج من الدنيا وهو على هذا الشرك ويخلد صاحبه في النار والعياذ بالله.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾^(١).

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾^(٢).

وقال النبي ﷺ: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»^(٣).

(١) سورة النساء، آية ٤٨.

(٢) سورة المائدة، آية ٧٢.

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب التوحيد في أول الباب قصة بعث معاذ بن جبل رضي الله عنه نحو اليمن (١٦٤/٨).

وأخرجه مسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً برقم ٣٠/.

وأما الشرك الأصغر: فهو يسير الرياء الداخل في تحسين العمل المراد به وجه الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١).

وقال النبي ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» فُسئل عنه فقال: الرياء^(٢).

ثم فسره بقوله صلى الله عليه وسلم: «يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل إليه»^(٣).

ومن الشرك الداخل في هذا النوع: الحلف بغير الله. كالحلف بالآباء، والأنداد، والكعبة، والأمانة وغيرها. والأحاديث في ذلك كثيرة وصحيحة ليس هنا مجال التوسع فيها.

وهذا النوع من الشرك لا يخرج صاحبه من الملة، ولكنه ينقص ثواب العمل، وقد يحبط العمل إذا زاد وغلب على الإخلاص. فاللهم أجعل أعمالنا كلها صالحة، واجعلها لوجهك خالصة، ولا تجعل لأحد فيها شيئاً.

هذا والشرك يتحقق بشكل عام باتخاذ آلهة مع الله اتخاذاً صريحاً، كما يتحقق بعدم أفراد الله بخصائص الألوهية، والاعتراف لبعض البشر بهذه الخصائص. كخاصية الألوهية والحاكمية وغيرها.. كإشراك اليهود

(١) سورة الكهف، آية ١١٠.

(٢) الحديث صحيح أخرجه أحمد (٤٣٨/٥) والبخاري في شرح السنة (٣٢٤/١٤) والمهشمي في مجمع الزوائد (١٠٧/١) وقال: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح. وذكره الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٩٥١/ وقال اسناده جيد.

(٣) جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٠/٣) وابن ماجه برقم ٤٢٥٧/ وقال الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حديث حسن وعزاه للبيهقي أيضاً.

والنصارى الذي حكاه القرآن الكريم من أنهم ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾^(١). مع أنهم لم يكونوا عبدوهم مع الله،
ولكن فقط اعترفوا لهم بحق الحاكمية والتشريع من دون الله، فحرموا
عليهم وأحلوا لهم فاتبعوهم فحق عليهم وصف الشرك عندما تفلتوا من
المعايير الثابتة والمقاييس والموازن المضبوطة التي وضعها الله، وخضعوا
لهوهم، وحكموا شهواتهم في التحليل والتحريم.

ولهذا كانت الدعوة الإسلامية تنبذ الشرك وتصر على التحرر من
الدينونة لغير الله، والتمرّد على سلطان الأرباب الطغاة، وتعتبر أن إلغاء
الشخصية والتنازل عن الحرية واتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك
يستحق عليها مرتكبها الهلاك والعذاب في الآخرة. لأن الله خلق الناس
ليكونوا أحراراً لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه، ولا يتنازلون عن
حريتهم لطاغية ولا رئيس ولا زعيم^(٢).

وأخيراً فليعلم أن الدعوة إلى نبذ الشرك هي بحد ذاتها دعوة إلى
عقيدة التوحيد التي تحيي القلوب والعقول، وتطلقها من أوهام الجهل
والخرافة، وتنطلق بها إلى القوة والعزة والاستعلاء، والخروج من ظلمات الشرك
وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده، وتحرير للإنسان وإخراجه من
عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.

ولذلك وجدنا في سيرة هند بنت عتبة رضي الله عنها لما أسلمت
وشعرت بقيمة عقيدة التوحيد جعلت تضرب صنماً لها كان في زاوية
البيت حتى فلذته فلذة وهي تقول:

لقد كنا منك في غرور.. لقد كنا منك في غرور.

(١) سورة التوبة آية ٣١.

(٢) انظر ظلال القرآن لسيد قطب رحمه الله عند تفسير سورة التوبة الآية ٣١.

والركن الثاني (ولا يسرقن).

والسرقة هي ظاهرة انحراف خطيرة تدل على ميلان وإضلال في مؤشر العدل الفطري الذي أودعه الله تعالى في روح الإنسان وعقله، إنه طغيان وتجاوز وظلم، وقد يؤدي إلى ما هو أخطر، إلى هبوط تحت درجة الصفر مثلاً فيرافق السرقة القتل^(١)..

ومن أجل هذا وغيره قررت الشريعة الإسلامية عقوبة القطع لمرتكب هذه الجريمة صيانة لأموال الناس وحماية لأفراد المجتمع.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

يقول سيد قطب - رحمه الله - في تفسير هذه الآية في كتابه القيم في ظلال القرآن:

إن المجتمع المسلم يوفر لأهل دار الإسلام - على اختلاف عقائدهم - ما يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية.. إنه يوفر لهم ضمانات العيش والكفاية. وضمانات التربية والتقويم. وضمانات العدالة في التوزيع. وفي الوقت ذاته يجعل كل ملكية فردية فيه تنبت من حلال، ويجعل الملكية الفردية وظيفة اجتماعية تنفع المجتمع ولا تؤذيه.. ومن أجل هذا كله يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية.. فمن حقه إذن أن يشدد في عقوبة السرقة، والاعتداء على الملكية الفردية، والاعتداء على أمن الجماعة.. ومع تشديده فهو يدرأ الحد بالشبهة، ويوفر الضمانات كاملة للمتهم حتى لا يؤخذ بغير الدليل الثابت..

(١) أنظر بيعة النساء لمحمد علي قطب ص ٦٨.

(٢) سورة المائدة آية ٣٨.

ولعله من المناسب أن نفصل شيئاً في هذا الإجمال..

إن النظام الإسلامي كل متكامل، فلا تفهم حكمة الجزئيات التشريعية فيه حق فهمها إلا أن ينظر في طبيعة النظام وأصوله ومبادئه وضماناته. كذلك لا تصلح هذه الجزئيات فيه للتطبيق إلا أن يؤخذ النظام كاملاً، ويعمل به جملة. أما الإجتزاء بحكم من أحكام الإسلام، أو مبدأ من مبادئه، في ظل نظام كله إسلامياً، فلا جدوى له، ولا يعد الجزء المقتطع منه تطبيقاً للإسلام. لأن الإسلام ليس أجزاءً وتفاريق. الإسلام هو هذا النظام المتكامل الذي يشمل تطبيقه كل جوانب الحياة..

هذا بصفة عامة. أما بالنسبة لموضوع السرقة، فالأمر لا يختلف.

إن الإسلام يبدأ بتقرير حق كل فرد في المجتمع المسلم في دار الإسلام، في الحياة. وحقه في كل الوسائل الضرورية لحفظ الحياة.. من حق كل فرد أن يأكل وأن يشرب وأن يلبس وأن يكون له بيت يسكنه ويؤويه، ويجد فيه السكن والراحة.. من حق كل فرد على الجماعة - وعلى الدولة النائبة عن الجماعة - أن يحصل على هذه الضروريات.. أولاً عن طريق العمل - ما دام قادراً على العمل - وعلى الجماعة - والدولة النائبة عن الجماعة - أن تعلمه كيف يعمل، وأن تيسر له العمل، وأداة العمل.. فإذا تعطل لعدم وجود العمل، أو أداته، أو لعدم قدرته على العمل، جزئياً أو كلياً، وقتياً أو دائماً. أو إذا كان كسبه من عمله لا يكفي لضرورياته. فله الحق في استكمال هذه الضروريات من عدة وجوه: أولاً: من النفقة التي تفرض له شرعاً على القادرين في أسرته. وثانياً: على القادرين من أهل محله. وثالثاً: من بيت مال المسلمين من حقه المفروض له في الزكاة. فإذا لم تكف الزكاة فرضت الدولة المسلمة المنفذة لشرعية الإسلام كلها في دار الإسلام، ما يحقق الكفاية للمحرومين في مال الواجدين، بحيث لا تتجاوز هذه

الحدود، ولا تتوسع في غير ضرورة. ولا تجوز على الملكية الفردية الناشئة من حلال..

والإسلام كذلك يتشدد في تحديد وسائل جمع المال، فلا تقوم الملكية الفردية فيه إلا من حلال.. ومن ثم لا تثير الملكية الفردية في المجتمع المسلم أحقاد الذين لا يملكون، ولا تثير أطباعهم في سلب ما في أيدي الآخرين. وبخاصة أن النظام يكفل لهم الكفاية، ولا يدعم محرومين.

والإسلام يربي ضمائر الناس وأخلاقهم، فيجعل تفكيرهم يتجه الى العمل والكسب عن طريقه، لا إلى السرقة والكسب عن طريقها.. فإذا لم يوجد العمل، أو لم يكف لتوفير ضرورياتهم، أعطاهم حقهم بالوسائل النزيهة الكريمة..

وإذن فلماذا يسرق السارق في ظل هذا النظام؟ إنه لا يسرق لسد حاجة. إنما يسرق للطمع في الثراء من غير طريق العمل. والثراء لا يطلب من هذا الوجه الذي يروع الجماعة المسلمة في دار الإسلام. ويحرمها الطأينة التي من حقها أن تستمتع بها. ويحرم أصحاب المال الحلال أن يطمئنوا على مالهم الحلال.

وإنه لمن حق كل فرد في مثل هذا المجتمع، كسب ماله من حلال، لا من ربا، ولا من غش، ولا من احتكار، ولا من أكل أجور العمال، ثم أخرج زكاته، وقدم ما قد تحتاج إليه الجماعة من بعد الزكاة.. من حق كل فرد في مثل هذا النظام أن يأمن على ماله الخاص، وألا يباح هذا المال للسرقات أو لغير السرقات.

فإذا سرق السارق بعد ذلك كله...إذا سرق وهو مكفي الحاجة، متبين حرمة الجريمة، غير محتاج لسلب ما في أيدي الآخرين، لأن الآخرين لم يغصبوا أموالهم ولم يجمعوها من حرام.. إذا سرق في مثل

هذه الأحوال. فإنه لا يسرق وله عذر. ولا ينبغي أن يرأف به متى ثبتت عليه الجريمة.

فأما حين توجد شبهة من حاجة أو غيرها، فالمبدأ العام في الإسلام هو درء الحدود بالشبهات. لذلك لم يقطع عمر - رضي الله عنه - في عام الرمادة، حينما عمت المجاعة. ولم يقطع كذلك في حادثة خاصة؛ عندما سرق غلمان ابن حاطب بن أبي بلتعة ناقة من رجل من مزينة. فقد أمر بقطعهم؛ ولكن حين تبين له أن سيدهم يجيئهم، درأ عنهم الحد؛ وغرم سيدهم ضعف ثمن الناقة تأديباً له..

وهكذا ينبغي أن تفهم حدود الإسلام، في ظل نظامه المتكامل، الذي يضع الضمانات للجميع لا لطبقة على حساب طبقة.. والذي يتخذ أسباب الوقاية قبل أن يتخذ أسباب العقوبة. والذي لا يعاقب إلا المعتدين بلا مبرر للاعتداء..

وبعد بيان هذه الحقيقة العامة نستطيع أن نأخذ في الحديث عن حد السرقة..

السرقة هي أخذ مال الغير، المحرّز، خفية.. فلا بد أن يكون المأخوذ مالاً مقوماً.. والحد المتفق عليه تقريباً بين فقهاء المسلمين للمالك الذي يعد أخذه من حرزه خفية سرقة هو ما يعادل ربع دينار.. أي حوالي خمسة وعشرين قرشاً بنقدنا الحاضر.. ولا بد أن يكون هذا المال محرّزاً وأن يأخذه السارق من حرزه، ويخرج به عنه.. فلا قطع مثلاً على المؤمن على مال إذا سرقه. والخادم المأذون له بدخول البيت لا يقطع فيما يسرق لأنه ليس محرّزاً منه. ولا على المستعير إذا جحد العارية. ولا على الثار في الحقل حتى يؤويها الجرين. ولا على المال خارج البيت أو الصندوق المعد لصيافته.. وهكذا.. ولا بد أن يكون هذا المال المحرّز للغير.. فلا قطع حين يسرق الشريك من مال شريكه لأن له

فيه شركة فليس خالصاً للغير. والذي يسرق من بيت مال المسلمين لا يقطع لأن له نصيباً فيه فليس خالصاً للغير كذلك.. والعقوبة في مثل هذه الحالات ليست هي القطع، وإنما هي التعزير.. (والتعزير عقوبة دون الحد، بالجلد أو بالحبس أو بالتوبيخ أو بالموعظة في بعض الحالات التي يناسبها هذا حسب رأي القاضي والظروف المحيطة).

والقطع يكون لليد اليمنى إلى الرسغ. فإذا عاد كان القطع في الرجل اليسرى إلى الكعب وهذا هو القدر المتفق عليه في القطع.. ثم تختلف بعد ذلك آراء الفقهاء عند الثالثة والرابعة.

والشبهة تدرأ الحد.. فشبهة الجوع والحاجة تدرأ الحد. وشبهة الشركة في المال تدرأ الحد. ورجوع المعترف في اعترافه - إذا لم يكن هناك شهود - شبهة تدرأ الحد. ونكول الشهود شبهة.. وهكذا..

ويختلف الفقهاء فيما يعدونه شبهة. فأبو حنيفة مثلاً يدرأ الحد في سرقة ما هو مباح الأصل - حتى بعد إحرازه - كسرقة الماء بعد إحرازه، وسرقة الصيد بعد صيده، لأن كليهما مباح الأصل. وإباحة الأصل تورث شبهة في بقاءه مباحاً بعد إحرازه. والشركة العامة فيه تورث شبهة في بقاء الشركة بعد الإحراز.. بينما مالك والشافعي وأحمد لا يدرأون الحد في مثل هذه الحالة. ويدرأ أبو حنيفة الحد في سرقة كل ما يسارع إليه الفساد، كالطعام الرطب والبقول واللحم والخبز وما أشبه. ويخالفه أبو يوسف ويأخذ برأي الثلاثة.

ولا نملك أن نمضي في تفصيل اختلافات الفقهاء في هذا المجال، فتطلب في كتب الفقه؛ وحسبنا هذه الأمثلة للدلالة على سماحة الإسلام وحرصه على ألا يأخذ الناس بالشبهات.. ورسول الله ﷺ يقول: «ادروا الحدود بالشبهات» وعمر بن الخطاب يقول: «لئن أعطل

الحدود بالشبهات أحب إليّ من أن أقيمها بالشبهات»^(١)..

ولكن لا بد من كلمة في ملاءمة عقوبة القطع في السرقة، بعد بيان موجبات التشدد في أخذ السارق بالحد، في المجتمع المسلم في دار الإسلام، بعد توافر أسباب الوقاية وضمانات العدالة..

«وعلة فرض عقوبة القطع للسرقة أن السارق حينما يفكر في السرقة إنما يفكر في أن يزيد كسبه بكسب غيره. فهو يستصغر ما يكسبه عن طريق الخلال، ويريد أن ينمي من طريق الحرام. وهو لا يكتفي بثمرة عمله، فيطمع في ثمرة عمل غيره. وهو يفعل ذلك ليزيد من قدرته على الإنفاق أو الظهور، أو ليرتاح من عناء الكد والعمل. أو ليأمن على مستقبله. فالدافع الذي يدفع إلى السرقة ويرجع إلى هذه الاعتبارات هو زيادة الكسب أو زيادة الثراء.. وقد حاربت الشريعة هذا الدافع في نفس الإنسان بتقرير عقوبة القطع. لأن قطع اليد أو الرجل يؤدي إلى نقص الكسب، إذ اليد والرجل كلاهما أداة العمل أياً كان. ونقص الكسب يؤدي إلى نقص الثراء. وهذا يؤدي إلى نقص القدرة على الإنفاق وعلى الظهور. ويدعو إلى شدة الكدح وكثرة العمل، والتخوف الشديد على المستقبل.

«فالشريعة الإسلامية بتقريرها عقوبة القطع دفعت العوامل النفسية التي تدعو لارتكاب الجريمة بعوامل نفسية مضادة تصرف عن جريمة السرقة. فإذا تغلبت العوامل النفسية الداعية، وارتكب الإنسان الجريمة مرة كان في العقوبة والمرارة التي تصيبه منها ما يغلب العوامل النفسية الصارفة، فلا يعود للجريمة مرة ثانية.

(١) يراجع كتاب: التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي لعبد القادر عودة.

«ذلك هو الأساس الذي قامت عليه عقوبة السرقة في الشريعة الإسلامية. وإنه لعمري خير أساس قامت عليه عقوبة السرقة من يوم نشأة عالمنا حتى الآن..»

«وتجعل القوانين الحبس عقوبة السرقة. وهي عقوبة قد أخفقت في محاربة الجريمة على العموم. والسرقة على الخصوص. والعلة في هذا الإخفاق أن عقوبة الحبس لا تخلق في نفس السارق العوامل النفسية التي تصرفه عن جريمة السرقة. لأن عقوبة الحبس لا تحول بين السارق وبين العمل إلا مدة الحبس^(١)، وما حاجته إلى الكسب في الحبس وهو موفر الطلبات مكفي الحاجات؟ فإذا خرج من محبسه استطاع أن يعمل وأن يكسب. وكان لديه أوسع الفرص لأن يزيد من كسبه وينمي ثروته، من طريق الحلال والحرام على السواء! واستطاع أن يخدع الناس وأن يظهر أمامهم بمظهر الشريف، فيأمنوا جانبه، ويتعاونوا معه، فإن وصل في الخاتمة إلى ما ينبغي فذلك هو الذي أراد، وإن لم يصل إلى بغيته فإنه لم يخسر شيئاً، ولم تفته منفعة ذات بال.

«أما عقوبة القطع فتحول بين السارق وبين العمل، أو تنقص من قدرته على العمل والكسب نقصاً كبيراً، ففرصة زيادة الكسب مقطوع بضياها على كل حال، ونقص الكسب إلى حد ضئيل أو انقطاعه هو المرجح في أغلب الأحوال، ولن يستطيع أن يخدع الناس أو يحملهم على الثقة به والتعاون معه رجل يحمل أثر الجريمة في جسمه، وتعلن يده المقطوعة عن سوابقه. فالخاتمة التي لا يخطئها الحساب أن جانب الخسارة مقطوع به إذا كانت العقوبة القطع، وجانب الربح مرجح إذا كانت

(١) بعضهم يزاول الكسب في محبسه بطرق شتى حتى لتربو مكاسبه في محبسه عليها في خارجه.

العقوبة الحبس. وفي طبيعة الناس كلهم - لا السارق وحده - أن لا يتأخروا عن عمل يرجح فيه جانب المنفعة، وألا يقدموا على عمل تتحقق فيه الخسارة.

«وأعجب بعد ذلك ممن يقولون: إن عقوبة القطع لا تتفق مع ما وصلت إليه الإنسانية والمدنية في عصرنا الحاضر. كأن الإنسانية والمدنية أن تقابل السارق بالمكافأة على جريمته، وأن نشجعه على السير في غوايته، وأن نعيش في خوف واضطراب، وأن نكد ونشقى ليستولي على ثمار عملنا العاطلون والصوص!.

» ثم أعجب بعد ذلك مرة ثانية ممن يقولون: إن عقوبة القطع لا تتفق مع ما وصلت إليه الإنسانية والمدنية، كأن المدنية والإنسانية أن ننكر العلم الحديث والمنطق الدقيق، وأن ننسى طبائع البشر، وتجاهل تجارب الأمم وأن نلغي عقولنا، ونهمل النتائج التي وصل إليها تفكيرنا، لنأخذ بما يقوله قائله فلا يجد عليه دليلاً إلا التهويل والتضليل!.

«وإذا كانت العقوبة الصالحة حقاً هي التي تتفق مع المدنية والإنسانية، فإن عقوبة الحبس قد حق عليها الإلغاء، وعقوبة القطع قد كتب لها البقاء، لأن الأخيرة تقوم على أساس متين من علم النفس. وطبائع البشر وتجارب الأمم، ومنطق العقول والأشياء، وهي نفس الأسس التي تقوم عليها المدنية والإنسانية. أما عقوبة الحبس فلا تقوم على أساس من العلم ولا التجربة، ولا تتفق مع منطق العقول ولا طبائع الأشياء.

«إن أساس عقوبة القطع هو دراسة نفسية الإنسان وعقليته. فهي إذن عقوبة ملائمة للأفراد، وهي في الوقت ذاته صالحة للجماعة، لأنها تؤدي إلى تقليل الجرائم، وتأمين المجتمع. وما دامت العقوبة ملائمة للفرد وصالحة للجماعة، فهي أفضل العقوبات وأعدلها.»

«ولكن ذلك كله لا يكفي عند بعض الناس لتبرير عقوبة القطع، لأنهم يرونها - كما يقولون - عقوبة موسومة بالقسوة. وتلك حجتهم الأولى والأخيرة. وهي حجة داحضة. فإن اسم العقوبة مشتق من العقاب، ولا يكون العقاب عقاباً إذا كان موسوماً بالرخاوة والضعف، بل يكون لعباً أو عبثاً أو شيئاً قريباً من هذا.

فالقسوة لا بد أن تتمثل في العقوبة حتى يصح تسميتها بهذا الاسم»^(١).

والله - سبحانه - وهو أرحم الراحمين يقول وهو يشدد عقوبة السرقة:

﴿فَأَقْطَعُ أَيْدِيَهُمَا جِزَاءَ لِّمَا كَسَبَانِ كَلًّا مِّنَ اللَّهِ...﴾.

فهي تنكيل من الله رادع. والردع عن ارتكاب الجريمة رحمة بمن تحدثه نفسه بها، لأنه يكفه عنها. ورحمة بالجماعة كلها لأنه يوفر لها الطمأنينة.. ولن يدعي أحد أنه أرحم بالناس من خالق الناس، إلا وفي قلبه عمی، وفي روحه انطاس! والواقع يشهد أن عقوبة القطع لم تطبق في خلال نحو قرن من الزمان في صدر الإسلام إلا في آحاد، لأن المجتمع بنظامه، والعقوبة بشدتها، والضمانات بكفايتها لم تنتج إلا هذه الآحاد^(٢).

وفي ختام الحديث عن السرقة نسرد حديث عائشة رضي الله عنها لنستلهم منه منارات نهدي بها في حياتنا.

(١) عن كتاب: «التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي» لعبد القادر عودة الجزء الأول ص ٦٥٢ - ص ٦٥٤.

(٢) من ظلال القرآن لسيد قطب - رحمه الله (٦/٨٨٢ - ٨٨٦).

قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «إن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»^(١).

فَالْمَعْلَمُ الأول الذي نستلهمه من هذا الحديث الشريف: تحريم الشفاعة في حدود الله. فالحد حق إلهي لا يُجاد عنه، ولا يُشفع فيه مها كان الوسيط والعدو (اتشفع في حد من حدود الله يا أسامة؟؟..).

وَالْمَعْلَمُ الثاني: تساوي أفراد المجتمع في الشرع الإسلامي فلا تمايز في حسب ولا نسب ولا قوة ولا سلطان.

«إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد».

وَالْمَعْلَمُ الثالث من هذه المنارات المضيئة: أنه يجب على الحاكم أن يكون القدوة الصالحة، والمثل الأعلى في نفسه وماله، وتطبيق الحدود، فلا يحتمي بسلطانه فيفعل كما يشاء، وكأنه قد ورث ذلك عن أبويه: «وأي الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

★ ★ ★

(١) أخرجه البخاري في الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع (١١٧/٦) ومسلم في الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره برقم ١٦٨٨.

والركن الثالث في بنود هذه البيعة الكريمة (ولا يزنين):

فقد كان الزنا من الفواحش التي ابتلي بها المجتمع الجاهلي ووقع في برائتها وتفتت فيه إلى حد بعيد، وبأشكال مختلفة، على الرغم من إقراره بأنها نقيصة، ودليل ذلك قول هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان عند البيعة، ومراجعتها لرسول الله ﷺ حين قال: «ولا يزنين».. ف قالت: وهل تزني الحرة يا رسول الله!!؟؟.

هذا وقد اعتبر الإسلام الزنا جريمة كبيرة وخطيرة تستحق أقصى العقوبات - (الجلد أو الرجم في حالة الإحصان) - وذلك لأن الزنا: أولاً: وخيم العاقبة، ويهدد المجتمع بالفناء والانقراض، فضلاً عن كونه رذيلة من الرذائل المحقرة.

ثانياً: لأنه سبب مباشر في انتشار الأمراض الخطيرة التي تفتك بالأبدان، وتنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء، كمرض الزهري، والسيلان والقرحة.. و..

ثالثاً: لأنه أحد الأسباب الدافعة لجريمة القتل. إذ أن الغيرة طبيعة في الإنسان، فلا يمكن لرجل كريم، وامرأة عفيفة الرضا بالانحراف الجنسي، وهذا ما يدفع الرجل غالباً لغسل العار بالدم.

رابعاً: أن الزنا يفسد نظام البيت، ويهز كيان الأسرة، ويقطع الوشائج الزوجية مما يؤدي لتشرد الأبناء وسوء تربيتهم وانحرافهم.

خامساً: أن الزنا غالباً ما يؤدي إلى اختلاط الأنساب، بل إلى ضياعها، ومنه ينشأ تملك الأموال لغير مستحقيها عند التوارث.

وجملة القول: أنه قد ثبت عملياً وعلمياً ثبوتاً قطعياً لا مجال للشك فيه عظم الضرر لجريمة الزنا، وأنها من أكبر الأسباب الموجبة للفساد،

وانحطاط الآداب، ومن أكبر البواعث على الترف والسرف والعهر والفجور^(١).

لهذا كله وغيره جعل الإسلام عقوبة الزنا أقصى عقوبة فقال تعالى في كتابه الكريم: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وكان حد الزانين في أول الإسلام ما جاء في سورة النساء: ﴿وَالَّتِي يَأْتِيكِ الْفَحْشَاءُ مِنْ نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾^(٣).

فكان حد المرأة الحبس في البيت، وحد الرجل الأذى بالتعير. ثم أنزل الله حد الزنا في سورة النور. فكان هذا هو السبيل الذي أشارت إليه من قبل آية النساء.

وأصبح الجلد هو حد البكر من الرجال والنساء، والبكر هو الذي لم يحصن بالزواج، ويقع عليه الحد متى كان مسلماً بالغاً عاقلاً حراً. وأما المحصن من الرجال والنساء فأصبح حده (الرجم) والمحصن هو الذي سبق له الوطء بنكاح صحيح وكان مسلماً بالغاً وحرّاً وعاقلاً.

(١) من فقه السنة لسيد سابق بشيء من التصرف (٤٠٣/٢).

(٢) سورة النور، آية ٢.

(٣) سورة النساء، آية ١٥.

فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنها قال: «سمعت عمر وهو على منبر رسول الله ﷺ يخطب ويقول: إن الله بعث محمداً بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل عليه آية الرجم^(١) فقرأناها ووعيناها وعقلناها، فرجم رسول الله ﷺ، ورجنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمن أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، وإن الرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف».

هذه رواية الإمام مسلم وزاد أبو داود: (وأيم الله لولا أن يقول الناس: زاد في كتاب لكتبته)^(٢).

يقول سيد قطب- رحمه الله- في تفسيره القيم عند قول الله تبارك وتعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ...﴾.

والإسلام وهو يضع هذه العقوبات الصارمة الحاسمة لتلك الفعل المستنكرة الشائنة لم يكن يغفل الدوافع الفطرية أو يحاربها. فالإسلام يقدر أنه لا حيلة للبشر في دفع هذه الميول. ولا خير لهم في كبتها أو قتلها. ولم يكن يحاول أن يوقف الوظائف الطبيعية التي ركبها الله في كيانه، وجعلها جزءاً من ناموس الحياة الأكبر، يؤدي إلى غايته من امتداد الحياة، وعمارة الأرض، التي استخلف فيها هذا الإنسان.

(١) أراد بآية الرجم قول الله تبارك وتعالى: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجوها البتة» وهذا مما نسخ لفظه وبقي حكمه.

(٢) أخرجه مسلم في الحدود، باب رجم الثيب في الزنا برقم ١٦٩١. وأبو داود في الحدود باب في الرجم برقم ٤٤١٨. وأخرجه البخاري في جملة حديث طويل في الحدود، باب رجم الحبل من الزنا إذا أحصنت (٢٥/٨ و ٢٦).

إنما أراد الإسلام محاربة الحيوانية التي لا تفرق بين جسد وجسد. أو لا تهدف إلى إقامة بيت، وبناء عش، وإنشاء حياة مشتركة، لا تنتهي بانتهاء اللحظة الجسدية الغليظة! وأن يقيم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية، التي تجعل من التقاء جسدين نفسين وقلبين وروحين، وبتعبير شامل التقاء إنسانين تربط بينهما حياة مشتركة، وآمال مشتركة، وآلام مشتركة، ومستقبل مشترك، يلتقي في الذرية المرتقبة، ويتقابل في الجيل الجديد الذي ينشأ في العش المشترك، الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان.

من هنا شدد الإسلام في عقوبة الزنا بوصفه نكسة حيوانية، تذهب بكل هذه المعاني، وتطيح بكل هذه الأهداف، وترد الكائن الإنساني مسخاً حيوانياً، لا يفرق بين أنثى وأنثى، ولا بين ذكر وذكر. مسخاً كل همه إرواء جوعة اللحم والدم في لحظة عابرة. فإن فرق وميز فليس وراء اللذة بناء في الحياة. وليس وراءها عمارة في الأرض، وليس وراءها نتاج ولا إرادة نتاج! بل ليس وراءها عاطفة حقيقية راقية، لأن العاطفة تحمل طابع الاستمرار. وهذا ما يفرقها من الانفعال المنفرد المتقطع، الذي يحسبه الكثيرون عاطفة يتغنون بها، وإنما هي انفعال حيواني يتزيا بزي العاطفة الإنسانية في بعض الأحيان!

إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها، إنما ينظمها ويظهرها، ويرفعها عن المستوى الحيواني، ويرقيها حتى تصبح المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية. فأما الزنا - وبخاصة البغاء - فيجرد هذا الميل الفطري من كل الرفرفات الروحية، والأشواق العلوية، ومن كل الآداب التي تجمعت حول الجنس في تاريخ البشرية الطويل، ويبيده عارياً غليظاً قدراً كما هو في الحيوان، بل أشد غلظاً من الحيوان. ذلك أن كثيراً من أزواج الحيوان والطيور

تعيش متلازمة، في حياة زوجية منظمة، بعيدة عن الفوضى الجنسية التي يشيعها الزنا - وبخاصة البغاء - في بعض بيئات الإنسان!

دفع هذه النكسة عن الإنسان هو الذي جعل الإسلام يشدد ذلك التشديد في عقوبة الزنا.. ذلك الى الأضرار الاجتماعية التي تعارف الناس على أن يذكروها عند الكلام عن هذه الجريمة، من اختلاط الأنساب، وإثارة الأحقاد، وتهديد البيوت الآمنة المطمئنة.. وكل واحد من هذه الأسباب يكفي لتشديد العقوبة. ولكن السبب الأول وهو دفع النكسة الحيوانية عن الفطرة البشرية، ووقاية الآداب الإنسانية التي تجمعت حول الجنس، والمحافظة على أهداف الحياة العليا من الحياة الزوجية المشتركة القائمة على أساس الدوام والامتداد.. هذا السبب هو الأهم في اعتقادي. وهو الجامع لكل الأسباب الفرعية الأخرى.

على أن الإسلام لا يشدد في العقوبة هذا التشديد إلا بعد تحقيق الضمانات الوقائية المانعة من وقوع الفعل، ومن توقيع العقوبة إلا في الحالات الثابتة التي لا شبهة فيها. فالإسلام منهج حياة متكامل، لا يقوم على العقوبة، إنما يقوم على توفير أسباب الحياة النظيفة. ثم يعاقب بعد ذلك من يدع الأخذ بهذه الأسباب الميسرة ويتمرغ في الوحل طائعا غير مضطر^(١).

ومن الضمانات الوقائية، الكثيرة التي تحول دون الوقوع في هذه الجريمة أن الإسلام قد حض على الزواج المبكر فقال صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض

(١) أنظر كتاب في ظلال القرآن (٢٤٨٩/٤).

للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(١).

ومن الضمانات الوقائية أيضاً إباحة تعدد الزوجات الذي يراه الجاهلون نعمة، بينما هو في واقعة نعمة كبرى، ووسيلة عظيمة للحد من جريمة الزنى بين الجنسين، ومن أجل أن يكون في الحلال مندوحة عن الحرام.

وإلى جانب هذه الطريقة المثلى لتصريف الغريزة فقد منع من كل تصرف محرم يثير الغريزة خوفاً من الانحراف فهمى عن الاختلاط، والخلوة بالمرأة الأجنبية والصور والغناء الفاحش، والنظر المريب، وكل ما من شأنه أن يدعو إلى الفحش ويؤدي إلى الانحلال ومن ثم الوقوع في الجريمة.. وغير ذلك مما يضيق المجال لذكره، وذكر الأدلة عليه.

فإذا وقعت الجريمة بعد هذا كله، نرى الإسلام قد احتاط في تنفيذ هذه العقوبة بما يلي:

- ١ - فمن الاحتياط: أنه درأ الحدود بالشبهات، فلا يقام حد إلا بعد التيقن من وقوع الجريمة.
- ٢ - لا بد في إثبات هذه الجريمة من أربعة شهود عدول من الرجال فلا تقبل فيها شهادة النساء، ولا شهادة الفسقة.
- ٣ - أن يكون الشهود جميعاً رأوا عملية الزنا نفسها كالليل في المكحلة والرشاة في البئر.

(١) أخرجه البخاري في النكاح باب من استطاع منكم الباءة فليتزوج (٦ / ١١٧).
ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح لمن تأقت نفسه إليه.. برقم ١٤٠٠/.

٤ - على فرض أن ثلاثة منهم شهدوا بهذه الشهادة، وشهد الرابع بخلاف شهادتهم، أو رجع أحدهم عن شهادته أقيم عليهم حد القذف^(١).

هذه هي الاحتياطات في تنفيذ عقوبة حد الزنى حتى أنه ليتخيل إلى الكثير من يطالع هذه الضمانات بأن العقوبة وهمية غير رادعة لأنها غير قابلة للتطبيق إذ هي أقرب إلى الإرهاب والتخويف منها إلى التحقيق والتنفيذ، فلنستمع إذًا إلى سيد قطب رحمه الله وهو يعلل هذه الظاهرة:

« .. وقد يظن أن العقوبة إذن وهمية لا تردع أحداً، لأنها غير قابلة للتطبيق، ولكن الإسلام - كما ذكرنا - لا يقيم بناءه على العقوبة، بل على الوقاية من الأسباب الدافعة إلى الجريمة، وعلى تهذيب النفوس، وتطهير الضمائر، وعلى الحساسية التي يثيرها في القلوب، فتتخرج من الإقدام على جريمة تقطع ما بين فاعلها وبين الجماعة المسلمة من وشيجة، ولا يعاقب إلا المتبجحين بالجريمة، الذين يرتكبونها بطريقة فاضحة مستهترة فيراها الشهود، أو الذين يرغبون في التطهير بإقامة الحد عليهم كما وقع لماعز والغامدية. وقد جاء كل منها يطلب من النبي ﷺ أن يطهره بالحد، ويلح في ذلك، على الرغم من إعراض النبي مراراً، حتى بلغ الإقرار أربع مرات، ولم يعد بد من إقامة الحد، لأنه بلغ إلى الرسول بصفة مستعينة لا شبهة فيها، والرسول ﷺ يقول: «تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب»^(٢).

(١) أنظر كتاب فقه السنة لسيد سابق (٤٠٣/٢).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الحدود، باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان برقم /٤٣٧٦/.

وأخرجه النسائي في السارق، باب ما يكون حرزاً وما لا يكون (٧٠/٨).

فإذا وقع اليقين وبلغ الأمر الى الحاكم فقد وجب الحد ولا هوادة، ولا رأفة في دين الله، فالرأفة بالزناة الجناة حينئذ هي قسوة على الجماعة، وعلى الآداب الإنسانية، وعلى الضمير البشري، وهي رأفة مصطنعة، فالله أرأف بعباده. وقد اختار لهم، وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، والله أعلم بمصالح العباد، وأعرف بطبائعهم، فليس لمتشدد أن يتحدث عن قسوة العقوبة الظاهرة، فهي أرأف مما ينتظر الجماعة التي يشيع فيها الزنا، وتفسد فيها الفطرة، وترتكس في الحياة، وتنتكس إلى درك البهيمة الأولى..^(١)

★ ★ ★

الركن الرابع من أركان بيعة النساء: (ولا يقتلن أولادهن)

إن الله سبحانه وتعالى كرم الإنسان إذ خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، وجعله خليفة في الأرض ليعمرها، ويعبد الله على الوجه الأكمل.

ومن الطبيعي أن الإنسان لا يمكن أن يحقق أهدافه ويبلغ غاياته إلا إذا توفرت له جميع عناصر النمو وأخذ حقوقه كاملة.

وفي طليعة هذه الحقوق التي ضمنها الإسلام واعتبرها من الضروريات الخمس: حق الحياة، وهو حق مقدس لا يجوز انتهاك حرمة يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(٢) والحق الذي

(١) في ظلال القرآن (٦/٢٤٩٠).

(٢) سورة الإسراء آية ٢٣.

تزهق به النفوس هو ما فسرہ النبی ﷺ بقوله: « لا یجل دم امرئ مسلم یشہد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة »^(١).

كل هذا عن القتل بشكل عام فالله هو واهب الحياة وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وضمن الحدود التي يرسمها جل شأنه.

ولكن ركن بيعة النساء يلتزم صورة معينة من حق الحياة تتعلق بالنساء وأولادهن، وترتبط ارتباطاً قوياً بما كان سائداً في المجتمع الجاهلي آنذاك من وأد البنات، وقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾^(٢) ويقول جل شأنه: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾^(٣).

لقد هانت النفس الإنسانية في المجتمع الجاهلي إذ انتشرت فيه عادة الوأد خوف العار أو خوف الفقر، وقد كان الوأد يتم في صورة شنيعة قاسية إذ كانت البنت تدفن وهي حية، وبأشكال مختلفة فمنهم من كان يتركها حتى تكون في السادسة من عمرها ثم يقول لأُمها طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحائها.. وقد حفر لها بئراً في الصحراء، فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها ثم يدفعها دفعاً ويهيل التراب

(١) رواه البخاري في الديات، باب قول الله تعالى: ﴿النفس بالنفس، والعين بالعين﴾،

(٨ / ٣٨) ومسلم في القسامة باب ما يباح به دم المسلم برقم ١٦٧٦/. وكلاهما من

حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) سورة التكويد الآيتين ٨، ٩.

(٣) سورة الإسراء آية ٣١.

عليها، وعند بعضهم كانت الوالدة إذا جاءها المخاض جلست فوق حفرة معدة، فإذا كان المولود بنتاً رمت بها فيها وردمتها، وإن كان ابناً قامت به معها.

صوراً مزرية بشعة لا مجال للتوسع في ذكرها، فكل ما يهمنا إثبات تلك الحقيقة المتأصلة في بعض نفوس العرب الجاهلين حتى جاء الإسلام يشنع بهذه العادات السيئة ويقبحها وينهى عن ارتكابها كما نهى عن قتل الأولاد خشية الإملاق، فالرزق بيد الله ولا علاقة بين الفقر والنسل كما يتوهم الجاهل. فالأمر كله بيد الله فهو رازق الأبناء والآباء.

وهكذا كانت هذه البيعة ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ تصحيح لانحراف العقيدة وفسادها، وما يترتب عليها من الآثار المدمرة في حياة المجتمعات.

وما كان بالإمكان أن تنبت كرامة المرأة في هذه البيئة الجاهلية لولا نزول شريعة الإسلام بما تحمله من نهج قويم في كرامة البشرية كلها، وفي تكريم الإنسان الذكر والأنثى ورفعته إلى المكان اللائق به من الرفعة والتكريم.

فمن مناهج الإسلام وأصولياته انبثقت كرامة المرأة، لا من أي عامل من عوامل البيئة.

ومن أجل هذا اندفعت المرأة لتبايع رسول الله ﷺ على الالتزام بعقيدة الإسلام ومستلزماتها والتي منها ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾.

والآن إلى الركن الخامس من أركان بيعة النساء وهو قوله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِّبْهَتَيْنِ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾

والبهتان من أخطر الآفات الاجتماعية، إذ هو افتراء الكذب على الآخرين مما يؤدي إلى حيرتهم في الأمر، فيصيبهم البهت من نكارة ما يسمعون.

وقد تعددت الأقوال في معنى البهت المراد بالمباينة على الالتزام بعد إتيانه من قبل النساء المسلمات.

ف قيل المراد به: الأعمال الظاهرة والباطنة، وقيل: المراد بما بين الأيدي ما يكتسب بها وكذا الأرجل، وقيل: كناية عن الدنيا والآخرة^(١).

وقيل في معنى الحديث: أي لا تبهتوا الناس افتراءً واختلافاً بما لم تعلموه منهم فتجنوا عليهم من قبل أيديكم وأرجلكم - أي من قبل أنفسكم - .

وقيل معناه: أي لا تبهتوا الناس بالعيوب^(٢).

وقد ذكر المفسرون في معنى الآية ما قاله ابن عباس ومقاتل وغيرهم: أي لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن.

ولعل هذا هو الراجح - والله أعلم - لما كان يحدث في الجاهلية من أن تبيح المرأة نفسها لعدة رجال - وهو أحد الأنكحة في

(١) أنظر فتح الباري للحافظ ابن حجر المسقلائي (٦٤٠/٨).

(٢) أنظر شرح السنة للبغوي (٦٢/١).

الجاهلية - فإذا جاءت بولد نظرت أيهم أقرب به شَبْهاً فألحقته به، وربما اختارت هي من هو أحسنهم بنظرها فألحقت به ابناً وهي تعلم من هو أبوه.

وفي حالات أخرى كانت المرأة في الجاهلية تلتقط لقيطاً وتقول لزوجها: هذا ولدي منك، فتلحق بزوجها ولداً ليس منه.

وعموم اللفظ يشمل كل هذه الحالات وغيرها من كل بهتان مزور يُدعى، وأطراف الإنسان هي التي تسعى بالجسم إما إلى الخير والإصلاح في المجتمع، وإما إلى الشر والإفساد بالبهتان.

ومن أجل هذا أخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام العهد من نساء المؤمنين على أن لا يأتين ببهتان يفترينه من الفعل محله بين الأيدي والأرجل.

وعلى هذا التزمت المرأة المسلمة بعدم البهتان والافتراء لأنها أشد الناس أثراً في المجتمع.. والله أعلم.

أما الركن الأخير في هذه البيعة الميمونة قوله تعالى:

﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾

وهذا شرط شرطه الله على النساء وهو يمثل أحد قواعد الدستور في الإسلام، حيث يقرر أن لا طاعة على الرعية لإمام أو حاكم إلا في المعروف الذي يتفق مع دين الله وشريعته، وأنها ليست طاعة مطلقة لولي الأمر في كل أمر..

وهذه القاعدة العظيمة هي التي تجعل قوة التشريع والأمر مستمدة من شريعة الله، لا من إرادة إمام ولا من إرادة أمة إذا خالفت شريعة

الله. فالإمام والأمة كلاهما محكوم بشريعة الله. ومنها يستمدان السلطات^(١).

وهذا الشرط: ﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾. يشمل الوعد بطاعة الرسول عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم في كل ما يأمرهن به، وهو لا يأمر إلا بمعروف والخير كل الخير في الأمر بالمعروف والانقياد له، والشر كل الشر في عصيان المعروف وتنكب طريقه والوقوع في بؤرة المنكر والانقياد له^(٢).

وإلى جانب هذه الشمولية بطاعة الرسول ﷺ في كل ما يأمرهن به فقد وردت خصوصيات توضح المراد من هذا الشرط على النساء المبايعات، فقد أخرج الطبري عن طريق زهير بن محمد قال في قوله: (ولا يعصينك في معروف): لا يخلو الرجل بامرأة، وأخرج الطبري أيضاً عن قتادة قال: أخذ عليهن أن لا ينحن ولا يحدثن الرجال، ونقل الطبري أيضاً من حديث ابن عباس (انما انبئكن بالمعروف الذي لا تعصينني فيه، لا تخلون بالرجال وحدانا، ولا تنحن نوح الجاهلية).

ومن طريق أسيد بن أبي أسيد البراد عن امرأة من المبايعات قالت: «كان فيما أخذ علينا أن لا نعصيه في شيء من المعروف، ولا نخمش وجهاً، ولا ننشر شعراً، ولا نشق جيباً، ولا ندعو ويلاء»^(٣).

وعلى أي حال فإن المسلم أو المسلمة مأمور بطاعة رسول الله ﷺ، وطاعته عليه الصلاة والسلام هي طاعة لله سبحانه وتعالى.

★ ★ ★

(١) راجع ظلال القرآن (٦/٣٥٤٨).

(٢) أنظر بيعة النساء لمحمد علي قطب ص ٨٨.

(٣) أنظر فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني (٨/٦٣٩).

وعلى هذه الأسس الشاملة (أركان بيعة النساء الست) - التي تعتبر
سياجاً واقياً لكرامة المرأة في جميع مراحل حياتها وأوضاعها
الاجتماعية - بايعت المرأة المسلمة واستحقت الاستغفار من
رسول الله ﷺ عما سلف.

ومن أجل هذه المبادئ الكريمة - التي تبنى عليها الأمم - كَثُرَ
أعداء الله عن أنيابهم ليمزقوا أركان تلك البيعة من عنق المرأة المسلمة .
ومن أجل هذا الخطر الداهم كتبنا هذه النبذة عن بيعة النساء
لنذكر بناتنا وأمهاتنا بالواجب الملحق على عاتقهن فإن الذكرى تنفع
المؤمنين .

رُؤُوسُ عَلِيٍّ مَفْتَرِيَاتِ الْمُسْتَشِيرِينَ

رؤوس على مفترقات المستشرقين

توطئة:

عندما أخفق أعداء الإسلام في مقاومته بأساليب علمية - تستندولو على قليل من الموضوعية - لجأوا إلى الحملات المغرضة، والمؤامرات الدنيئة ضد هذا الدين، منساقين كل الانسياق وراء التعصب الأعمى والحقن الأسود على الإسلام ورسول البشرية صلى الله عليه وسلم.

فراحوا يروجون أباطيلهم وشبهاتهم حول الإسلام ونبى البشرية صلوات الله عليه وسلامه، وبأسلوب متصف بالوقاحة وعدم الموضوعية.

ولا يسعنا في هذا المقام من استعراض جميع مفترقات المستشرقين فذلك محله كتب مختصة بهذا الموضوع. وإنما ما يهمنا في هذه العجالة ما يتصل وموضوع الكتاب اتصالاً وثيقاً. وعلى هذا سوف نركز بحثنا هذا على النقاط التالية:

١ - تعدد الزوجات في الإسلام بشكل عام والذي اعتبره بعض المستشرقين مظهراً من مظاهر التخلف، بل قالوا: إنه مظهر من مظاهر البهائم..

٢ - الرد على مسألة تعدد زوجات النبي ﷺ بشكل خاص والتي اتهم من أجلها بالشهوانية والأنانية، وطغيان الميول الجنسية..

ومن خلال هذه القضية سنتحدث بشيء من التفصيل على افتراءات المستشرقين فيما تقولوه بشأن:

أ - زواجه صلى الله عليه وسلم من عائشة وهي ابنة تسع سنوات،
بينما كان هو في سن الكهولة.

ب - حادثة الإفك والتي اتخذها أعداء الإسلام منقذاً للطعن بكرامة
رسول الله ﷺ.

ج - قصة زواجه صلى الله عليه وسلم من ابنة عمته زينب رضي الله
عنها. والتي نسج عليها المستشرقون قصة غرام ووكه.

٣ - الطلاق في الإسلام والذي اعتبره المستشرقون قسوة وظلماً
واستبداداً بالنساء.

٤ - حملة حمقاء في هيئة الأمم على المرأة المسلمة.

وفي بحثنا سنحاول الردّ على هذه المفتريات الهدامة وبيان موقف
الإسلام منها مستمدين العون والتوفيق من الله سبحانه وتعالى.

تكدّد الزوجات في الإسلام

يحاول المستشرقون، وأتباعهم من المستغربين من أبناء الإسلام أن يوجهوا جهودهم لنقد نظام التعدد في الإسلام، وإيهام النساء بصحة أراجيفهم ومآخذهم الهزيلة الحاقدة. فقالوا: إن نظام التعدد يكاد يكون مقصوراً على الأمم التي تدين بالإسلام، وأنه لا ينتشر إلا في الشعوب المتأخرة في الحضارة.

وقالوا: نظام التعدد هو مسابقة لدواعي الشهوات عند الرجال، وأنه إهدار لكرامة المرأة واجحاف بحقوقها، كما أنه في نفس الوقت إهدار لمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة الذي يقتضي أن يكون الزوج خالصاً لزوجته كما أن زوجته خالصة له.

ويقفرون أيضاً قائلين: إن تعدد الزوجات مدعاة للتنازع الدائم بين الزوج وزوجاته، وبين الزوجات بعضهن مع بعض، كما أنه مصدر للشقاق والتنافر بين أولاد العلات^(١) مما يؤدي إلى إشاعة الفوضى والاضطراب في حياة الأسرة، ويعيش الأولاد في جو فاسد، فينتقل فساده إلى نفوسهم وأخلاقهم.

(١) أولاد العلات: أي أبوهم واحد وأمهاتهم شتى.

وللرد على تلك الافتراءات الجاهلة، الضالة الوقحة، الحاقدة على
منهج الله عز وجل نقول متوكلين على الله:

إن مسألة إباحة تعدد الزوجات كانت سائدة من قبل ظهور الإسلام
في شعوب كثيرة.

يقول علي عبد الواحد وافي في كتابه حقوق الإنسان في الإسلام:
«.. فالحقيقة أن هذا النظام كان سائداً من قبل ظهور الإسلام في
شعوب كثيرة، منها الاسرائيليون والعرب، والهنود، والبرهميون،
والإيرانيون، والزرادشتون، وشعوب الصقالبة، أو السلافيون، التي
ينتمي إليها معظم أهل البلاد التي نسميها الآن روسيا وليتوانيا،
واستونيا، وبولونيا.. وعند بعض الشعوب الجرمانية والسكسونية..»^(١).

ويقول العقاد في كتابه المرأة في القرآن: «وقد سكنت الشرائع
الإجتماعية قبل الإسلام عن كل حكم من أحكام الزواج غير الحكم المفهوم
من إباحتها على إطلاقه بغير عدد محدود من الزوجات، أية كانت نسبة
العدد بين الجنسين، وقدرة الزوج على مؤنة البيت، وحالة المجتمع من
توفير أسباب المعيشة البيتية. فالشرائع المدنية عامة قبل الإسلام كانت
تبيح تعدد الزوجات، واقتناء السراري بغير تحديد للعدد..»^(٢).

أما عن التعدد في الديانتين اليهودية والنصرانية فنقول:

أما في الديانة اليهودية:

فإنها تبيح تعدد الزوجات بدون عدد محدود، ولم يرد في التوراة
نهي عن ذلك، وإنما ورد أنه مباح ومأثور عن أنبيائهم حيث تذكر
كتبهم المقدسة أن (داود) و(سليمان) عليهما السلام جمعا بين مئآت
الزوجات الحرائر، والإماء.

(١) حقوق الإنسان في الإسلام - علي عبد الواحد وافي ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٢) المرأة في القرآن - عباس محمود العقاد ص ١١٢.

فقد ورد في العهد القديم في الإصحاح الحادي عشر عند الحديث عن سليمان عليه السلام (..) وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السراري(١).

وفي سفر التكوين ورد ما نصه: (..) فذهب عيسو إلى اسماعيل وأخذ محله بنت اسماعيل بن ابراهيم أخت نيا بوث زوجة له على نسائه(٢). وعند الحديث عن يعقوب بن اسحاق تذكر التوراة ما نصه: (..) ثم قام في تلك الليلة وأخذ امرأته وجاريته وأولاده الأحد عشر وعبر مخاضة يبيوق(٣).

وقد ذكر في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ ما يؤكد التعدد في الديانة اليهودية فقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كلهن تأتي بفارس يقاتل في سبيل الله»(٤).

ومن هذه النصوص وغيرها - الكثير الكثير مما لا مجال لذكره في هذه العجالة - يتبين لنا أن الديانة اليهودية تبيح تعدد الزوجات .

وأما في الديانة النصرانية:

فإنه لم يرد في الأناجيل نص يمنع التعدد، بل ورد في بعض رسائل بولس ما يفيد أن التعدد جائز، فقد قال: «يلزم أن يكون الأسقف

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم، الملوك الأول، الإصحاح الحادي عشر فقرة (٣) صفحة ٥٥٢.

(٢) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الثامن والعشرون، فقرة (٩).

(٣) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الثاني والثلاثون فقرة (٢٢).

(٤) جزء من حديث رواه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب﴾ (١٣٥/٤) ومسلم في الإيمان، باب الاستثناء برقم ١٦٥٤/.

زوجاً لزوجة واحدة»^(١).

ومن إلزام الأسقف وحده بالزواج من واحدة دليل على جواز التعدد لغيره من النصارى.

وقد ثبت تاريخياً أن بين النصارى الأقدمين من كانوا يتزوجون أكثر من واحدة، وفي آباء الكنيسة الأقدمين من له كثير من الزوجات. يذكر العقاد في كتابه (المرأة في القرآن): أن (وسترمارك) العالم الثقة في تاريخ الزواج يقول: «إن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر، وكان يتكرر كثيراً في الحالات التي لا تحصيها الكنيسة والدولة».

وما يُعرف عن مارتن لوثر زعيم الإنجليكان أنه أول من أقر تعدد الزوجات واحتج على كراهية الكهنة للزواج لدرجة أنه تخلى عن رهبنته وتزوج من راهبة، وكل هذا يرسم طريقاً جديداً في التفكير حتى أصبح يتكلم في مناسبات شتى عن تعدد الزواج بغير اعتراض.

هذا والنصرانية المعاصرة تعترف بالتعدد في إفريقيا السوداء للإفريقيين النصارى إلى غير عدد محدود.

يقول الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله في كتابه (المرأة بين الفقه والقانون): «والمسيحيون في إفريقيا يتخذون تعدد الزوجات وسيلة لنشر رسالتهم التبشيرية بعد أن وجدت الإرساليات التبشيرية نفسها أمام واقع اجتماعي وهو تعدد الزوجات لدى الإفريقيين الوثنيين، ورأوا الاصرار

(١) رسالة بولس الأولى إلى تيموناس، نقلاً من كتاب تعدد الزوجات للشيخ عبدالله ناصح علوان - رحمه الله - ص ١٦.

على منع التعدد يحول بينهم وبين الدخول في النصرية، فنادوا بوجوب السماح للإفريقيين المسيحيين بالتعدد إلى غير حد»^(١).

ويقول أيضاً رحمه الله في نفس الكتاب: والشعوب الغربية النصرانية وجدت نفسها تجاه زيادة في عدد النساء على الرجال - وبخاصة بعد الحربين العالميتين - إزاء مشكلة اجتماعية خطيرة، لا تزال تتخبط في إيجاد الحل المناسب، وقد كان من بين الحلول التي برزت إباحة تعدد الزوجات.

ففي عام ١٩٤٨ م عمد مؤتمر الشباب في (ميونيخ) بألمانيا، وبحث مشكلة زيادة عدد النساء في ألمانيا أضعافاً مضاعفة عن عدد الرجال بعد الحرب، وقد استعرضت مختلف الحلول لهذه المشكلة، وكانت النتيجة أن أقرت اللجنة توصية المؤتمر بالمطالبة بإباحة تعدد الزوجات لحل المشكلة.

هذا وقد أثنى المفكرون الغربيون على نظام التعدد، ونادوا بإباحته لإنقاذ المجتمع، ولتمكين كل امرأة من حقها المشروع في الأمومة.

يقول غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب): (إن مبدأ نظام تعدد الزوجات الشرقي نظام طيب يرفع المستوى الأخلاقي في الأمم التي تقول به، ويزيد الأسر ارتباطاً، ويمنح المرأة احتراماً وسعادة لا تراهما في أوروبا).

وقد ذكر العقاد في كتابه (المرأة في القرآن) طائفة من آراء الفلاسفة الأوروبيين في التعدد، فنقل عن الدكتور ليبون قوله: إن القوانين الأوروبية سوف تجيز التعدد. ونقل عن (أهرنفيل) قوله: إن التعدد

(١) المرأة بين الفقه والقانون ص ٧٤.

ضروري للمحافظة على بقاء السلالة الأرية^(١).

وأما في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام فحدث ولا حرج إذ كان تعدد الزوجات بدون قيود ولا حدود، فقد روى أبو داود في سننه عن الحارث بن قيس قال: أسلمت وعندي ثمان نساء، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: « اختر منهن أربعاً »^(٢).

وروى الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وله عشر نساء في الجاهلية، فأسلمن معه، فأمره النبي ﷺ أن يتخير منهن أربعاً^(٣).

وما تقدم يتبين أن نظام تعدد الزوجات ليس مقصوراً على الدين الإسلامي فقط كما يدعيه المستشرقون واتباعهم من المستغربين أعداء الإسلام - بل كان سائداً قبل ظهور الإسلام في شعوب كثيرة وبين الشرائع السماوية التي جاءت قبل الإسلام، وكذلك العرب في الجاهلية كانوا يمارسونه.. وصدق الله الذي يقول في كتابه العزيز:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾^(٤)

(١) المرأة في القرآن للعقاد ص ٨٢.

(٢) رواه أبو داود في الطلاق، باب فيمن أسلم وعنده نساء أكثر من أربع برقم ٢٢٤٢/.

(٣) رواه الترمذي في النكاح، باب ما جاء في الرجل المسلم وعنده عشر نساء برقم ١١٢٨/.

(٤) سورة الحج، آية ٤٦.

وأما عن التعدد في الدين الإسلامي:

فقد جاء الإسلام ونظام التعدد شائعاً وتحت الرجال عشرة نسوة أو أكثر أو أقل - بدون حد ولا قيد - وجاء الإسلام ليبين للناس أن هناك حداً لا يتجاوزه المسلم وهو أربع، وأن هناك قيداً لهذا العدد وهو: إمكان العدل - وإلا فواحدة.. أو ما ملكت أيمانكم.. يقول سيد قطب - رحمه الله - في كتابه القيم (في ظلال القرآن):

جاء الإسلام لا ليطلق، ولكن ليحدد، ولا ليرك الأمر لهوى الرجل، ولكن ليقيد التعدد بالعدل. وإلا امتنعت الرخصة المعطاة!.

ولكن لماذا أباح هذه الرخصة؟

إن الإسلام نظام للإنسان. نظام واقعي إيجابي. يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه، ويتوافق مع واقعه وضروراته، ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيرة في شتى البقاع وشتى الأزمان، وشتى الأحوال.

إنه نظام واقعي إيجابي، يلتقط الإنسان من واقعه الذي هو فيه، ومن موقفه الذي هو عليه، ليرتفع به في المرتقى الصاعد، إلى القمة السامقة. في غير إنكار لفطرته أو تنكر، وفي غير إغفال لواقعه أو إهمال، وفي غير عنف في دفعه أو اعتساف!.

إنه نظام لا يقوم على الخدلة الجوفاء، ولا على التطرف المائع، ولا على «المثالية» الفارغة، ولا على الأمنيات الحائلة، التي تصطدم بفطرة الإنسان وواقعه وملابسات حياته، ثم تتبخر في الهواء.

وهو نظام يرعى خلق الإنسان، ونظافة المجتمع، فلا يسمح بإنشاء واقع مادي، من شأنه انحلال الخلق، وتلويث المجتمع، تحت مطارق الضرورة التي تصطدم بذلك الواقع. بل يتوخى دائماً أن ينشئ واقعاً يساعد على صيانة الخلق، ونظافة المجتمع، مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبذله المجتمع.

فإذا استصبحنا معنا هذه الخصائص الأساسية في النظام الإسلامي ،
ونحن ننظر الى مسألة تعدد الزوجات .. فإذا نرى؟.

نرى .. أولاً .. أن هناك حالات واقعية في مجتمعات كثيرة -
تاريخية وحاضرة - تبدو فيها زيادة عدد النساء الصالحات للزواج ،
على عدد الرجال الصالحين للزواج .. والحد الأعلى لهذا الاختلال الذي
يعتري بعض المجتمعات لم يُعرف تاريخياً أنه تجاوز نسبة أربع إلى واحد .
وهو يدور دائماً في حدودها .

فكيف نعالج هذا الواقع ، الذي يقع ويتكرر وقوعه ، بنسب مختلفة .
هذا الواقع الذي لا يجدي فيه الإنكار؟ .

نعالجه بهز الكتفين؟ أو نتركه يعالج نفسه بنفسه؟ حسب الظروف
والمصادفات؟! .

إن هز الكتفين لا يحل مشكلة! كما أن ترك المجتمع يعالج هذا
الواقع حسبما اتفق لا يقول به إنسان جاد ، يحترم نفسه ، ويحترم الجنس
البشري .

ولا بد إذن من نظام ، ولا بد إذن من إجراء ..
وعندئذ نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات :

١ - أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج ..
ثم تبقى واحدة أو أكثر - حسب درجة الاختلال الواقعة -
بدون زواج ، تقضي حياتها - أو حياتهن - لا تعرف الرجال! .

٢ - أن يتزوج كل رجل صالح للزواج واحدة فقط زواجاً شرعياً
نظيفاً . ثم يخادن أو يسافح واحدة أو أكثر ، من هؤلاء اللواتي
ليس لهن مقابل في المجتمع من الرجال . فيعرفن الرجل خدينا أو
خليلاً في الحرام والظلام! .

٣ - أن يتزوج الرجال الصالحون - كلهم أو بعضهم - أكثر من واحدة. وأن تعرف المرأة الأخرى الرجل، زوجة شريفة، في وضح النور لا خدينة ولا خلية في الحرام والظلام!.

الاحتمال الأول ضد الفطرة، وضد الطاقة، بالقياس إلى المرأة التي لا تعرف في حياتها الرجال. ولا يدفع هذه الحقيقة ما يتشدد به المتشدقون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل والكسب. فالمسألة أعمق بكثير مما يظنه هؤلاء السطحويون المتحذلقون المتطرفون الجهال عن فطرة الإنسان. وألف عمل، وألف كسب لا تغني المرأة عن حاجتها الفطرية إلى الحياة الطبيعية.. سواء في ذلك مطالب الجسد والغريزة، ومطالب الروح والعقل، من السكن والأنس بالعشير.. والرجل يجد العمل ويجد الكسب، ولكن هذا لا يكفي، فيروح يسعى للحصول على العشرة، والمرأة كالرجل - في هذا - فهذا من نفس واحدة!.

والإحتمال الثاني ضد اتجاه الإسلام النظيف، وضد قاعدة المجتمع الإسلامي العفيف، وضد كرامة المرأة الإنسانية. والذين لا يحفلون أن تشيع الفاحشة في المجتمع، هم أنفسهم الذين يتعاملون على الله، ويتطاولون على شريعته. لأنهم لا يجدون من يردعهم عن هذا التطاول. يل يجدون من الكائدين لهذا الدين كل تشجيع وتقدير!.

والاحتمال الثالث هو الذي يختاره الإسلام. يختاره رخصة مقيدة. لمواجهة الواقع الذي لا ينفع فيه هز الكتفين، ولا تنفع فيه الحذقة والادعاء. يختاره متمشياً مع واقعيته الإيجابية، في مواجهة الإنسان كما هو - بفطرته وظروف حياته - ومع رعايته للخلق النظيف والمجتمع المتطهر، ومع منهجه في التقاط الإنسان من السفح، والرقى به في الدرج الصاعد إلى القمة السامقة. ولكن في يسر ولين وواقعية.

ثم نرى.. ثانياً.. في المجتمعات الإنسانية قديماً وحديثاً. وبالأمس واليوم والغد. إلى آخر الزمان واقعاً في حياة الناس، لا سبيل إلى إنكاره كذلك أو تجاهله.

نرى أن فترة الإخصاب في الرجل تمتد إلى سن السبعين أو ما فوقها. بينما هي تقف في المرأة عند سن الخمسين أو حواليتها. فهناك في المتوسط عشرون سنة من سني الإخصاب في حياة الرجل لا مقابل لها في حياة المرأة. وما من شك أن من أهداف اختلاف الجنسين ثم التقائهما، امتداد الحياة بالإخصاب والإنسال، وعمران الأرض بالتكاثر والانتشار. فليس مما يتفق مع هذه السنة الفطرية العامة أن نكف الحياة عن الانتفاع بفترة الإخصاب الزائدة في الرجال. ولكن مما يتفق مع هذا الواقع الفطري أن يسن التشريع -الموضوع لكافة البيئات في جميع الأزمان والأحوال- هذه الرخصة- لا على سبيل الإلزام الفردي، ولكن على سبيل إيجاد المجال العام الذي يلبي هذا الواقع الفطري، ويسمح للحياة أن تنتفع به عند الاقتضاء.. وهو توافق بين واقع الفطرة وبين اتجاه التشريع ملحوظ دائماً في التشريع الإلهي. لا يتوافر عادة في التشريعات البشرية، لأن الملاحظة البشرية القاصرة لا تنتبه له، ولا تدرك جميع الملابس القريبة والبعيدة، ولا تنظر من جميع الزوايا، ولا تراعي جميع الاحتمالات.

ومن الحالات الواقعية - المرتبطة بالحقيقة السالفة - ما نراه أحياناً من رغبة الزوج في أداء الوظيفة الفطرية، مع رغبة الزوجة عنها - لعائق من السن أو من المرض - مع رغبة الزوجين كليهما في استدامة العشرة الزوجية وكراهية الانفصال - فكيف نواجه مثل هذه الحالات؟

نواجهها بهز الكتفين، وترك كل من الزوجين يخطط رأسه في الجدار؟! أو نواجهها بالحدلقة الفارغة والتظرف السخيف؟

إن هز الكتفين - كما قلنا - لا يحل مشكلة. والحذقة والتطرف لا يتفقان مع جدية الحياة الإنسانية، ومشكلاتها الحقيقية..
وعندئذ نجد أنفسنا - مرة أخرى - أمام احتمال من ثلاثة احتمالات:

- ١ - أن نكتب الرجل ونصده عن مزاوله نشاطه الفطري بقوة التشريع وقوة السلطان! وتقول له: عيب يا رجل! إن هذا لا يليق، ولا يتفق مع حق المرأة التي عندك ولا مع كرامتها!.
- ٢ - أن نطلق هذا الرجل يخادن ويسافح من يشاء من النساء!.
- ٣ - أن نبيح لهذا الرجل - التعدد - وفق ضرورات الحال - ونتوقى طلاق الزوجة الأولى..

الاحتمال الأول ضد الفطرة، وفوق الطاقة، وضد احتمال الرجل العصبي والنفسي. وثمرته القربية - إذا نحن أكرهناه بحكم التشريع وقوة السلطان - هي كراهية الحياة الزوجية التي تكلفه هذا العنت، ومعاناة جحيم هذه الحياة وهذه ما يكرهه الإسلام، الذي يجعل من البيت سكناً، ومن الزوجة أنساً ولباساً.

والاحتمال الثاني ضد اتجاه الإسلام الخلقي، وضد منهجه في ترقية الحياة البشرية، ورفعها وتطهيرها وتزكيتها، كي تصبح لائقة بالإنسان الذي كرمه الله على الحيوان.

والاحتمال الثالث هو وحده الذي يليي ضرورات الفطرة الواقعية، ويلي منهج الإسلام الخلقي، ويحتفظ للزوجة الأولى برعاية الزوجية، ويحقق رغبة الزوجين في الإبقاء على عسرتها وعلى ذكرياتها، ويسر على الإنسان الخطو الصاعد في رفق ويسر وواقعية.

وشيء كهذا يقع في حالة عقم الزوجة، مع رغبة الزوج الفطرية في

النسل. حيث يكون أمامه طريقتان لا ثالث لهما:

١ - أن يطلقها ليستبدل بها زوجة أخرى تلي رغبة الإنسان الفطرية في النسل.

٢ - أو أن يتزوج بأخرى، ويبقى على عشرته مع الزوجة الأولى.

وقد يهذر قوم من المتحذلقين - ومن المتحذلقات - بإيثار الطريق الأول. ولكن تسعاً وتسعين زوجة - على الأقل - من كل مائة سيتوجهن باللعنة إلى من يشير على الزوج بهذا الطريق! الطريق الذي يحطم عليهن بيوتهن بلا عوض منظور - فقلما تجد العقيم وقد تبين عقمها راغباً في الزواج - وكثيراً ما تجد الزوجة العاقر أنساً واسترواحاً في الأطفال الصغار، تجيء بهم الزوجة الأخرى من زوجها، فيملأون عليهم الدار حركة وبهجة أياً كان ابتئاسها لحرمانها الخاص.

وهكذا حيثما ذهبنا تأمل الحياة الواقعية بلباساتها العملية، التي لا تصغي للحدقة، ولا تستجيب للهذر، ولا تستروح للهزل السخيف والتميع المنحل في مواضع الجد الصارم.. وجدنا مظاهر الحكمة العلوية، في سن هذه الرخصة، مقيدة بذلك القيد:

﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ - مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ فالرخصة تلي واقع الفطرة، وواقع الحياة، وتحمي المجتمع من الجنوح - تحت ضغط الضرورات الفطرية والواقعية المتنوعة - إلى الإنحلال أو الملل.. والقيد يحمي الحياة الزوجية من الفوضى والاختلال، ويحمي الزوجة من الجور والظلم، ويحمي كرامة المرأة أن تتعرض للمهانة بدون ضرورة ملجئة واحتياط كامل. ويضمن العدل الذي تحتل معه الضرورة ومقتضياتها المبررة^(١).

(١) في ظلال القرآن السيد قطب - رحمه الله (٥٧٩/٤ - ٥٨١).

ومما تجدر الإشارة إلى ذكره في هذا المقام أن العدل المطلوب المشروط في التعدد، هو العدل المادي في المسكن واللباس والطعام، والنفقة والمعاشرة والمباشرة، وكل ما يدخل في طوق الإنسان وإرادته، أما العدل في مشاعر القلوب وأحاسيس النفوس فلا يطالب به الإنسان لأنه خارج عن إرادته، وهو المراد بقوله تعالى:

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١).

وأما ما يحاوله بعض المغرضين من الاستشهاد بهذه الآية لتحريم التعدد، فلا وجه له، وقد حدد معلم البشرية ورسولها صلى الله عليه وسلم أن مفهوم العدل في هذه الآية الكريمة إنما هو العدل القلبي الخارج عن إرادة الإنسان ولذلك كان يقول بعد أن يعدل بين زوجاته في الأمور المادية: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك - يعني القلب» (٢).

هكذا وضع الإسلام القيود، واشترط الشروط لتعدد الزوجات حينما أباحه، مما يجعل الرجل الذي تطالبه نفسه بالتعدد يتروى فيه، ويحاسب نفسه على قصده وعزمه حتى لا يقع في الظلم الذي حرمه الإسلام. وعندما تقوم الحياة الزوجية على أسس الإسلام التربوية يعيش الجميع في سعادة حققة واستقرار كامل من العيش الهانئ الرغيد، فلا

(١) سورة النساء، آية ١٢٩.

(٢) رواه أبو داود في النكاح، باب في القسم بين النساء برقم ٢١٣٤. ورواه الترمذي في النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر برقم ١١٤٠/ ورواه النسائي في عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض (٦٤/٧). ورواه الحاكم في المستدرک (١٨٧/٢) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، ومع هذا فقد أشار الشيخ الألبان حفظه الله في إرواء الغليل برقم ٢٠١٨ / الى تخفيف الحديث بسبب الإرسال.

ظلم من الرجال ولا زوجات تحركها الأنانية والأهواء، ولا أولاد تفرقهم
العداوات والخصومات، وإنما بيت إسلامي تعممه الفضيلة
والأخلاق، ويملؤه الحب والإخلاص.

وأما دعوى هدر كرامة المرأة لعدم مساواتها بالرجل والسماح لها
بالتعدد مساواة لها بالرجال، أو منع الطرفين من ذلك، فهذه دعوى
باطلة ومستحيلة طبيعة وخلقة، ولنستمع إلى ما قاله العلامة ابن
القيم - رحمه الله - وهو يرد على من يتشدد بمثل هذه الأغلوطات:

وأما قوله: «وأنه أباح للرجل أن يتزوج بأربع زوجات، ولم يبيح
للمرأة أن تتزوج بأكثر من زوج واحد» فذلك من كمال حكمة الرب
تعالى وإحسانه ورحمته بخلقه، ورعاية مصالحهم، ويتعالى سبحانه عن
خلاف ذلك، وينزه شرعه أن يأتي بغير هذا، ولو أبيع للمرأة أن تكون
عند زوجين فأكثر لفسد العالم، وضاعت الأنساب، وقتل الأزواج بعضهم
بعضاً، وعظمت البلية، واشتدت الفتنة، وقامت سوق الحرب على ساق،
وكيف يستقيم حال امرأة فيها شركاء متشاكسون؟ وكيف يستقيم حال
الشركاء فيها؟ فمجيء الشريعة بما جاءت به من خلاف هذا من أعظم
الأدلة على حكمة الشارع ورحمته وعنايته بخلقه»^(١).

وقبل أن نختم بحثنا في الردّ على افتراءات المفترين على نظام التعدد
في الإسلام نقول:

إن الإسلام - وهو يرخّص مبدءاً التعدد لمواجهة واقعيات الحياة
البشرية وضرورات الفطرة الإنسانية - لم يجبر المرأة على قبول الزواج
برجل متزوج بل ترك لها كمال الحرية في القبول أو الرفض، فإذا هي

(١) راجع كلام ابن القيم رحمه الله في اعلام الموقعين (٢/٨٥) وما بعده ففيه كلام طيب
ورد جميل حول هذا الموضوع.

قبلت به عن طيب خاطر، كان ذلك دليلاً على استعدادها للعيش مع
الضرائع، وكان ذلك دليلاً على تفهمها على أن الإسلام كفل لها حقوقها
ولم يهضمها، بل كرمها ورفع من مستواها بهذا الزواج المبارك الكريم.

وأما ما نلمسه في انحراف الناس باستخدام نظام التعدد واتخاذ
وسيلة لإحالة الحياة الزوجية مسرحاً للذة الحيوانية، ومن ثم تدمير
الحياة الزوجية وما يلحقها من عواقب وخيمة، فليس ذلك شأن
الإسلام، وإنما شأن الانحراف والبعد عن الإسلام، وهذه سنة الله في
خلقه عندما يبتعدون عن منهجه يقول سيد قطب - رحمه الله:

« فإذا انحرف جيل من الأجيال في استخدام هذه الرخصة .. فليس
ذلك من الإسلام، وليس هؤلاء هم الذين يمثلون الإسلام .. إن هؤلاء إنما
انحدروا إلى هذا الدرك لأنهم بعدوا عن الإسلام ولم يدركوا روحه
النظيف، الكريم، والسبب أنهم يعيشون في مجتمع لا يحكمه الإسلام، ولا
تسيطر فيه شريعته، مجتمع لا تقوم عليه سلطة مسلمة تدين للإسلام
وشريعته، وتأخذ الناس بتوجيهات الإسلام وقوانينه، وآدابه وتقاليده.

إن المجتمع المعادي للإسلام المتفلت من شريعته وقانونه، هو المسؤول
الأول عن هذه الفوضى .. هو المسؤول عن اتخاذ الحياة الزوجية مسرح
لذة بهيمية، فمن شاء أن يصلح هذه الحال فليرد الناس إلى الإسلام،
وشريعة الإسلام، ومنهج الإسلام، فيردهم إلى النظافة والطهارة
والاستقامة والاعتدال .. من شاء الإصلاح فليرد الناس إلى الإسلام لا
في هذه الجزئية ولكن في منهج الحياة كلها، فالإسلام نظام متكامل لا
يعمل إلا وهو كامل شامل » ا.هـ^(١).

(١) أنظر كتاب في ظلال القرآن (١/٨٥٢).

وأخيراً أيتها الفتاة المسلمة إياك أن تغتري بمفتريات أعداء الإسلام ومحاولات منع التعدد تحت شعارات براءة.. كالتقدمية، وتحرير المرأة.. و.. ولترفعي رأسك عالياً وأنت تطالبين بنات جنسك للأخذ بهذه الرخصة العظيمة التي تخلص الكثير من النساء من ذل الحاجة، وغائلة الفقر، ويحفظ لهن كرامتهن وعفافهن. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (١).

ولننتقل الآن للرد على الفرية الثانية الموجهة إلى سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم بشأن تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم.

(١) سورة المائدة، آية ٤٠.

تَعَدُّ زَوَاجَاتِ الرَّسُولِ ﷺ

كما ذكرنا في مقدمة هذا البحث بأن أعداء الإسلام لما فشلوا في مقاومته بالأساليب العلمية لجأوا إلى المؤامرات الدنيئة الحاقدة، فراحوا يروجون أباطيلهم وشبهاتهم حول شخصية الرسول ﷺ لا سيما بالنسبة لتعدد زواجه، فكالوا له التهم الدنيئة، متخذين من جمعه صلى الله عليه وسلم بين تسع نسوة في وقت واحد، منفذاً للطعن ووسيلة للإتهام، فزعموا أنه صلى الله عليه وسلم كان رجلاً شهوانياً وأنانياً ومن أهل الدنيا، وأنه كان يفتقر إلى النقاء الروحي فضلاً عن النبوة والرسالة.

إلى جانب الافتراءات الأخرى الحاقدة المثارة حول قصة زواجه بأم المؤمنين (زينب) رضي الله عنها، وقصة الأفك على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وها نحن أولاء نشرع بعون الله تعالى في الردّ على هذه المفتريات الخبيثة مركزين بحثنا على النقاط التالية:

١ - تعدد الزوجات لم يكن مختصاً بالرسول ﷺ، وإنما هو سنة أكثر الأنبياء قبله.

٢ - الحكمة من تعداد أزواجه صلى الله عليه وسلم والأسباب الداعية لذلك ومن خلال هذه الفقرة سنتكلم بشيء من التفصيل عن:

- - حادثة الإفك.
- - زواجه صلى الله عليه وسلم من زينب رضي الله عنها.

سنة الأنبياء السابقين في التعدد:

قلنا سابقاً بأن الجمع بين عدة زوجات كان شائعاً في البيئة الإنسانية والعربية قبل الإسلام بشكل عام.

والآن سنخص الحديث عن كبار الأنبياء من بني إسرائيل عليهم السلام لأن معظم المعترضين على تعدد أزواج الرسول ﷺ هم المستشرقون من اليهود والنصارى.

١ - تعدد زوجات إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء .

كان لإبراهيم عليه السلام ثلاث زوجات حسبما ورد في التوراة والإنجيل:

أ - هاجر: وهي أم إسماعيل عليه السلام. ورد ذلك في العهد القديم من سفر التكوين الإصحاح السادس عشر وما ذكر فيه نصاً: (فولدت هاجر لإبراهيم ابناً، ودعا إبراهيم اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل)^(١).

ب - سارة: وهي أم إسحاق عليه السلام، ورد هذا في سفر التكوين الإصحاح السابع عشر وفيه:

قال الله لإبراهيم ساراي امرأتك لا تدعو إسمها ساراي بل أسماها سارة تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق^(٢).

ج - قطورة: وهي أم (زمران، بقشان، مدان، مديان، بشباق، شوحا). ورد هذا في سفر التكوين الإصحاح الخامس والعشرون

(١) الكتاب المقدس، سفر التكوين الإصحاح السادس عشر فقرة (١٥).

(٢) الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح السابع عشر فقرة (١٥ - ٢٠) ..

حيث جاء فيه: (وعاد إبراهيم فأخذ زوجة اسمها (قطورة)
فولدت له: زمران وبقشان ومدان ومديان وبشباق وشوحا)^(١).

٢ - تعدد زوجات يعقوب عليه السلام:

كان ليعقوب عليه السلام أربع زوجات هنّ:

أ - لَيْثَة: وولدت له خمسة بنين وابنة وهم: رَأُوبِين وشَمْعُون وَلَآوِيّ ويهوذا^(٢) وزبولون، ودينه.

ب - راحيل: وولدت ليعقوب إبنان هما: دَآنا ويوسف عليه السلام ونص التوراة كما يلي: (وذكرَ الله راحيل وسمع لها الله وفتح رحمها فحبلت وولدت إبناً، فقالت قد نزع الله عاري ودعت اسمه يوسف قائلة يزيديني الرب إبناً آخر^(٣)) ودانا هو اسم لبنيامين شقيق يوسف عليه السلام.

ج - زَلْفَة: وهي أم: جادا وأشير، كما في النص التالي:
(ولما رأت لَيْثَة أنها توقفت عن الولادة أخذت زلفة جاريتها وأعطتها ليعقوب زوجة فولدت له: جادا وأشير^(٤)).

د - بَلْهَة: وهي أم نفتالي، وهي جارية راحيل أعطتها ليعقوب زوجة كما في النص (فأعطته - أي راحيل) بلهة جاريتها زوجة، فدخل عليها يعقوب فحبلت بلهة وولدت ليعقوب ابناً فدعت اسمه (نفتالي)^(٥).

(١) الكتاب المقدس، سفر التكوين، الإصحاح الخامس والعشرون فقرة (١ - ٢).

(٢) سفر التكوين، الإصحاح التاسع والعشرون فقرة (٢١ - ٢٥) والإصحاح الثلاثون فقرة (٢١).

(٣) سفر التكوين، الإصحاح الثلاثون فقرة (٢٣ و ٢٤).

(٤) سفر التكوين، الإصحاح الثلاثون فقرة (١٢ و ٩).

(٥) سفر التكوين، الإصحاح الثلاثون فقرة (٥ و ٨).

٣ - تعدد زوجات موسى عليه السلام.

وكان لموسى عليه السلام ثلاث زوجات هن:

أ - صفورة: وهي إحدى البنات اللاتي سقى لهن موسى عليه السلام فتزوجها فولدت له: جرشوم^(١).

ب - المرأة الكوشية: كما ورد في سفر العدد الإصحاح الثاني عشر: (وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها، وكان قد اتخذ امرأة كوشية)^(٢).

ج - بنت القيني: فقد ورد في التوراة أن موسى عليه السلام كان متزوجاً منهم والنص في سفر القضاة، كما يلي: (وبنو القيني حَمِي موسى...) ^(٣).

٤ - زوجات داود عليه السلام.

وكان لداود عليه السلام تسع زوجات سنقتصر على ذكر بعضهم لضيق المقام.

أ - ميكال: وهي ابنة شاول. فقد ورد في التوراة أن شاول أعطى داود ميكال ابنته امرأة له^(٤).

ب - أبيجال: وكانت امرأة نابال فلما مات أرسل داود لها ليتخذها امرأة له ثم بادرت أبيجال وركبت الحمار مع خمس فتيات لها وسارت وراء رسل داود وصارت له امرأة^(٥).

(١) سفر التكوين، الإصحاح الثاني فقرة (٢١ و ٢٢).

(٢) سفر العدد، الإصحاح الثاني عشر فقرة (١ و ٢).

(٣) سفر القضاة، الإصحاح الأول، فقرة (١٦).

(٤) صموئيل الأول، الإصحاح الثاني عشر، فقرة (٢٨).

(٥) صموئيل الأول، الإصحاح الخامس والعشرون فقرة (٣٨ حتى ٤٠).

ج - أخينوعم البزر عيلية: فقد جاء في الإصحاح السابع والعشرون:
(وأقام داود عند أخيش في جبت مع امرأته: أخينوعم
البزرعيلية وابيجال امرأة نابال الكرملية)^(١).

د - معكة بنت تلماي.

هـ - مجيث.

و - أبيطال.

ز - عجلة.

وقد وردت أسماء هذه الزوجات جميعاً في سفر صموئيل
الثاني بلفظ: (وَوُلِدَ لداود بنون في حبرون، وكان بكره أمنون
من أخينوعم البزر علية، وثانية كيلاّب من أبيجال، والثالث
أبشالوم ابن معكة بنت تلماي، والرابع أدونيا ابن مجيث،
والخامس شفتيا ابن أبيطال، والسادس يثرعام من عجلة، هؤلاء
ولدوا لداود في حبرون)^(٢).

ح - وبعد مجيء داود عليه السلام من حبرون وأصبح ملكاً على
إسرائيل أخذ عدداً من السراري والنساء من أورشليم كما ذكر
النص في صموئيل الثاني في الإصحاح الخامس: «وأخذ داود
أيضاً سراري ونساء من أورشليم بعد مجيئه من حبرون فولد
لداود أيضاً بنون وبنات، وهذه أسماء الذين ولدوا له في أورشليم
(شموع وشوباب وناتان وسليمان ومجار وأليشوع ونافج ويافيع
واليشمع والبداع وأليفط)^(٣).

(١) صموئيل الأول، الإصحاح السابع والعشرون فقرة (٣ و ٤).

(٢) صموئيل الثاني، الإصحاح الثالث فقرة (٢ حتى ٥).

(٣) صموئيل الثاني، الإصحاح الخامس فقرة (١٣ حتى ١٦).

٥ - زوجات سليمان عليه السلام.

أما نبي الله سليمان عليه السلام فتذكر التوراة أنه كان له سبعة من النساء السيدات. وثلاثمائة من السراري، وهذا هو النص كما ورد في سفر الملوك الأول من الإصحاح الحادي عشر: «..وكانت لسليمان سبعة من النساء والسيدات وثلاثمائة من السراري..»^(١).

٦ - تعدد الزوجات في الشريعة المسيحية:

من المعلوم أن المسيح عليه السلام جاء مصداقاً في كثير من التشريعات لما جاء به موسى عليه السلام ومكملاً لشريعته لا ناقضاً لها كما ورد في انجيل متى: «لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل»^(٢).

ويفهم من هذا أن المسيح عليه السلام يقر التشريع الذي قبله بما في ذلك تعدد الزوجات.

وليس في الأناجيل كلها نص يحرم تعدد الزوجات بل في بعض رسائل بولس ما يفيد أن التعدد جائز، فقد سئل بولس عن شرط الأسقف والكهنة والشمامسة فقال: «ينبغي للأسقف أن يكون بلا لوم وبغير عيب بعل امرأة واحدة» وكذلك بالنسبة للشمامسة والكهنة.

والمفهوم الظاهر من ذلك أن على رجال الدين الاقتناع بزوجة واحدة إذا لم يستطع الرهبنة، أما غير رجال الدين عندهم فلمهم أن يتزوجوا ما شاءوا من العدد فليس ذلك محرم عليهم.

(١) سفر الملوك الأول، الإصحاح الحادي عشر فقرة (٣ و٤).

(٢) انجيل متى، الإصحاح الخامس، فقرة (١٧ و١٨).

وعلى هذا الفهم كان الكثير من الأقدمين النصارى يتزوجون أكثر من واحدة. وما هو جدير بالذكر أن ملك فرنسا (نابليون) قد أستدل بذلك وتزوج ثانية في حضور البابا ولم يعترض عليه البابا، وهناك أحداث كثيرة مماثلة كما مرَّ سابقاً كقصة (مارتن لوثر) وغيره.

وبذلك يتضح لكل ذي لب أن الأنبياء جميعاً عليهم السلام قد مارسوا حق تعداد الزواج، وأن ذلك لم يتعارض مع واجبات النبوة وأهدافها.

والعجيب من المستشرقين المغرضين من يهود ونصارى أن يوجهوا نقدهم لاتهم النبي محمد ﷺ، ويتجاهلون ما في كتبهم - رغم تحريفها - من النصوص الدالة على أن نظام التعدد هو منهج أنبيائهم الذين يزعمون انتسابهم إليهم.

وخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم كغيره من الرسل الذين تعددت أزواجه ليكون قدوة حسنة للبشر جميعاً على مر العصور في سلوك الطريق السوي الذي يواجهه واقع الحياة البشرية، وضرورات الفطرة الإنسانية بدون إفراط ولا تفريط.

والآن فلنستعرض الحكمة من تعدد أزواج النبي ﷺ ملفتين نظر القارئ الكريم للانتباه إلى أن هذا البحث يختلف اختلافاً تاماً عما كنا بحثناه في أول الكتاب من تراجم لأزواج النبي ﷺ لإعطاء النموذج الطيب والقدوة الحسنة من سيرتهن رضي الله عنهن جميعاً، وأما هنا فنحن بصدد بيان الملابس الدافعة لهذا العدد من الزوجات، والحكمة من وراء كل زيجة من هذه الزيجات بقصد الرد على مفتريات أعداء الإسلام.

الحكمة من تعدد أزواج النبي ﷺ

قبل سرد الحكمة من تعدد أزواج النبي ﷺ لا بد للقارئ أن يلاحظ ويتذكر ما ذكرناه سابقاً أن الجمع بين عدة زوجات كان شائعاً في البيئة الإنسانية والعربية قبل الإسلام. ونضيف هنا بأن زواج الرسول ﷺ بأكثر من واحدة كان في المدينة المنورة وفي سن الكهولة.

وبعد ذكر هاتين الملاحظتين نشرع في بيان الحكمة من تعدد أزواج النبي ﷺ وسرد الملابس التي اقتضت كل زوجة من زوجات النبي ﷺ وفقاً للترتيب الزمني لزواجه صلى الله عليه وسلم.

١ - خديجة بنت خويلد رضي الله عنها:

هي أول زوجاته صلى الله عليه وسلم - وكانت عندما تزوجها أرملة وقد بلغت من العمر أربعين سنة بينما كان النبي ﷺ في عنفوان الشباب ولم يتجاوز الخامسة والعشرين، فعاشا معاً لخمس وعشرين سنة بعد زواجهما إلى أن توفيت وهي في الخامسة والستين، ولم يتزوج النبي ﷺ أية امرأة أخرى في حياته.

ومن هذا يتبين لنا أن زواجه صلى الله عليه وسلم كان أبعد ما يكون عن دوافع الهوى والشهوة. وإلا لاختار من شاء من الشابات لا سيما أنه صلى الله عليه وسلم كان مرغوباً فيه لما اشتهر فيه من مكارم

أخلاقه وجميل صفاته.. ولكن كان يبحث عن الطهر والعفاف فوجده في الطاهرة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

٢ - سودة بنت زمعة رضي الله عنها:

في نفس العام الذي توفيت فيه خديجة رضي الله عنها توفي أبو طالب عم النبي ﷺ، وسمي هذا العام بعام الحزن، وأصبح النبي ﷺ وحيداً لا ناصر له ولا معين وصار في حاجة ماسة إلى من يسكن إليها، فتزوج من سودة رضي الله عنها وهي من المؤمنات المهاجرات. فلما توفي زوجها السكران بن عمرو رضي الله عنه، خافت إن عادت إلى أهلها أن يعذبوها ويفتنوها في دينها، بل وربما قتلوها، ولما علم النبي ﷺ بجلالها رغب في زواجها صوناً لها من تلك الفتنة وحماية لها أن تصل إليها يد الأذى، وتكريماً لها ولزوجها عن بلائها في الله وهجرتها في سبيله.

وكان عمرها وقتئذ خمس وخسون سنة، ولذلك قابل الناس هذه الإلتفاتة من رسول الله ﷺ بالإعجاب والثناء. فقد كفل هذه الأرملة الوحيدة الحزينة المسكينة ليكون ذلك درساً لكل الرجال بأن يكون زواجهم بغية لتحقيق أهداف سامية كهذه.

وهكذا ندرك مدى بطلان مفتريات أعداء الإسلام واتهامهم له بالشهوانية والأنانية.

٣ - عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها.

وهي الوحيدة من بين أزواجه الطاهرات التي تزوجها بكرراً، وكانت إذ ذاك ابنة تسع سنوات وقت الزواج.

وهذا الزواج الميمون من عائشة رضي الله عنها وطّدت العلاقة بين الصديق رضي الله عنه وبين رسول الله ﷺ.

وهذا الزواج قضى رسول الله ﷺ على نظام التآخي الجاهلي إذ

كانت العادة قد جرت عند بعض العرب أن يؤاخي بعضهم بعضاً. وكانت هذه المؤاخاة تتساوى مع الأخوة الحقيقية القائمة على صلة الدم، وكانوا يجرمون على أنفسهم الزواج بابنة أخيهم المزعوم. ولذلك لما ذكرت خولة بنت حكيم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه - رغبة الرسول ﷺ بالزواج من عائشة. قال وقد ذكر موضعه من الرسول:

- وهل تصلح له؟ .. إنما هي ابنة أخيه..

ولما رجعت خولة لرسول الله ﷺ وقالت له ذلك، فقال لها:

- ارجعي إليه فقلولي له: أنت أخي في الإسلام، وأنا أخوك، وابنتك تصلح لي^(١).

وبهذا الزواج المبارك غدت عائشة رضي الله عنها أعلم الناس يسألها الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ عن أمور الدين، وبقيت على قيد الحياة ثمانية وأربعين سنة بعد وفاة الرسول ﷺ - تنشر الدين وتبلغه الى الرجال والنساء.

وقد ذكر المؤرخون أنه قد انتقل ربع الأحكام الشرعية إلى الأمة المسلمة بعد وفاة النبي ﷺ من خلال توجيهات أم المؤمنين عائشة.

والمعروف أنه قد رُوي عنها ٢٢١٠ حديثاً من أحاديث رسول الله ﷺ وقد اتفق الشيخان على ١٧٤ حديثاً منها، وانفرد البخاري بتخريج ٥٨ حديثاً وانفرد مسلم بتخريج ٦٨ حديثاً.

فأي حكمة وأي سر.. أعظم من هذا السر وراء هذا الزواج الميمون المبارك؟؟..

(١). تاريخ الطبري (١٦٣/٣) والطبقات الكبرى لابن سعد (٥٨/٨).

وعند الحديث عن الحكمة من وراء زيجة النبي ﷺ بعائشة رضي الله عنها يستحسن الكلام عن حادثتين هامتين في حياة عائشة رضي الله عنها جعلتا من المستشرقين الخبثاء يأتون بعد ألف واربعمئة عام يهدرون ويلوكون مجترين الماضي بقصد النيل من رسول الله ﷺ ومن ثم القدح في الرسالة الإسلامية الغراء.

وهاتين الحادثتين هما:

خطبة عائشة وهي لم تتجاوز السابعة من عمرها.
حادثة الإفك.

أ - أما الحادثة الأولى والتي يتخذ منها أعداء الإسلام منفذاً للطعن، ووسيلة للاتهام فهي ما وصفوه بأنه (الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريرة العذراء) واتهموه صلى الله عليه وسلم من أجل ذلك بالشهوانية والثورة الغريزية، منساقين وراء التعصب الأعمى والحدد الأسود على الإسلام ورسول الإسلام متناسين ومتغافلين، بل ومتعامين تماماً عن زمن الحدث ومكانه وملابساته.

فأهل مكة كلهم استقبلوا هذا الزواج كأى حدث طبيعي مألوف ومتوقع، ولم يدر بخلد رجل من أعداء الرسول وقتئذ موضعاً لمقال، أو منفذاً للتجريح والاتهام، وهم الذين لم يتركوا سبيلاً للطعن إلا سلكوه، ولو كان بهتاناً وزوراً.

ولكنهم كيف ينكرون خطوبة محمد ﷺ لعائشة، وهم يعلمون أنها كانت المذكورة قبل ذلك للخطبة من (جبير بن مطعم بن عدي)؟.

كيف ينكرون ذلك وهم يعلمون أنها ليست أول صبية تزف في مثل هذا السن لرجل في سن أبيها. ولن تكون كذلك أخراهن في تلك البيئة؟.

كيف ينكرون ذلك وهم يعلمون ويرون عائشة نامية نوماً سريعاً
كأمثالها في تلك البيئة، بل ويعتبرون الفتاة التي تتأخر في الزواج عن
الخامسة عشرة متأخرة جداً.

ولقد أدرك هذا مستشرق منصف زار الجزيرة العربية فقال:
« كانت عائشة على صغر سنها نامية ذلك النمو السريع الذي تنموه
نساء العرب، والذي يسبب لهن الهرم في أواخر السنين التي تعقب
العشرين .. »
وقال أيضاً:

« ولكن هذا الزواج شغل بعض مؤرخين لمحمد.. فنظروا إليه من
وجهة نظر المجتمع العصري الذي يعيشون فيه، فلم يقدروا أن زواجاً
مثل ذاك كان ولا يزال عادة اسيوية، ولم يفكروا في أن هذه العادة لا
زالت قائمة في شرق أوروبا، وكانت طبيعية في اسبانيا والبرتغال إلى
سنين قليلة، وانما ليست غير عادية اليوم في بعض المناطق الجبلية
البعيدة بالولايات المتحدة.. »^(١).

ولهذا نقول: بأن من العبث في التاريخ، والتجني في الأحكام أن
يؤخذ الحدث منفصلاً عن زمانه، ومكانه، وظروف بيئته.
ولو قرأ هؤلاء كتب التاريخ بنزاهة علمية متجردة عن الهوى
لأدركوا من أول وهلة: أن خولة بنت حكيم وهي التي عرضت عائشة
لرسول الله ﷺ ليتزوجها لم تكن لتفعل هذا لو لم تدرك أن عائشة في
نمائها ونضجها صالحة للزواج في هذا السن. وخولة هي العارفة بمآرب
الرجال في النساء.

(١) بودلي: الرسول ص ١٢٩ من الترجمة العربية، وأخذنا هذا المصدر عن كتاب نساء
النبي ﷺ للأديبة الدكتورة بنت الشاطيء ص ٦٧.

ولأدرك هؤلاء أيضاً: أن والدة عائشة (أم رومان) رضي الله عنها لم تكن لتوافق على هذا الزواج لو لم تدرك ثورة الأنوثة في ابنتها، والأم هي أعرف الناس بعلامات النضج في ابنتها، لذلك قالت لابي بكر رضي الله عنه:

« هذه ابنتك عائشة قد أذهب الله من طريقها جبيراً وأهل جبير، فادفعها إلى رسول الله ﷺ تلق الخير والبركة ».

وهكذا تنداعى افتراءات أعداء الإسلام المثارة حول ما يسمونه بانتهاك حرمة الطفولة، والاستجابة للوحشية الجنسية، ويتضح الحق جلياً لكل من له أدنى مسكة عقل أو تفكير. فبأي حديث بعد هذا يؤمنون!!؟؟.

ب - محنة الإفك

حديث الإفك هو حديث القصة التي افتراها وأشاعها بعض المنافقين عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكان على رأس هؤلاء المنافقين زعيم الحزج في المدينة عبدالله بن أبي سلول، المشهور بين أصحابه وخصومه بالكذب والنفاق والبغض لرسول الله ﷺ ودعوته، ولذلك كان يخلو بأعداء الإسلام ويؤلبهم على المسلمين، ويسول لهم قتل النبي ﷺ، ويوغر صدورهم على الدين الجديد والمنتسبين إليه.

كل هذا - والله أعلم - لأنه أضاع الملك والتاج بظهور الإسلام.

فلا عجب أن يكون له غرض في ترويح حديث الإفك واتخاذة مطعناً في الإسلام من وراء الطعن في كرامة نبي الإسلام وزوجته الطاهرة أم المؤمنين.

وإن غرض ابن سلول هذا هو بعينه غرض كل متشبهت بحديث الإفك إلى يومنا هذا، ليتخذ منه سبيلاً إلى الطعن في الإسلام، ونبي

الإسلام، وبخاصة بين المبشرين من المستشرقين أصحاب العداوة القديمة المتأصلة في نفوسهم لهذا الدين منذ الحرب الصليبية وحتى الآن.. فمن هؤلاء الخبثاء من نقل الحادثة، وخلطها بالمعجزات والخرافات وترك الباب مفتوحاً للأقاويل كما فعل (واشنطن إرفنج) في سيرة النبي ﷺ

ومنهم من جاوز الحقيقة في وصف ما جاءت به الروايات فزعم أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ابتعدت عن النبي ﷺ يوماً كاملاً قضته في صحبة صفوان، خلافاً لما جاء في كل الروايات التي نقلت إلينا عن حديث الإفك، كما فعل (ردويل) صاحب ترجمة القرآن الكريم حيث تعرض لهذا الحديث في حاشية سورة النور.

ومن هؤلاء من جزم بصحة الإفك، وقال: ان محمداً استنزل الآيات في سورة النور ليحمي سمعة زوجته ويدين الوشاة بالعقاب الذي ورد في تلك السورة.

ومنهم.. ومنهم.. والكل يأفك ويكذب ويقلب الحقائق، ويؤول النصوص ويحملها ما لا يقبله عقل ولا دين..

وغرض الجميع هو غرض ابن سلول بعينه.. اتهام امرأة بريئة طاهرة لا ذنب لها إلا أنها زوج نبي يريدون التشكيك برسالته.

★ ★ ★

نشأ حديث الإفك بعد عودة النبي ﷺ من غزوة بني المصطلق، وقد كان مسير الجيش في عودته من هذه الغزوة مضطرباً أشد الاضطراب لشيوع الفتنة بين المسلمين واتباع عبدالله بن أبي سلول رأس المنافقين وزعيم الخزرج، عندما تنازع رجلان منها على الماء كما يحدث على كل بئر وفي كل مورد يكثر حوله القصاد.. فصاح صائح: يا للخزرج: وصاح الآخر: يا لكنانة، يا لقريش، وخرج النبي ﷺ غاضباً

لهذه العصبية البغيضة وسأل: ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة.

واغتنم رأس المنافقين الفرصة، ولم يدعها تنقضي دون أن يشير فيها الثائرة التي تعصف بالمسلمين فطفق يقول مستهولاً أو قد فعلوها؟ والله ما أرانا وجلابيب قریش هذه إلا كما قيل (سمن كلبك يأكلك): أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

واقبل على من حضره من قومه يحرضهم ويقول لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم.. أحللتهموهم بلادكم، وقاسمتهموهم أموالكم.. ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونه - يعني النبي ﷺ..

وشاع الخبر فأذن النبي ﷺ بالرحيل في ساعة لم يكن يرحل فيها لشدة الحر، وسأله أسيد بن حضير رضي الله عنه: يا نبي الله، لقد رحلت في ساعة مبكرة ما كنت تروح في مثلها؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «أما بلغك ما قال صاحبكم!! يشير إلى كلام ابن سلول».

ثم سار الجيش سيراً حثيثاً، وجعل النبي ﷺ يضرب راحلته بالسوط في مراقها ليستعجلها، وانقضى اليوم وليلته وصدر من اليوم التالي حتى أذنتهم الشمس، ثم نزل الناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً.

ولما أخذوا في المسير باتجاه المدينة دنا الليل وهم على مقربة منها فأناخ الركب للراحة وذهبت أم المؤمنين عائشة لبعض شأنها - وكانت هي التي وقعت عليها القرعة لمرافقة النبي ﷺ في هذه الغزوة - ثم تفقدت عقدها وهي راجعة فإذا به قد انسل منها فحبسها التماسه هنيئة، ثم عادت إلى مكان هودجها فإذا بهم قد احتملوه وارتحلوا وهم يحسبون أنها فيه لحقتها.

فأقامت رضي الله عنها حيث هي وظنت أنهم سيرجعون إليها لا محالة إذا أحسوا غيبتها وافتقدوها.

وكان صفوان بن المعطل رضي الله عنه على ساقطة الجيش يتخلف عنه ليلتقط ما يسقط من المتاع، فلما نهض ليتبع الجيش في ساقته رأى سواداً على البعد ثم عرف أنه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لأنه كان يراها قبل الحجاب، فجعل يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.. ويكرر ذلك لينبها باسترجاعه لأنه يتهيب التحدث إليها، فما كلمها بكلمة، وإنما أناخ لها الراحلة وأخذ بزمام البعير فركبتها وانطلق يقود الراحلة حتى أدرك الجيش في نحر الظهيرة.

وأطمأن رسول الله ﷺ أن وجدها بخير، وسمع منها حديثها عن سبب تخلفها فما أنكر منه حرفاً.

ولكن ابن سلول عدو الله يأبى أن يمر حدث إلا ويلغظ فيه ووجد أن الفرصة مهيأة للقليل والقال فأطلق لسانه البذيء وقال: - والله ما نجت منه ولا نجا منها - متوخياً من ذلك أن يوقع بين النبي ﷺ وأقرب المقربين إليه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أو يفلح في تشكيك المسلمين في كرامة نبيهم.

تقول أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها: وكان الذي تولى كبر كبر الإفك: عبد الله بن أبي بن سلول: فقد منا المدينة فاشتكت بها شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ولا أشعر، وهو يريني في وجعي، أي لا أرى من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل فيسلم، ثم يقول: كيف تيمكم؟ ثم ينصرف فذلك الذي يريني منه ولا أشعر بالشر حتى نقهت فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع، وهي متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى

ليل، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريباً من بيوتنا.

وحين فرغنا من شأننا نمشي، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت: تعس مسطح. فقلت لها: بئسما قلت، أتسبين رجلاً شهد بدرأ؟.. فقالت: يا هنتاه ألم تسمعي ما قال؟ قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي.

فلما رجعت إلى بيتي، دخل رسول الله ﷺ فسلم وقال: كيف تيم؟ فقلت إئذن لي إلى أبوي، قالت: وأنا حيئنذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلها، فأذن لي رسول الله ﷺ، فأتيت أبوي، فقلت لأمي: يا أمتاه، ماذا يتحدث الناس به؟ فقالت: يا بنية، هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها، فقلت: سبحان الله!! ولقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة، حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، وقد بكيت ليلتين، ويوماً وأبواي يظنان أن البكاء فالتى كبدي..

قال: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي. فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس وتشهد حين جلس، ثم قال:

«أما بعد، يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله. وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب تاب الله عليه.. فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعِي، حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال: قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت ، ثم قلت : إني والله ، لقد علمت أنكم سمعتم ما تحدث به الناس ، حتى استقر في أنفسكم ، وصدقتم به ، ولئن قلت لكم : إني بريئة لا تصدقوني بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أي بريئة - لتصدقني ، فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١) قالت :

ثم تحولت فاضجعت على فراشي ، وأنا والله حينئذ أعلم أي بريئة ، وأن الله مبرئي براءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله ينزل في شأني وحيّاً يتلى .. ولشأني في نفسي كان أحقر أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى - ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت ، حتى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه .

قالت : فَسَرِّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، وكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي : أبشري يا عائشة ، أما والله فقد برأك . فقالت لي أُمي : قومي إلى رسول الله ﷺ ، فقلت : لا والله لا أقوم إليه ، ولا أحد إلا الله ، هو الذي أنزل براءتي ، فأنزل الله عز وجل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ العشر الآيات (٢) (٣) .

(١) سورة يوسف ، آية ١٨ .

(٢) سورة النور الآيات العشر ١١ - ١٩ .

(٣) أنظر حديث الإفك مفصلاً عند الإمام البخاري في التفسير . عند تفسير سورة النور ، باب (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً) . (٥/٥) .

وعند مسلم في التوبة ، باب حديث الإفك وقبول توبة القاذف برقم ٢٧٧٠ .

وانظر سيرة ابن هشام (٣/٢١٠) . وما بعدها وتاريخ الطبري (٣/٦٨) وما بعدها .

ولقد تأذى رسول الله ﷺ بحديث الإفك، وقضى فترة من الوقت شديد القلق لا يدري ماذا يفعل، واستشار أصحابه في هذا الشأن. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأسلوبه الحاسم: من زوجها لك يا رسول الله؟.

قال: الله تعالى!.

قال: أفتظن أن الله دلس عليك فيها؟! سبحانك هذا بهتان عظيم. ودعا رسول الله علياً وأسامة بن زيد ليستأمرهما في فراق أهله. فقال أسامة بن زيد رضي الله عنه: أهلك يا رسول الله ولا نعلم إلا خيراً.

وقال علي رضي الله عنه: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية - يعني بريرة - تصدقك، فدعا بها وسألها:

أي بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك؟ قالت له بريرة: لا والذي بعثك بالحق ما رأيت منها أمر أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فيأتي الداجن فيأكله. وسأل رسول الله ﷺ عن أمر عائشة فقالت:

يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيراً، والله ما أكلها وإني لمهاجرتها، ولكن ما كنت لأقول إلا الحق.

هذه خلاصة حديث الإفك كما تذكرها كتب السنن وكتب السير الصحيحة. يقول العقاد في كتابه (الصديقة بنت الصديق):

وفي وسع القارىء أن يعرف قيمة هذه الوشاية من نظرة واحدة، فهي على التحقيق وشاية لا قيمة لها عند منصف يلمس من ورائها تربة الكيد والوقعة التي نبتت فيها، إذ هي تربة وبيئة تنضح بسخائم

الخصومة الدينية والسياسية ومساوىء الخبث والكذب والنفاق. وخلق بها أن تبعث الشك في كل حديث ينبت بين طياتها ولو زعموا له من الاسانيد والشبهات أضعاف ما زعموا لهذه الوشاية الواهية. وليس لها من سند ولا شبهة الا أن السيدة عائشة تأخرت في الطريق هنيهة حين تحرك العسكر على حين فجأة، وقد كانت الرحلة كلها كثيرة المفاجآت في مواعيد النزول والرحيل.

تلك شبهة لا تكفي للشك في امرأة من عامة المسلمين الخارجين للجهاد في حضرة نبي الإسلام. اذ لو كانت كل امرأة تتأخر في الطريق تؤخذ بالتهمة في دينها وعرضها لكانت التهم في الأعراض أهون شيء يخطر على بال.

بل لو تأخرت كل امرأة في الركب غير السيدة عائشة لجاز أن تلحق بها شبهة من هذا التأخير. لأن الركب لم تكن فيه امرأة غيرها يهاها الموكلون بهودجها أن ينادوها ليتأكدوا من وجودها، ولم تكن فيه امرأة أخرى تهاب الرقبة من جيش المسلمين كما تهابها وهي زوج النبي وبنت الصديق، وقد كان أبوها يحمل راية المهاجرين في تلك الغزوة بعينها. وعلى الذي يقبل وشاية كتلك الوشاية الواهية أن يروض عقله على تصديق أمور كثيرة لا موجب لتصديقها، لأنها تفتقر إلى كل دليل والأدلة على ما يناقضها كثير.

عليه أن يصدق أن صفوان بن المعطل كان رجلا لا يؤمن بالنبي ولا بأحكام الإسلام.

وأن يصدق أن السيدة عائشة كانت - وهي زوج النبي - لا تؤمن به ولا تعمل بدينه.

ولا دليل على هذا ولا ذاك.

بل الأدلة على ايمان صفوان وايمان عائشة تجري في كل سياق وردت
لها سيرة فيه.

فصفوان كان مسلماً غيوراً وكانت غيرته في حادثة الماء التي تصاول
فيها المهاجرون وأتباع ابن سلول هي التي عرضته لهجاء حسان بن
ثابت، ولعلها هي التي بغضته الى ابن سلول فتأدى من أجل ذلك في
اتهامه، وقد حضر الغزوات ومات شهيدا ولم يذكر قط بسوء.

والسيدة عائشة آمنت بكل كلمة قالها النبي وحفظتها حفظ من
يتبرك بها ولا يغفل عنها. ومن إيمانها بصدق هذه الكلمات أنها اشتبكت
في خصومات دامية تثير الحفاظ وتهون عليها أن تحارب خصومها
باختلاق الأحاديث التي تزيي بهم وتبطل دعواهم لو كانت ترتاب في
صدق الأحاديث كلها. ولكنها لم تبح لنفسها قط شيئاً من ذلك ولم تذكر
حديثاً قط على غير وجهه الذي تؤيده الروايات الأخرى. وقد كانت
في طريقها إلى وقعة الجمل بعد وفاة النبي بزهاء ثلاثين سنة، فنبحتها
كلاب على مقربة من ماء في بعض الطريق، فسألت: أي ماء هذا؟ قال
الدليل: هو ماء الحوآب. فأجفلت إجمالة مروعة وصاحت بحيث يسمعا
أدلاؤها. انا لله وإنا إليه راجعون، وضربت عضد بغيرها فأناخت وأبت
أن تتحول عن مكانها. فلما سئلت في ذلك قالت: إني سمعت رسول
الله ﷺ يقول وعنده نساؤه: «ليت شعري أيتكن تنبجها كلاب
الحوآب؟ ردوني. ردوني. والله أنا صاحبة ماء الحوآب. وما زال الركب
مقياً في ذلك المكان يوماً وليلة وهي مصرة على الرجعة وهم يزعمون لها
أن الدليل قد أخطأ وأن المكان غير المكان الذي تحشاه، ولم يزل
عبدالله بن الزبير يقنعها ويهدئ من روعها وهو ابن أختها وأحب
الناس إليها وبه تكنى في أشهر الروايات، وهي تأبى المسير إلا أن تعود
إلى مكة. حتى أرسلوا إليها من يصيح في الركب: النجاء. النجاء. قد

أدرككم علي بن أبي طالب . فأذنت لهم في السير بها وقد أخافتها الصيحة وخامرها الشك في كلام الدليل .

هذا وليس معها في الركب من سامعي ذلك الحديث غيرها ، فكيف تغدر بالنبي زوجة تصدقه هذا التصديق ولا تأمن أن ينكشف سرها بوحى من الله؟ .

ومن هي تلك الزوجة بعد هذا؟ هي بنت الصديق الذي لم يوصم بيته بوصمة في الجاهلية كما قال حتى يوصم بهذه الوصمة الكبرى في الاسلام ومع نبي الاسلام .

إن أقوى الأدلة لا يحسم الشك هنا فضلا عن تلك الوشاية الواهية ويبقى على من يقبلها أن يسأل نفسه بعد هذا: كيف نشأت علاقة صفوان المزعومة؟ أفي تلك الليلة بعينها؟ فكيف اجترأ الرجل على مفاتحة أم المؤمنين وهم يتهيئون المنادة عليها في هودجها؟ بل كيف تخطر له هذه المفاتحة وهو لا يشك في ايمانها بزواجها وليس له علم قبل ذلك بخبيثة صدرها؟ وإذا اجترأ هذا الاجترأ هوسا منه فكيف يصدق العقل أن امرأة النبي وبنت الصديق تكون هكذا لقطعة لأول لاقط يصادفها؟ ان التي تكون كذلك لا يخفى سرها حتى يكشفه حديث الإفك ويقتصر الحديث فيه على صفوان .

أما إن كانت العلاقة المزعومة قبل ذلك فكيف خفيت بين الضرائر والحساد وقالة السوء من المنافقين؟ وما أغناها إذن عن المجازفة في الطريق وعن الكارثة التي تنكشف للجيش كله في نحر الظهيرة؟ .

كل أولئك سخف لا يقبله الا من يفترى بوشاية أو بغير وشاية وسواء فيه منافقو المدينة ، ومن يصنع صنيعهم من المؤرخين في العصر الحاضر، لأنهم لا يؤمنون بنبي الإسلام ، بل هؤلاء أنذل وأغفل . لأنهم

يؤمنون بمریم والمسیح وكان علیهم أن یعصمهم عاصم من هذا الإیمان^(١).

وهكذا ینتهي حدیث الإفك الذی تعرضت له الجماعة المسلمة لأکبر محنة، إذ كانت فی الثقة فی طهارة بیت رسول الله ﷺ، ومحنة فی الثقة فی العقیده الذی تتمثل فی شخص رسول الله ﷺ.

ولذلك استحق هذا الحدث العظیم أن ینزل فیہ قرآناً لیرد المکیدة المدبرة من تلك العصابة المتجمعة علی هدف واحد، ولم یکن عبد الله بن أبی سلول وحده هو الذی أطلق ذلك الإفك، وانما هو الذی تولى معظمه، وهو یمثل عصابة اليهود أو المنافقین الذین عجزوا عن حرب الإسلام جهرة فتواروا وراء ستار الدین لیکیدوا له خفیه، فكان حدیث الإفك إحدى مکائدهم^(٢).

وعلى الرغم من هذه المحنة القاسیه للجماعة المسلمة فإن فیها درساً، بل دروساً بلیغة لكل مسلم ومسلمة علی مدار التاریخ. لیعلم کل واحد بأنه لیس هناك إنسان فوق الشبهات مهما علا شأنه فقد نالت الفریة أعظم الرجال وأعظم النساء، رسول الله ﷺ وأم المؤمنین عائشة رضی الله عنها.

وهكذا ینبغي علیک أیتها الأخت المسلمة أن تعلمی: أن طریق اللجنة محفوف بالمکاره، وأنه لا بدّ من الابتلاء، ولا بدّ من الأذى فی الأموال والأنفس ولا بدّ من صبر ومقاومة وعزيمة. فهی سنة الله فی أصحاب العقائد والدعوات، وهی ضریبة الإیمان وسلوک طریق الدعوة إلى الله المؤدی لرضاء الله.

(١) انظر کتاب العقاد الصدیقة بنت الصدیق من ص ١٢٠ حتى ١٢٤.

(٢) من ظلال القرآن بتصرف.

وبعد هذه الالتفاتة لحادثة الإفك نعود ثانية لنتابع ما بدأناه من عرض الحكمة الكامنة وراء كل زيجة من زيجات الرسول ﷺ.

٤ - حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها.

وهي أرملة خنيس بن حذافة - رضي الله عنه - الذي استشهد في غزوة بدر، فعرضها عمر رضي الله عنه على صاحبيه أبي بكر وعثمان وهما الكفئان الكريمان لابنته فاعتذرا عن ذلك. وشكا عمر لرسول الله ﷺ ذلك. فقال له رسول الله ﷺ:

« يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة »^(١).

وتزوج رسول الله ﷺ من حفصة في السنة الثالثة من الهجرة ليسوي بين عمر وبين أبي بكر في شرف المصاهرة، ومثانة الصحبة، وليس بالإمكان مكافأة هذين الصحابييين الجليلين على صدقها واخلاصها وتضحياتها بشرف أعلى من هذه المصاهرة الكريمة.

والمأمل بظروف زواجه صلى الله عليه وسلم من حفصة يدرك تماماً أن لا سلطان للشهوة والهوى في مثل هذا الزواج، حيث لم تكن رضي الله عنها ذات بهاء وجمال وكانت أرملة، وكان صلى الله عليه وسلم قد بلغ الخامسة والخمسين من العمر ولكنها سياسة الوفاء للأوفياء المخلصين في حب الله ورسوله.

٥ - زينب بنت خزيمة رضي الله عنها.

وهي أرملة عبيدة بن الحارث رضي الله عنه، البطل الذي استشهد يوم بدر، وكانت هي من المؤمنات الصابرات اللواتي ضحين بالنفس والمال في سبيل الله، وأصبحت بعد وفاتها بحاجة ماسة إلى الرعاية حيث ناهزت الستين من عمرها.

(١) صحيح سبق تحريجه

ولما علم رسول الله صلوات الله عليه وسلامه بجالتها وصبرها وجهادها أوأها إليه وأكرمها وجبر خاطرها حيث ضمها إلى أمهات المؤمنين، ولكنها لم تلبث أن توفيت بعد زواجها من رسول الله ﷺ بثانية أشهر^(١)، وقيل لم تلبث عند النبي ﷺ سوى شهرين أو ثلاثة وماتت^(٢) وقيل أنها بقيت معه عامين، وعلى كل الأحوال فهي الوحيدة التي توفيت من أزواج النبي ﷺ قبله في حياته بعد خديجة رضي الله عنها.

فأين الأفاكين المغرضين الذين يتقولون على الرسول ﷺ ويتهمونه بالشهوانية والأنانية حاشاه من ذلك - إنما هو النبل والرحمة والإحسان من معلم البشرية الذي جاء رحمة للعالمين.

٦ - هند بنت أبي أمية (أم سلمة) رضي الله عنها.

وهي أول امرأة خرجت مهاجرة إلى الحبشة فراراً بدينها، وهي أول ظعينة دخلت المدينة، وهي أرملة البطل الشهيد عبد الله بن عبد الأسد أحد السابقين الأولين إلى الإسلام. استشهد رضي الله عنه وخلف وراءه أرملة تناهز الخامسة والستين ولها ابنان صغيران، وابنتان صغيرتان بلا كفيل ولا معين.

وتقدم لها رسول الله ﷺ خاطباً ليكفلها وإيتامها الأربعة وفاءً للبطل الشهيد ورحمة بالأبناء الأيتام. فاعتذرت رضي الله عنها في بداية الأمر قائلة: إني مسنة، وإني أم أيتام، وإني شديدة الغيرة.

فقال لها صلى الله عليه وسلم:

«أما السن فأنا أكبر منك سنّاً - لا يعبأ بالسن - وأما الغيرة فيذهبها الله، وأما الأيتام فألى الله ورسوله - (أي أضمهم إليّ)».

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣١٦/٤).

(٢) سيرة ابن هشام (٢١٧/٢).

وهكذا وافقت على الزواج من النبي ﷺ ، وقام النبي ﷺ بالإشراف على تربية أيتامها الأربعة حتى أصبحوا لا يشعرون بفقد الأب.

وهذه هي الحكمة من وراء هذه الزيجة من المرأة المسنة ذات الأيتام الأربعة.

٧ - زينب بنت جحش رضي الله عنها .

هي ابنة عمّة رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ قد زوجها من متبناه زيد بن حارثة الذي كان يُعرف بزيد بن محمد كما ورد في الصحيحين عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال :

« ان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١) فقال النبي ﷺ : « أنت زيد بن حارثة بن شرحبيل »^(٢).

وكان نظام التبني سائداً منذ أيام الجاهلية ، وكان يصبح هذا المتبني بمثابة الابن الحقيقي في الأمور كلها ، حتى فيما يتصل بتحريم علاقة الزواج والإرث وغير ذلك .

ولما ساءت العلاقة الزوجية بين زينب وزيد رضي الله عنهما ، شكا زيد إلى الرسول سوء العلاقة الزوجية وأبدى رغبته في الطلاق ، ولكن الرسول ﷺ منعه من الطلاق ونصحه قائلاً : « أمسك عليك زوجك » ففعل زيد ، ولكن ظل الخلاف يزداد بينهما ، حتى أصبحت حياتها الزوجية لا تطاق فطلقها زيد رضي الله عنه .

(١) سورة الأحزاب ، آية ٥/ .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ، باب قول الله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ (٢٢/٦) ومسلم في فضائل الصحابة ، باب فضائل زيد بن حارثة برقم /٢٤٢٥ .

وفي تلك البرهة شاءت إرادة الله جل شأنه إلى القضاء على نظام التبني إبطالاً كاملاً وإنهاء هذه البدعة الجاهلية، فأمر الله سبحانه وتعالى رسول الله ﷺ أن يتزوج من زينب رغم خوف النبي عليه الصلاة والسلام من ألسنة الناس أن يقولوا: تزوج محمد امرأة ابنه فقال تعالى:

﴿ وَنَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ نَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (١).

هذه هي الحكمة من وراء زيجة رسول الله من ابنة عمته زينب بنت جحش، أما ما يردده الأفاكون المغرضون أعداء الإسلام فلا بد من الوقوف عليه لنذكر مدى الحقد والافتراء والاستغلال للروايات الضعيفة المكذوبة لتحقيق مآربهم الجيثة الهدامة.

يقول محمد حسنين هيكل في كتابه (حياة محمد):

أما قصة زينب بنت جحش، وما أضفى بعض الرواة وأضفى المستشرقون والمبشرون عليها من أستار الخيال حتى جعلوها قصة غرام ووليه، فالتاريخ الصحيح يحكم بأنها من مفاخر محمد، وأنه، وهو المثل الكامل للإيمان، قد طبق فيها حديثه الذي معناه: لا يكمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وقد جعل نفسه أول من يضرب المثل لما يضع من تشريع يمحو به تقاليد الجاهلية وعاداتها، ويُقرّ به النظام الجديد الذي أنزل الله هدى ورحمة للعالمين. ويكفي لهدم كل القصة التي قرأت عنها من أساسها أن زينب بنت جحش هذه هي ابنة أُميمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله عليه السلام، وأنها رُبّيت بعينه وعنايته،

(١) سورة الأحزاب، آية ٣٧.

وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى، وأنه كان يعرفها ويعرف أهي ذات مفاتن أم ليست كذلك قبل أن تتزوج زيدا، وأنه شهدا في نموها تحبو من الطفولة إلى الصبا وإلى الشباب، وأنه هو الذي خطبها على زيد مولاه. إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه مربيت زيد ولم يكن فيه، فرأى زينب فبهره حُسنها وقال: سبحان مقلب القلوب، أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار الذي على غرفة زينب، فألفاها في قميصها ممددة وكأنها «مدام ركاميه» فانقلب قلبه فجأة، ونسى سودة وعائشة وحفصة وزينب بنت خزيمة وأم سلمة، ونسى كذلك ذكر خديجة التي كانت عائشة تقول: إنها لم تجد في نفسها غيره من أحد من نساء النبي ما وجدت من ذكره خديجة. ولو أن شيئا من حبها علق بقلبه لخطبها إلى أهلها على نفسه بدل أن يخطبها على زيد. وهذه الصلة بين زينب ومحمد، وهذا التصوير الذي صورناها به، لا يدعان بعدها لتلك القصة الخيالية التي يروون أي أساس من الحق أو أي حظ في البقاء.

وماذا ثبت التاريخ أيضاً؟ ثبت أن محمداً خطب ابنة عمته زينب على مولاه زيد، فأبى أخوها عبدالله بن جحش أن تكون أخته وهي قرشية هاشمية، وهي فوق ذلك إبنة عمه الرسول، تحت عبد رقي أشرته خديجة ثم أعتقه محمد، ورأى في ذلك على زينب عاراً كبيراً. وكان ذلك عاراً حقاً عند العرب كبيراً. فلم تكن بنات الأشراف الشريفات ليتزوجن من موالٍ وإن أعتقوا. لكن محمداً يريد أن تزول مثل هذه الاعتبار القائمة في النفوس على العصبية وحدها، وأن يدرك الناس جميعاً أن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١) وهو لا يرى أن يستكره لذلك امرأة من غير

(١) سورة الحجرات، آية ١٣.

أهله. فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هي التي تحتل هذا الخروج على تقاليد العرب، وهذا الهدم لعاداتها، معرضة في ذلك عما يقول الناس عنها مما تخشى سماعه. وليكن زيد مولاة الذي تبني، والذي أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق في أن يرثه كسائر أبنائه سواء، هو الذي يتزوجها، فيكون مستعداً للتضحية التي أعدّ الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتخذوا أبناء. وليُبدِ محمد إصراره على أن تقبل زينب ويقبل أخوها عبد الله بن جحش زيدا زوجاً لها، ولينزل في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (١).

ولم يبق أمام عبد الله وأخته زينب بعد نزول هذه الآية إلا الإذعان، فقالا: رضينا يا رسول الله. وبني زيد بزینب بعد أن ساق النبي إليها عنه مهرها. فلما سارت زينب إلى زوجها لم يسلس له قيادها ولا لأن إباؤها، بل جعلت تؤذي زيدا وتفخر عليه بنسبها وبأنها لم يجر عليها رق. واشتكى زيد إلى النبي غير مرة من سوء معاملتها إيّاه، واستأذنه غير مرة في تطليقها، فكان النبي يجيبه: «أمسك عليك زوجك واتق الله». ولكن زيدا لم يُطق معاشره زينب وإباؤها عليه طويلا فطلّقها.

وكان الشارع الحكيم قد أراد أن يُبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها، ومن إعطاء الدعيّ جميع حقوق الإبن، ومن إجرائهم عليه أحكامه حتى في الميراث وحرمة

(١) سورة الأحزاب، آية ٣٦.

النسب، وألا يجعل للمتبني والوصيق إلا حقّ المولى والأخ في الدين. فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾^(١) ومعنى هذا أنه يجوز للمدعي أن يتزوج من كانت زوجاً لمن ادّعاء، ويجوز للمتبني أن يتزوج من كانت زوجاً لمتبناه. ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذا؟ ومن من العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السالفة جميعاً؟ إن محمداً نفسه، على قوة عزيمته وعميق إدراكه لحكمة الله في أمره، قد وجد على نفسه الغضاضة في تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيد إياها، ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس في خرقه هذه العادة القديمة المتأصلة في نفوس العرب، وذلك ما يريده تعالى في قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾^(٢). لكن محمداً كان القدوة في كل ما أمر الله به وما ألقى عليه أن يبلغه للناس، فلا يخشى ما يقول الناس في تزوجه من زوج زيد مولاه، فخشية الناس ليست شيئاً إلى جانب خشية الله بتنفيذ أمره، وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبني والادّعاء. وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾^(٣).

(١) سورة الأحزاب، آية ٤.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٣٧.

(٣) سورة الأحزاب، آية ٣٧.

هذه رواية التاريخ الصحيح في أمر زينب بنت جحش وزواج محمد منها. فهي ابنة عمته، وكان يراها ويعرف مبلغ جاهها قبل أن تتزوج زيداً، وهو الذي خطبها على زيد. وهو كان يراها بعد أن تزوجت زيداً أن لم يكن الحجاب معروفاً يومئذ. على أنه كان من شأنها، بحكم صلة القرابة من ناحية وأنها زوج دعيه زيد من ناحية أخرى، أن تتصل به لمصالحها ولتكرار شكوى زيد منها. وقد نزلت هذه الأحكام جميعاً، فأيدّها ما حصل من زواج زيد لزينب وتطليقه إياها وزواج محمد منها بعد ذلك، هذه الأحكام التي ترفع المعتق إلى مكانة الحرّ الشريف، والتي تُبطل حقوق الأديعاء وتقضي عليها بصورة عملية لا محلّ للبس ولا لتأويل بعدها. أفيبقى بعد ذلك أثر لهذه الأقايص التي يكرّرها المستشرقون والمبشرون، ويردّدها مؤير وإرفنج وسبرنجر وقيل ودزمنجيم ولأمّنس وغيرهم ممن تناولوا كتابة حياة محمد؟ ألا إنها شهوة التبشير المكشوف تارة والتبشير باسم العلم أخرى، والخصومة القديمة للإسلام خصومة تأصلت في النفوس منذ الحروب الصليبية، هي التي تملّي على هؤلاء جميعاً ما يكتبون، وتجعلهم في أمر أزواج النبيّ، وفي أمر زواجه من زينب بنت جحش خاصة، يتجنّون على التاريخ، ويتلمسون أضعف الروايات فيه مما دُسّ عليه ونُسب إليه^(١).

٨ - جويرية بنت الحارث رضي الله عنها.

وهي أرملة عدو الإسلام وأشدّهم خصومة للرسول ﷺ الذي قتل يوم المريسيع خلال غزوة بني المصطلق، ف وقعت جويرية أسيرة في يد المسلمين، وكانت من سهم ثابت بن قيس رضي الله عنه، فكاتبتها على تسع أواق، فجاءت إلى الرسول ﷺ وطلبت منه المساعدة على فكائها.

(١) انظر كتاب حياة محمد (لمحمد حسنين هيكل) من ص ٣٢٢ حتى ٣٢٦.

وفكر رسول الله ﷺ ملياً بآبنة سيد بني المصطلق الحارث بن ضرار زعيم قطاع الطرق، وصاحب الغارات على المسلمين مع قبيلته، وارتاحت نفس رسول الله لما خطر على نفسه فقال لجويرية وهي تقف أمامه تطلب العون: «هل لك في خير من ذلك؟ فقالت: وما هو؟ فقال: أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك. فقالت: نعم يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: قد فعلت»^(١).

وما إن أعلن خبر زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث حتى بدأت تظهر نتائج الحكمة البالغة من وراء هذه الزيجة المباركة.

فأما أبطال الإسلام أصحاب رسول الله ﷺ فما علموا بالخبر حتى قالوا: أصهار رسول الله يسترقون؟؟.. فأعتقوا ما كان في أيديهم من سبي لبني المصطلق. تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها^(٢).

- وأما قوم جويرية من بني المصطلق فلم يسمعهم بعد إطلاق سراحهم والإحسان عليهم من قبل الرسول ﷺ والمسلمين إلا أن يسلّموا ويتخلصوا من حقدهم على المسلمين، وبذلك أصبحوا عوناً للمسلمين بعد أن كانوا محاربين لهم وعوناً عليهم.

وهكذا يتبين لكل ذي بصيرة هدفاً آخر من أهداف تعدد أزواج رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام، ألا وهو قوة المسلمين والاستكثار من أنصار الدعوة.

★ ★ ★

(١) سبق تحريجه في ص ٩٩.

(٢) سبق تحريجه في ص ١٠٠.

٩ - أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها:

وهي أرملة عبيد الله بن جحش الذي فرت معه إلى الحبشة هروباً بدينها، وفي بلاد الغربة تنصر زوجها وارتد عن الإسلام وما لبث أن توفي في الحبشة، وثبتت رملة بنت أبي سفيان على دينها وهجرتها رغم الشدائد والأهوال التي لاقتها بفقد الكفيل والمعين.

واضطربت أم حبيبة رضي الله عنها وهي تفكر ماذا تصنع، فإن هي عادت إلى أبيها وأُمها في مكة وهم من ألد أعداء الرسول ﷺ فالنتيجة معروفة، فإنهم سيجبرونها على الكفر والردة قهراً، وإلا عذبوها عذاباً شديداً قد لا تطيقه. وإن التحقت في المدينة المنورة فليس هناك من يكفلها ويرعاها.

وفي هذه الأثناء علم رسول الله ﷺ بحال هذه المرأة المؤمنة المحزنة فأحب صلى الله عليه وسلم أن يكافئها على صبرها وثباتها فكتب إلى النجاشي ملك الحبشة ليزوجه إياها، ولما علمت أم حبيبة بذلك فرحت فرحاً عظيماً ووافقت على ذلك.

وانتقلت أم حبيبة من أرض الحبشة إلى المدينة المنورة لتزف إلى رسول الله ﷺ وكان عمرها سبعاً وثلاثين سنة.

وهكذا نرى أن الحكمة من وراء هذا الزواج هي تكريم هذه المرأة المؤمنة الصابرة وصيانتها من الحنة في دينها. وتأليف قلوب أهلها من بني أمية لمكانتها في قومها.

★ ★ ★

١٠ - صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها:

هي ابنة سيد بني قريظة حيي بن أخطب، أُسرَت بعد مقتل زوجها في غزوة خيبر، ولما دخلت على رسول الله ﷺ قال لها: «لم يزل

أبوك من أشد اليهود عداوة لي حتى قتله الله، فقالت: يا رسول الله، إن الله يقول في كتابه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (١).

وقال لها النبي ﷺ: «اختاري فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن اعتقك فتلحقني بقومك، فقالت: يا رسول الله لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك وما لي في اليهودية أرب، وما لي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام فالله ورسوله أحب إليّ من العتق وأن أرجع إلى قومي، فأمسكها رسول الله ﷺ لنفسه، وجعل عتقها صداقها.

ومن يتأمل حكمة زواجه صلى الله عليه وسلم بصفية نجد حكمة عظيمة فقد أحسن الرسول ﷺ لهذه المرأة وأكرمها وتلطف بها حتى أصبحت تفضله على أهلها وعشيرتها مع أنه كان بإمكانها الرجوع إلى أهلها، إلى جانب ما نلمسه من التاريخ أن كثيراً من اليهود أسلموا بعد هذا الزواج المبارك.

★ ★ ★

١١ - ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها:

وهي أرملة أبا رهم بن عبد العزى، وهي آخر امرأة تزوجها رسول الله ﷺ وذلك سنة سبع من الهجرة في عمرة القضاء. وكان الداعي لهذا الزواج رغبته عليه أفضل الصلاة والسلام في تأليف القبائل وهدايتهم إلى الإسلام حيث كانت قرابة ميمونة رضي الله عنها متشعبة في بني هاشم وبني مخزوم.

★ ★ ★

(١) سورة الأنعام، آية /١٦٤/.

والآن وبعد أن استعرضنا الأسباب والملابس الخاصة بكل زوجة من أزواجه عليه الصلاة والسلام، وظهرت لنا الغايات والأهداف السامية من هذا التعدد، نحب أن نلخص هذه الغايات والمصالح ليكون ذلك أدعى للفهم والاستيعاب بحول الله.

١ - المصالح التعليمية: والمقصود بها انتشار التعليم في الوسط النسائي لا سيما في الأمور التي تتعلق بهن ويحجن أن يسألن عنها رسول الله ﷺ، كأحكام الزوجية، ومسائل الحيض والنفاس والجنابة والطهارة وغير ذلك.

٢ - المصالح التشريعية: كإبطال عادة التبني التي كانت سائدة في الجاهلية، ومسألة التأخي بصورتها الجاهلية، والمساهمة الكبرى في رواية الحديث فقد ذكر الرواة أن عدد الأحاديث التي رواها نساء الرسول ﷺ عنه تجاوزت ثلاثة آلاف حديث.

٣ - المصالح الاجتماعية: والمقصود بها ما تم من توثيق روابط الصحبة بين الرسول ﷺ وبين أصحابه بمصاهرته الشريفة.

٤ - المصالح السياسية: وذلك بكسب التأييد حيث جذب إليه كبار القبائل بمصاهرته، بل دخولهم في دين الإسلام عن طوعية واختيار.

٥ - المصالح الإنسانية: حيث حقق رسول الله مبدأ التكافل وقد اتضح هذا جلياً بزواجه صلى الله عليه وسلم من العجائز اللاتي مات عنهن أزواجهن ولم يبق لهن سنداً ولا معين يكفلهن ويكفل أطفالهن اليتامى.

٦ - المصالح التربوية: ويتم ذلك بإعطاء القدوة الحسنة والمثل الكامل لكل الأزواج والزوجات، ويتضح ذلك من خلال حسن معاشرته صلى الله عليه وسلم لأزواجه، والعدل بينهن في القسمة والمبيت

والنفقة، وفي احتمال غضبهن وغيرتهن بالأناة والرفق والموعظة
الحسنة.

وبعد فما هو رأي الأفاكين والمغرضين من المستشرقين في زواج
الرسول ﷺ بهؤلاء النسوة الأفاضل؟.. وهل تمت هذه الزيجات بدافع
الأنانية والشهوات الجنسية كما يزعمون؟.. أم هو منتهى الإيثار
والتضحية وتكريم الإنسانية؟؟..

الطلاق في الإسلام

وكما زعم المستشرقون المغرضون عن تعدد الزوجات أنه ضياع للنساء المسلمات، واستجابة رخيصة لشهوات الرجال وأهوائهم الجنسية - زعموا أيضاً: أن إباحة الطلاق في الإسلام، وجعله في أيدي الرجال قسوة وظلم واستبداد بالنسبة للنساء^(١).

ولذا كان لزاماً علينا أن نعطي كلمة مختصرة عن الطلاق في الإسلام لنرد على الافتراءات الباطلة ببيان الحكمة من إباحة الطلاق، وما فيها من مصلحة لكلا الزوجين في ظروف معينة.

فالإسلام دين واقعي، يقيم نظمه كلها على أساس أن هذا الإنسان يحمل من الميول والنزعات، والنقص والضعف، وله من العواطف والمشاعر، ما يجعله يقع في ضرورات تحتاج إلى حلول.

والله سبحانه وتعالى الخبير البصير الذي يعلم من أمر الناس ما لا يعلمون لم يشأ أن يجعل من الرابطة الزوجية قيداً وسجناً لا سبيل إلى الفكاك منه ولو تحولت الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق لسوء تصرف من أحدهما أو كليهما.

(١) راجع بحث الطلاق ضرورة ومصلحة من كتاب (مفتريات على الإسلام) للاستاذ أحمد محمد جمال ص ١٢٣.

يقول سيد قطب رحمه الله:

«والإسلام لا يسرع إلى ربط الزوجية المقدسة فيفضحه لأول وهلة، ولأول بادرة من خلاف. إنه يشد على هذا الرباط بقوة، فلا يدعه يفلت إلا بعد المحاولة واليأس.

إنه يهتف بالرجال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ

أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(١)... فيميل بهم إلى

التريث والمصابرة حتى في حالة الكراهية، ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة ﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾. فما يدر بهم أن في هؤلاء النسوة المكروهات خيراً. وأن الله يدخر لهم هذا الخير، فلا يجوز لهم أن يفلتوه، إن لم يكن ينبغي لهم أن يتمسكوا به ويعزوه! وليس أبلغ من هذا في استحياء الانعطاف الوجداني واستثارته، وترويض الكره وإطفاء شرته.

فإذا تجاوز الأمر مسألة الحب والكره إلى النشوز والنفور، فليس الطلاق أول خاطر يهدي إليه الإسلام. بل لا بد من محاولة يقوم بها الآخرون، وتوفيق بمحاولة الخيرون: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعُثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾^(٢). ﴿وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾^(٣).

(١) سورة النساء، آية ١٩/.

(٢) سورة النساء آية ٣٥.

(٣) سورة النساء آية ١٢٨.

فإذا لم تجد هذه الوساطة فالأمر إذن جد، وهناك ما لا تستقيم معه هذه الحياة، ولا يستقر لها قرار، وإمساك الزوجية على هذا الوضع إنما هو محاولة فاشلة يزيد بها الضغط فشلاً. ومن الحكمة التسليم بالواقع، وإنهاء هذه الحياة..»^(١).

ولا بد لنا هنا أن نبين أن الإنسان لا يجوز له في أي لحظة أن يطلق، وإنما السنة أن يكون ذلك في طهر لم يقع فيه وطء.. وفي هذا ما يؤجل فصم العقدة فترة بعد موقف الغضب والإنفعال، وفي خلال هذه الفترة قد تتغير النفوس، ويصلح الله بين المتخاصمين فلا يقع الطلاق، ثم بعد ذلك تأتي فترة العدة وفي خلالها مجال طويل للمعاودة إن نبضت في القلوب نابضة من مودة، ومن رغبة في استئناف ما انقطع من حبل الزوجية^(٢).

وما ينبغي ملاحظته أيضاً: أن الشريعة الإسلامية انفردت بنظام المراجعة في الطلاق دون الشرائع الأخرى^(٣).

كل هذا حرصاً من الإسلام على إعادة الرباط الزوجي بين الزوجين، وحفاظاً على الذرية من الضياع والتشرد، واستصلاحاً لما فسد بين الزوجين من مودة وسكن.

ويعتبر الطلاق الرجعي في الإسلام - وهو المرة الأولى والثانية - فترة اختبار للزوجين، وفرصة تأمل ومراجعة للأخطاء والزلات، والندم والتوبة، ثم العودة إلى بيت الزوجية وما يظله من مودة ورحمة وسكن وذرية^(٤).

(١) أنظر كتاب دستور الأسرة في ظلال القرآن ص ٣٧١ و ٣٧٢.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) أنظر كتاب نظام الأسرة للدكتور محمد علي الصابوني ص ١٠٣.

(٤) مفتریات علی الإسلام د. أحمد محمد جمال ص ١٢٧.

وإذا تجاوز الأمر كل هذه المحاولات وغدت الحياة الزوجية - كما ذكرنا سابقاً - جحيماً لا يطاق عند ذلك لا بد من مواجهة عملية واقعية من خلال ضمانات وحقوق مفصلة في التشريع الإسلامي لا مجال لعرضها في هذا الكتاب.

يقول الأستاذ محمود شاكر متسائلاً:

(...) إذا غدت الحياة الزوجية جحيماً لا يطاق بين رجل وامرأة فما هو الحل؟ ويجب: لدينا طريقتان لا ثالث لهما. إما الطلاق وهو ما اختاره الإسلام، وإما المحافظة على الزواج الإسمي بينهما بحيث لا يشارك أحدهما الآخر عاطفياً أو وجدانياً، أو ودّياً بل ولا مجاملة أبداً، بل يتجه كلاهما نحو هواه بالحرام فيحقق رغباته فيعيش الرجل مع خليلته وتغض المرأة النظر عما يحدث، وكأنها لا تدري، وتعيش هي في أحضان أصحابها ويتعامى الرجل حتى كأنه لا يرى شيئاً، ثم يجمعها البيت في آخر الليل وقد أنهك جسميهما سهر الليل مع من أحب، وهو ما اختارته المجتمعات الحديثة، متأثرة بالنصرانية واليهودية المزيفتين واللتين لا تقران الطلاق، وما أعتقد امرأة أو رجلاً يوافق على الحياة مع مخلوق آخر مكرهاً لا يحبه، ولا يستطيع النظر إليه، وكيف يمكن أن يشاركه وجدانه وغرائزه^(١).

ومن أجل هذا اضطرت الدول النصرانية وغيرها من الدول إلى إباحة الطلاق مخالفة عقائدها ونظمها الأرضية، شاهدة على زيفها وعدم صلاحيتها للحياة.

فهذا مجلس العموم البريطاني يوافق على قانون إباحة الطلاق بين الزوجين بعد أن ينفصلا لمدة عامين إذا وافق الزوجان على الطلاق، ولدة خمسة أعوام إذا وافق أحدهما دون الآخر.

(١) التاريخ الإسلامي (٦٩/١) للأستاذ محمود شاكر.

وفي الهند أقر البرلمان الهندي في ١٤/١٠/١٩٥٤ م قانون إبادة الطلاق وكان ممنوعاً عند بعض الطوائف الهندوكية.

وفي إيطاليا أقر مجلس الشيوخ الإيطالي مشروع إبادة الطلاق في عام ١٩٧٠ م، نظراً لما لمسه من الآثار السيئة في تحريمه بالرغم من معارضة الفاتيكان لذلك.

وهكذا فالزواج والطلاق في الإسلام إنصاف للمرأة ولمصلحتها وتحقيق إنسانيتها وفطرتها، وتقرير لكرامتها، ولا بد أن يأتي اليوم - بحول الله - الذي ينادي فيه البشر - كل البشر على وجه الأرض - بتحكيم شرع الله. الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من لدن عزيز حكيم.

وفي ختام هذا البحث الموجز عن الطلاق في الإسلام نورد كلاماً طيباً للداعية الكبير سيد قطب - رحمه الله - .

«ومن هذه الوهدة العالمية ارتفع الإسلام بالمرأة وبالعلاقات الزوجية إلى ذلك المستوى الرفيع الطاهر الكريم. وأنشأ للمرأة ما أنشأ من القيمة والاعتبار والحقوق والضمانات.. وليدة لا توأد ولا تهان. ومخطوبة لا تنكح إلا بإذنها ثيباً أو بكرأ. وزوجة لها حقوق الرعاية وفق ضمانات الشريعة، ومطلقة لها هذه الحقوق المفصلة في التشريع الإسلامي.

شرع الإسلام هذا كله. لا لأن النساء في شبه الجزيرة أو في أي مكان في العالم حينذاك شعرن بأن مكانهن غير مُرضٍ، ولا لأن شعور الرجال كذلك قد تأذى بوضع النساء. ولا لأنه كان هناك اتحاد نسائي عربي أو عالمي، ولا لأن المرأة دخلت دار الندوة أو مجلس الشورى، ولا لأن هاتفاً واحداً في الأرض هتف بتغيير الأحوال.. إنما كانت هي شريعة السماء للأرض...»^(١).

(١) من كتاب دستور المرأة في ظلال القرآن ص ٣٧٣.

فهل بعد هذا يبقى هناك مجالاً لتشدقٍ مفترٍ أن يدعي بأن نظام
الطلاق في الإسلام قسوة واستبداد بالمرأة؟؟!!...

وهل بعد هذا يبقى هناك مجالاً للشك في البواعث المغرضة وراء
مفتريات المستشرقين؟؟!!...

ولكن الحقيقة تتمثل في قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ
هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ
وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(١).

(١) سورة البقرة، آية ١٢٠/.

حَمَلَةُ جَمْعَاءٍ فِي هَيْئَةِ الْأُمَمِ عَلَى الْإِسْلَامِ

من أجل أن يعرف كل مسلم ومسلمة في العالم مدى البهتان الكاذب والتعصب التبشيري الحاقد اللئيم الصادر عن الصليبية الحاقدة، والصهيونية الماكرة - رأينا أن نختم بحثنا عن مفتريات المستشرقين بهذا النموذج من الافتراء الكاذب والصادر عن أكبر هيئة رسمية في الغرب، وخاصة في مقر هيئة الأمم، حيث تعيش المرأة هناك أشقى وأفسق حياتها عبر القرون.

يقول التقرير الصادر عن هيئة الأمم:

«.. إن المرأة الشرقية ما تزال محجوراً عليها، وأن هناك فوارق وفواصل بينها وبين الرجال، وان مرد ذلك إلى الدين الإسلامي ووقوفه عقبة في سبيل نهوض المرأة ومساواتها بالرجل..»^(١).

ونحن لا نرى سبباً لافتراءات المبشرين والمستشرقين في هذه المسألة وغيرها سوى الحقد للمبادئ الإسلامية والتي هي مصدر عزة وكرامة المرأة المسلمة. ودليلنا على ما نراه في هذه المسألة: أن المستشرقين يتجاهلون عنصر المقارنة التي يعرضون لها - مع أن عنصر المقارنة كما يقول الأستاذ محمد عبدالله السمان -: عنصر جوهري في مجال البحث العلمي^(٢).

(١) نقلاً عن مجلة الأزهر - الجزء الخامس - المجلد التاسع ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

(٢) أنظر كتاب مفتريات اليونسكو على الإسلام للأستاذ محمد عبد الله السمان ص ٣٨.

وهؤلاء الذين يحرصون على الافتراء يتجاهلون عن عمد المقارنة بين وضع المرأة في الجاهلية قبل الإسلام، وبين وضعها بعد ظهور الإسلام - كما بينا ذلك في أول الكتاب - بل يتجاهلون المقارنة بين وضعها في ظل الإسلام، وبين وضعها في جاهليتهم الحديثة، وفي بلاد الغرب بالذات حيث تعيش المرأة - كما هو ملموس ومشاهد لكل ذي بصيرة - أسوأ حياتها. فهي هناك العنصر المظلوم المهضوم المبتذل الرخيص، رغم زعمهم وصراخهم بالحرية والمساواة!!.

وأي مساواة هذه؟! إنها مساواة الذل والهوان والسقوط، إنها مساواتهم التي دفعت بالمرأة لتعمل في كنس الشوارع، وحمل أمتعة المسافرين.

وأي حرية تلك التي يتنطعون بها؟! وما هو مداها؟؟ وما هي نتائجها؟؟.

لقد تفلتت المرأة الغربية من كل قيد باسم هذه الحرية ونزلت بكرامتها إلى الحضيض، حيث أصبحت سلعة رخيصة للرجال الأشرار الفساق.. بل وصل الأمر بها إلى أن تعرض في المعارض في كثير من مدن أوروبا.. تماماً كما تعرض سائر السلع التجارية الأخرى...!!.

يقول الأستاذ أحمد محمد جمال: «.. إن تلك الحرية الموهومة والمساواة المزعومة اللتين أعطيتا للمرأة الحديثة كانتا بسبب تخلي الرجل عنها، واهماله لحقها عليه، وموت ضميره تجاه حرمة عرضها وشرفها^(١)

(١) أنظر كتاب مفتریات على الإسلام للأستاذ أحمد محمد جمال.

ونحن نقول:

من أجل هذه الحرية الكاذبة والمساواة الظالمة كتبت مارلين مونرو وقبل انتحارها - وهي أشهر ممثلة في الإغراء - نصيحة للفتيات جاء فيها: «.. احذري المجد.. احذري كل من يخدعك بالأضواء.. إني أتعس امرأة على هذه الأرض.. لم أستطع أن أكون أما.. إني امرأة أصبحت أفضل البيت.. الحياة العائلية الشريفة على كل شيء.. إن سعادة المرأة الحقيقية في الحياة العائلية الشريفة الطاهرة، بل إن هذه الحياة العائلية هي رمز سعادة المرأة بل الإنسانية»^(١).

ومن أجل هذه الحرية الموهومة والمساواة المزعومة طالبت حركة تحرير المرأة في بريطانيا ليلة تتويج ملكة للجمال هناك: بإحراق هذا العالم الذي صنعه الرجل، وحملت أكثر من ثلاثمائة امرأة لافتات كتب عليها:

«نحتاج على سوق اللحم البشري» «لقد أصبحت المرأة لعبة للرجل»
«...»^(٢).

ومن أجل هذه الحرية والمساواة المغرضتين كشف معهد أبحاث أمريكي في لوس أنجلوس عن فضيحة أخلاقية مفزعة وهي: أن عشرة آلاف فتاة في كاليفورنيا وحدها قد أنجن أطفالا غير شرعيين، وأن عدد البنات اللاتي ولدن ولادات غير شرعية في الولايات المتحدة الأميركية يزيد على (٢٠٠ ألف فتاة)، وأنه في مدرسة ثانوية واحدة في لوس أنجلوس ظهرت أعراض الحمل على (٢٥٠) طالبة^(٣).

(١) نقلاً من كتاب المرأة بين الفقه والقانون ص ٣١٥.

(٢) نقلاً من كتاب مفتريات على الإسلام ص ٩١.

(٣) نفس المصدر السابق.

ومن أجل ما تعانيه الحضارة الغربية المزعومة صرح أحد أساطينها الكبار بما يلي:

«..إننا نواجه مشاكل تحتاج إلى حل سريع، إذ بالرغم من أننا بسبيل القضاء على إسهال الأطفال والسل والدفتريا والحمى التيفودية..الخ فقد حلت محلها أمراض الفساد والانحلال، وامراض الجهاز العصبي والقوى العقلية..»^(١).

ومن أجل هذا الانحراف الخطير عن فطرة الله التي فطر الناس عليها كانت النتائج كما يلي:

- - مليون طفل من الزنا كل عام في أمريكا.
- - مليون حالة إجهاض في أمريكا أيضاً.
- - انتشار الأمراض الزهرية، والهيريس، والايذز.
- - ازدياد نسبة الخيانات الزوجية واتخاذ الخليلات.
- - ازدياد نسبة الانتحار عند الفتيات والفتيان.
- - ازدياد في حالات الشذوذ الجنسي الخطير.
- - اضطراب الحياة العائلية وانحراف في تربية الأطفال مما أدى إلى تشردهم وشقائهم حتى غدوا حرباً على أنفسهم وأهلهم وأوطانهم.
- - ندامة النساء في الغرب على اشتغالهن خارج البيوت.
- - حنين النساء الغربيات لحياة المرأة في الديار الإسلامية ومطالبتهن المساواة بها.

(١) نقلاً من كتاب (الإنسان ذلك المجهول) (الكيس كارل).

أجل .. هذه بعض نتائج البعد عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها ﴿ فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (١).

ومن المؤسف له حقاً أن نرى الكثيرات من نساءنا قد خدعن بتلك الحملة الحمقاء الماكرة، فسرن في نفس المتاهة ولم يعتبرن بما حدث للمرأة في الغرب والتي بدأت تطالب من جديد بمساواتها بالمرأة الشرقية المسلمة بعد أن عرفت ماذا يُراد منها بتلك الشعارات الكاذبة المغرضة. وقديماً قال المثل: « مَنْ جَرَّبَ الْمَجْرَبَ كَانَ عَقْلُهُ مَخْرَبٌ ».

ولو لم يكن العقل مخرباً بالفعل لما تركت المرأة مصدر عزتها وكرامتها المصانة في ظل الإسلام.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم:

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُورًا بِكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (٢).

ويقول جل شأنه:

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ (٣).

ويقول تبارك وتعالى:

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَ أَكْرَمُكُمْ ﴾ (٤).

(١) سورة الروم آية ٣٠.

(٢) سورة النساء، آية ١.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٩٥.

(٤) سورة الحجرات، آية ١٣.

فقد جعل الله سبحانه وتعالى شأن المرأة كالرجل في القيمة الإنسانية سواء بسواء والميزان هو: إن أكرمكم عند الله أتقاكم.

وهذا معلم البشرية ورسولها الكريم صلى الله عليه وسلم يكرم المرأة أيما تكريم فيقول:

«إنما النساء شقائق الرجال»^(١).

ويقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»^(٢).

وكان صلى الله عليه وسلم يعظ المسلمين ويقول لهم:

«استوصوا بالنساء خيراً...»^(٣).

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ فقال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك^(٤).

وكان صلى الله عليه وسلم يبشر من يعول البنات ويحسن إليهن بالجنة فيقول: «من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات، أو بنتان أو أختان، فأحسن صحبتهن وأتقى الله فيهن، فله الجنة»^(٥).

-
- (١) أخرجه ابو داود برقم ٢٣٦٠ / والترمذي برقم ١١٣ / وهو حديثه حسن.
 - (٢) الترمذي برقم ٣٨٩٢ / والدارمي ص ٢٩٢. واسناده صحيح.
 - (٣) أخرجه البخاري في الأدب (٧٨/٧). ومسلم برقم ١٤٦٨ / في الرضاع باب الوصية بالنساء.
 - (٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، (٧ / ٦٩) ومسلم في البر، باب بر الوالدين برقم ٢٥٤٨.
 - (٥) أخرجه ابو داود في الأدب برقم ٥١٤٧ والترمذي في البر والصلة برقم ١٩١٣ وللبخاري ومسلم نحوه.

وكان يقول:

«من كانت له أنثى، فلم يئدها ولم يهينها، ولم يؤثر ولده - يعني الذكور - عليها أدخله الله الجنة»^(١).

وكان عليه أفضل الصلاة والسلام يعتز بانتسابه للمرأة فيقول:
«أنا ابن العواتك من سليم. وكان يعتبر المرأة خير متاع الحياة الدنيا فيقول: «خير متاع الدنيا الزوجة الصالحة، إن نظرت إليها سرتك، وإن غبت عنها حفظتك».

هذا هو موقف الإسلام من المرأة: أما، وزوجة، وبنات. كبيرة كانت أو صغيرة، فأى تكريم لها بعد هذا التكريم؟.
وهل حصلت المرأة الأوروبية والأمريكية - في حضارتهم الحديثة المزعومة - على شيء من هذا التكريم؟.
وهل استطاعت هيئة البغي والتضليل من تحقيق سعادة المرأة عندهم؟؟.

إن من يراجع ما كتب عن النساء والرجال الذين أسلموا يدرك تماماً: أن الدوافع الأساسية لاعتناقهم دين الإسلام هو ذلك التكريم الإنساني والطمأنينة التي لم يجدوها في النظم الأخرى...
وفي ختام الحديث عن الحملة الحمقاء الحاكمة من هيئة الأمم نسجل قصيدة للأخ الفاضل خير الدين وانلي - حفظه الله - بعنوان: هيئة الأمم.

(١) أخرجه أبو داود في الأدب برقم ٥١٤٦ وفي سنده مجهول وباقي رجاله ثقات.

هيئة الأمم

شر البلية بلوى هيئة الأمم
كل الحقوق إذا ضاعت أو اغتصبت
يا هيئة البغي هذي القدس شاهدة
وتلك (كابل) في أقصى مرابعنا
ومجلس الأمن للتضليل جلسته
صهيون من وضعت ميثاق عصبتها
وصدق الناس ان الهيئة انتظمت
وما دروا أن خلف الفقر منتفع
تلك التي تنصر الباغي وترشده
تجسس الأرض مبثوث توجهه
يمضون شرقاً وغرباً لا يمانعهم
هم للطغاة مجسات تذكرنا
ما هيئة الأمم الخفاق بيرقها
يا أيها الناس ان كنتم ذوي بصر
أو نظموها لخير الناس قاطبة
محمد أعذل الحكام في حرم
من علم الناس إصلاحاً إذا فسدت
فدينه الحق للتحكيم دعوته
فلا يجابي ذوي بأس ومنتسب
ميزانه العدل والإنصاف غايته

عصاة البغي والتضليل والجرم
تجد مخابئها في هيئة الأمم
على الجرائم والكفران للقيم
تئن من عسف طاغوت ومنتقم
وهو المدير بئس الذئب من حكم
حتى تغطي إجراماً لمجترم
لصالح العالم الهاوي إلى العدم
وخلف كل حروب هيئة الأمم
إلى مقاتل مظلوم ومهتضم
منظمات لها جند ذوو علم
ذو قوة أو أخو حكم ومحتكم
بالأخطبوط الذي يصطاد في الظلم
سوى ذيول لذي نهب وذي نهم
فقاطعوا هيئة الآثام والأجم
لا للتجسس والإرهاب والنقم
لما أرادوا بناء البيت ذي الحرم
أواصر الناس من عرب ومن عجم
في كل أمر لنشر الأمن والسلم
ولا يفرق بين الناس كلهم
والله سطره في اللوح بالقلم

خاتمة المطاف

والآن أيتها الأخت المسلمة:

فلتعلمي أن هذا الكتاب الذي بين يديك ما هو إلا بمثابة ذكرى وزاد على الطريق الطويل، فلا تنخدعي ولا تتعشري ما دمت تعلمين أنك تنتسبين إلى أمة عظيمة، وعقيدة سليمة أنجبت هؤلاء النسوة الأفاضل اللاتي كن حول الرسول فهززن السرير بيميناهن، وهززن العالم بيسارهن.

ولتعلمي أختاه.. أنك مدعوة للمشاركة بإشادة صرح الإسلام العظيم، وإعادة مجده التليد، وذلك بقيامك بمهامك الأساسية في بناء جيل مسلم رشيد يعتز بدينه ويجعل من السلف الصالح قدوته.

ولتعلمي أختاه.. أنك تقفين على ثغر من ثغور الإسلام فكوني يقظة حذرة من الهجمة الشرسة من أولئك الذئاب المفترسين الذين يريدون منك أن تكوني دوماً بين أياديهم الظالمة الآثمة باسم الشعارات المزيفة الجذابة كالتحرر والمساواة والتجديد.. الخ.

ولتعلمي أن خلاص المرأة من الإضطهاد والظلم والمهانة الذي نلقاه في العالم أجمع لن يكون إلا بالرجوع إلى شرع الله من منابعه الثراء. كتاب الله، وسنة رسوله، وفهمها على ضوء النهج الذي كان عليه السلف الصالح - رضوان الله عليهم - فعلمي ذلك لبنات جنسك ممن سلخن ثوب العزة والكرامة. وانطلقن وراء الشهوات والنزوات وتبعن شياطين

الصليبية الحاقدة، والصهيونية الماكرة فضلن طريق الهداية واستبدلن
الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ولتعلمي أخيراً أيتها الأخت المسلمة أننا بشر نصيب ونقع في الخطأ
فالتمسي لنا العذر على زلاتنا ولا تدخري النصح لنا بأي وسيلة فإن
ذلك أمانة في عنقك وادع لنا بظهر الغيب دعوة خالصة بأن يجعل الله
عملنا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبله منا وينفع به المسلمين، وأن
يدخر لنا ثوابه ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

مصطفى أبو النصر الشلبي

عمود مهدي الإستانبولي

مصادر البحث

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير، طبعة دار المعرفة.
- ٣ - جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري. طبعة دار المعرفة.
- ٤ - في ظلال القرآن سيد قطب.
- ٥ - الكتاب المقدس. طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.
- ٦ - صحيح البخاري. طبعة المكتبة الإسلامية استانبول.
- ٧ - صحيح مسلم. طبعة دار إحياء التراث العربي.
- ٨ - سنن أبي داود. طبعة مكتبة الرياض الحديثة.
- ٩ - سنن الترمذي، طبعة مكتبة ابن تيمية.
- ١٠ - سنن النسائي. طبعة دار الكتاب العربي.
- ١١ - سنن ابن ماجه. طبعة شركة الطباعة العربية السعودية تحقيق الأعظمي.
- ١٢ - سنن الدارمي، طبعة دار الكتب العلمية.
- ١٣ - مسند الإمام أحمد، طبعة المكتب الإسلامي.
- ١٤ - المستدرک علی الصحیحین للحاکم النیسابوری، طبعة دار المعرفة.

- ١٥ - شرح السنة للبغوي (محقق) طبعة المكتب الإسلامي.
- ١٦ - مجمع الزوائد للهيثمي. طبعة مؤسسة المعارف.
- ١٧ - الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان. طبعة دار الكتب العلمية.
- ١٨ - سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، المكتب الإسلامي.
- ١٩ - سلسلة الأحاديث الضعيفة، للألباني المكتب الإسلامي.
- ٢٠ - ضعيف الجامع الصغير وزياداته للألباني، المكتب الإسلامي.
- ٢١ - ضعيف الجامع الصغير وزياداته للألباني، المكتب الإسلامي.
- ٢٢ - التاريخ الكبير للإمام البخاري. طبعة مؤسسة الكتب الثقافية.
- ٢٣ - تاريخ الطبري. طبعة دار الكتب العلمية.
- ٢٤ - البداية والنهاية لابن كثير. طبعة دار الكتب العلمية.
- ٢٥ - الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني. دار الكتب العلمية.
- ٢٦ - أسد الغابة في معرفة الصحابة. طبعة.
- ٢٧ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر. طبعة دار الفكر
- ٢٨ - جهرة أنساب العرب لابن حزم تحقيق عبد السلام هارون.
- ٢٩ - المعرفة والتاريخ للفسوي. وزارة الأوقاف العراقية.
- ٣٠ - سير أعلام النبلاء للذهبي (محقق) مؤسسة الرسالة.
- ٣١ - الطبقات الكبرى لابن سعد. دار الباز.
- ٣٢ - حلية الأولياء للأصبهاني. دار الكتاب العربي.
- ٣٣ - السيرة النبوية لابن هشام. طبعة دار القلم.
- ٣٤ - جامع الأصول لابن الأثير. دار الفكر.
- ٣٥ - المعجم الوسيط. دار إحياء التراث العربي.

- ٣٦ - سيدات بيت النبوة للدكتورة بنت الشاطئ. طبعة.
- ٣٧ - نساء أنزل الله فيهن قرآنًا. للدكتور عبد الرحمن غبيرة. اللواء.
- ٣٨ - عودة الحجاب. محمد أحمد المقدم. طبعة دار طيبة.
- ٣٩ - نساء فاضلات. عبد البديع صقر. دار الاعتصام.
- ٤٠ - الأخوات المؤمنات، منير محمد الغضبان. مكتبة المنار.
- ٤١ - حوار مع ٣٠ من صحابة رسول الله. حسن دوح. دار الاعتصام.
- ٤٢ - المرأة بين الفقه والقانون. مصطفى السباعي. المكتب الإسلامي.
- ٤٣ - مفتریات على الإسلام. أحمد محمد جمال. دار الفكر.
- ٤٤ - نظام تعدد الزوجات في الإسلام كوثر كامل علي. دار الاعتصام.
- ٤٥ - تعدد الزوجات. للدكتور عبد الله ناصح علوان. دار السلام.
- ٤٦ - الإستشراق والمستشرقون. مصطفى السباعي.
- ٤٧ - سموم الاستشراق والمستشرقين. أنور الجندي. دار الجيل.
- ٤٨ - طريق الدعوة في ظلال القرآن. جمع أحمد فائز. مؤسسة الرسالة.
- ٤٩ - طريق الأسرة في ظلال القرآن. جمع أحمد فائز. مؤسسة الرسالة.
- ٥٠ - مفتریات اليونسكو على الإسلام. محمد عبد الله السمان.
- ٥١ - تعدد زوجات الرسول ﷺ. للدكتور ملك غلام مرتضى.
- ٥٢ - الإنسان ذلك المجهول، الكسيس كارل.
- ٥٣ - حياة محمد. لمحمد حسنين هيكل.
- ٥٤ - الصديقة بنت الصديق. للعقاد.

- ٥٥ - بيعة النساء . محمد علي قطب . مكتبة القرآن .
- ٥٦ - فتح الباري لابن حجر العسقلاني . دار المعرفة .
- ٥٧ - فقه السنة . لسيد سابق . دار العلم .

المحتويات

المَوْضُوع	الصَّفْحَة
الاهداء	٥
مقدمة التأليف	٧
بين يدي البحث	١٥
المرأة عند اليونان	١٦
المرأة عند الرومان	١٨
المرأة في بلاد الفرس	٢٠
المرأة في بلاد الصين	٢١
المرأة في بلاد الهند	٢٢
المرأة عند اليهود	٢٣
المرأة عند النصارى	٢٥
المرأة عند العرب في الجاهلية	٢٧
أمهات المؤمنين رضي الله عنهن	٣٣
خديجة بنت خويلد (سيدة قریش الطاهرة)	٣٥
سودة بنت زمعة (المهاجرة أرملة المهاجر)	٤٧
عائشة بنت أبي بكر (المبرأة من فوق سبع سماوات)	٥٣

٦١	حفصة بنت عمر (حارسة القرآن)
٦٧	أم سلمة (أول ظعينة دخلت المدينة مهاجرة)
٧٧	أم حبيبة أرملة بنت أبي سفيان (مؤمنة وفدت لديها)
٨٥	زينب بنت جحش (أكرم أمهات المؤمنين ولياً وسفيراً)
٩١	صفية بنت حيي (عقيلة بني النضير)
٩٧	جويرية بنت الحارث (امراة عظيمة البركة على قومها)
١٠٣	ميمونة بنت الحارث (آخر أمهات المؤمنين)
١١١	الرسول زوجاً
١١٥	الرسول الزوج المرح
١١٨	الرسول الزوج الحازم
١٢١	الرسول الزوج الوفي
١٢٥	بنات النبي صلى الله عليه وسلم
١٢٧	زينب الكبرى (فادية زوجها)
١٣٥	رقية (ذات المهجرتين)
١٤١	فاطمة الزهراء (أم أبيها رضي الله عنها)
١٥٥	فاطمة الزهراء (قصيدة) لمحمد إقبال
١٥٩	أم كلثوم بنت رسول الله (حبيسة الشعب)
١٦٥	الرسول أبا وجداً
١٦٩	الرسول أبا محباً
١٧٤	الرسول أبا حازماً
١٧٩	صحابيات فاضلات تخرجن من مدرسة النبوة
١٨١	أسماء بنت أبي بكر (ذات النطاقين)
١٨٦	فاطمة بنت الخطاب
١٩٠	أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب (القابلة المسلمة)
١٩٣	صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ

٢٠٠	 أسماء بنت يزيد بن السكن (خطيبة النساء)
٢٠٤	 أم سليم بنت ملحان (المؤمنة الداعية)
٢١٢	 أم حرام بنت ملحان (شهيدة البحر)
٢١٥	 أم ورقة (المرأة.. الشهيدة)
٢١٨	 أسماء بنت عميس (صاحبة الهجرتين)
٢٢٧	 الشفاء بنت الحارث (المعلمة الأولى في الإسلام)
٢٣١	 أم حكيم بنت الحارث (زوج عكرمه بن أبي جهل)
٢٣٥	 أم أيمن (مولاة النبي ﷺ وحاضنته)
٢٣٨	 هند بنت عتبة (بظلة في الجاهلية والإسلام)
٢٤٥	 أم شريك القرشية (المرأة الداعية)
٢٤٨	 أم الفضل زوجة العباس عم النبي ﷺ
٢٥٣	 الربيع بنت معوذ (مؤمنة بايعت تحت الشجرة)
٢٥٦	 الخنساء (أم الشهداء)
	خولة بنت ثعلبة (المرأة التي سمع الله شكواها من فوق سبع
٢٦١	 سماوات)
٢٦٤	 أم رومان (زوج الصديق وأم الصديقة)
٢٦٨	 أم عمارة (الفدائية المؤمنة)
٢٧٢	 أم محجن (درس لا ينسى)
٢٧٥	 بيعة النساء
٣٠٧	 ردود على مفتريات المستشرقين
٣١١	 تعدد الزوجات في الإسلام
٣٢٧	 تعدد زوجات الرسول ﷺ
٣٣٤	 الحكمة من تعدد أزواج النبي ﷺ
٣٦٣	 الطلاق في الإسلام
٣٦٩	 حملة حمقاء في هيئة الأمم على الإسلام

٣٧٦		هيئة الأمم (قصيدة للشيخ خير الدين وانلي)
٣٧٧		خاتمة المطاف
٣٧٩		مصادر البحث
٣٨٣		فهرس محتويات الكتاب

من منشورات مكتبة السوادي / جدة

- ١ - جغرافية العالم الاسلامي (١ و ٢)
- ٢ - الضياء اللامع (مجلد وغلاف)
- ٣ - حصائد اللسن (مجموعة قصصية للاطفال)
- ٤ - الرد على أخطاء الصابوني
- ٥ - غاية النفع (لابن رجب)
- ٦ - شرح حديث عمار (لابن رجب)
- ٧ - ادراك الركعة بادراك الركوع
- ٨ - عالم الغيب والشهادة في التصور الاسلامي
- ٩ - هداية الخيارى (لابن القيم)
- ١٠ - اعلام السنة المنشورة (للمحافظ الحكمي)
- ١١ - وجوب التمسك بالكتاب والسنة (للمحافظ الحكمي)
- ١٢ - ست مسائل هامة في الدين (للمحافظ الحكمي)
- ١٣ - نونية القحطاني
- ١٤ - عشرون قصيدة في الزهد
- ١٥ - الكلام على سورة الاخلاص (لابن رجب)
- ١٦ - الزيارة بين النساء على ضوء الكتاب والسنة
- ١٧ - ثلاثيات مؤمنة (مجموعة قصصية)
- ١٨ - مسابقات وثقافات (ثقافة اسلامية) (١ و ٢)
- ١٩ - نساء حول الرسول
- ٢٠ - اعراب المعلقات العشر
- ٢١ - معلومات مهمة من الدين
- ٢٢ - علامات النبوة (للبوصيري)
- ٢٣ - اركان الاسلام والايمان
- ٢٤ - دليل الخيرات وسبيل الجنات
- ٢٥ - معجزات المصطفى ﷺ
- ٢٦ - إعجاز القرآن العلمي
- ٢٧ - الوافي في شرح الشاطبية
- ٢٨ - فهرس المسانيد
- تأليف - د. أحمد شقليه
- للشيخ ابن عثيمين
- موفق سليمة
- محمد بن جميل زينو
- تحقيق ابراهيم العرف
- تحقيق ابراهيم العرف
- تأليف الشيخ عثمان جمعة ضميرية
- تأليف الشيخ عثمان جمعة ضميرية
- تحقيق مصطفى ابو النصر الشلبي
- تحقيق مصطفى ابو النصر الشلبي
- تحقيق مصطفى ابو النصر الشلبي
- تحقيق محمد أحمد سيد أحمد
- تحقيق محمد أحمد سيد أحمد
- تحقيق موفق العوض
- بقلم خولة عبد القادر درويش
- بقلم مؤمنة مصطفى الشلبي
- جمع واعداد اسامة بنجر
- بقلم محمود مهدي الاستانبولي -
- مصطفى ابو النصر الشلبي
- للشيخ محمد طه الدرة
- محمد بن جميل زينو
- تحقيق ام عبد الله بنت محروس العسلي
- محمد بن جميل زينو
- تأليف خير الدين وانلي
- بقلم خير الدين وانلي
- تأليف محمود مهدي الاستانبولي
- تأليف عبد الفتاح القاضي
- استخراج وترتيب ام عبد الله بنت
- محروس العسلي

الدكتور عبد الكريم بكار	٢٩ - ابن عباس
محمد بن سليمان آل بسام	٣٠ - كشف الستار
الدكتور حسان شمسي باشا	٣١ - الاستشفاء بالعسل والغذاء الملكي
الدكتور حسان شمسي باشا	٣٢ - الشفاء بالحبة السوداء
تحقيق عثمان جمعة ضميرية	٣٣ - إمام الكلام فيما يتعلق بالقراءة خلف الإمام
الدكتور حسان شمسي باشا	٣٤ - الرضاعة من لبن الأم
ابن القيم محمد أحمد بن أحمد	٣٥ - أدلة علو الله على خلقه
تحقيق مصطفى أبو النصر الشلبي	٣٦ - شفاء العليل ٢/١ محقق
الدكتور حسان شمسي باشا	٣٧ - قبسات من الطب النبوي
الدكتور حسان شمسي باشا	٣٨ - أسرار الختان
الدكتور حسان شمسي باشا	٣٩ - الدهون والقلب والكوليسترول
محمد الناصر وخولة درويش	٤٠ - تربية الأطفال في رحاب الإسلام

تحت الطبع

١ - جامع العلوم والحكم	تحقيق بالاشتراك
٢ - اللعمة في الأجوبة السبعة	تحقيق مصطفى أبو النصر الشلبي
٣ - الفتح الكبير في ضم الزيادة الى الجامع الصغير	للسيوطي
٤ - الطفل ذلك المجهول	محمود وباحثة الإستانبولي